عبد السلام عمر جريوي

فَضَّةُ الصَّرْخَةِ

الجحيم نظرة عن كثب

عنوان الكتاب : فضة الصرخة – الجحيم نظرة عن كثب

المؤلف: عبد السلام عمر جريوي

الغلاف: لوحة " الخروج عن القطيع " توماس كوبيرا

الفصل الأول

هرع أبو ناصر مغاضبا يزبد و يرعد إلى ناصر الذي كان يلعب مع آدم:

– هل جننتَ ؟. ألم تجد صديقا أو طفلا تلعب معه غير هذا. اذهب للبيت حالا.

ثم التفت لآدم و قد املأت عيناه بالحقد و الكره الأعمى قائلا:

– أما أنت فإني أُحذرك للمرة الأولى و الأخيرة أن تلعب مع ابني مرة أخرى. فلا ينقصني من الهم غير مصاحبة ابني لأحد من عائلة المافيا.

سكن الطفل آدم ذو الأربعة اعوام كالميت في مكانه و قد تملكه شعور شديد من الرعب و لم يفقه شيئا من كلام هذا الرجل الذي يظهر له كالوحش المارد الذي يريد أن يلتهمه و قد عَلَا دقاتِ قلبه خفقانٌ شديد ، حين اِبتعد أبو ناصر و بان عن عينيه فَرَّ للبيت و عند دخوله وجد امه تبكي بكاء صامتا و هي جالسة تنظر بحرقة لنَّوْلِها و قد مُزِقَت خيوطه بعد أن بلغت النصف أو يزيد من نسج قَشَّابِيَة أحد اولادها و الجدة تقول لها:

–صبرا جميلا يا أمينة فإن الغضب ذهب بعقل عبد القادر و جاءنا بمجنون لا نعرفه بعد أن كان من اعقل الناس و اهدئهم. هداه الله. هداه الله

فدنى آدم من امه و جلس بمحاذاتها ثم وضع رأسه بحجرها و سكن.

آدم قد حباه الله بوجه طفولي مألوف حتى عند مَنْ لا يعرفه و ابتسامة رقيقة لا تفارقه ، و جبهة عريضة تسكنها خيوط التجاعيد كالتي قد خطها التفكير في جباه من يميلون للتفكير العميق في جوهر الأشياء ، و خدود مشوبة كذلك بتجاعيد لم يحفرها معول الزمن بل هي اَثر الابتسامة الدائمة اللا اِرادية.

و هو من هؤلاء الأَطفال اَصحاب الطبع الهادئ و الخجول إلى درجة السلبية و من الذين تسيطر عليهم النفس اللَوّامة سيطرة تامة ، و إنه عانى الكثير من هذا الخجل السلبي و تلك النفس اللوّامة ، و من الذين يأملون أن يعيشوا في صمت و في الجانب و الظل حيث يميل الكثير من الأطفال و يرغبون للعيش في الوسط و النور حيث تكون العيون مسلطة عليهم حيث ما ذهبوا – و بعد أن بلغ الكبر و عندما يتذكر هذا السلوك الذي يملأ حياته بكثير من الحرج لم يدر و لم يعلم إن كان هذا الطبع من السلوك أَ هو المحمود أو المذموم ؟ ، و إن كان هذا السؤال يتبادر إلى ذهنه كثيرا فلم يألو جهدا للبحث عن الجواب لهذا السؤال المعضل له ، و أما تفكيره فإنه تسمر بِماضيه فمهما سار به العمر إلى الأمام بقي ملتصقا بالماضي و صفحته التي لم تُطْوَ.–

و هو من اَوسط اشقائه الثلاثة عشر و الذين مات أكثرهم و لم يعيش منهم و من الذين حفروا في قلبه صورهم الدائمة و خلدوا في ذاكرته ذكرياتهم البيضاء و السوداء و الرمادية إلا خمسة اِشقاء و قد اختار القدر منهم اثنين في وقت ما كان القلب محتاجا لأمور سعيدة يخزنها بذاكرته حتى يحولها في قابل الأيام إلى طاقة مجددة لصاحبها ، و عاش طفولة و شبابا خطهما القدر بقلة الحظ و الصعوبة و الفوضى المفرطة و الخارجة عن السيطرة ، تلك الفوضى التي تعمل عمل الحروب و التي تصنع اِنسانا مجبرا و ليس مخيرا ، و التي تجعل الحياة تعيش الإِنسان لا الإِنسان الذي يعيش الحياة ، كما عاشهما من النقيض إلى النقيض حيث طَفُلَ و طَفُلَتْ شمس شبابه في اللهو و اللعب في وسط يكفر بالخطوط الحمراء و يتمرد على كل شيء ، مع سؤال يراوده دائما.

ما الأسباب التي تحمل الناس على تجنبه و عائلته و اعتزالهم ؟.

و قد تكون حادثةُ أبي ناصر المستهجنة – من طرف آدم رغم صغر سنه – و رَدَّةُ فعله المفاجئة و تصرفه الغليظ و جفاؤه معه أولَ ما سجلته ذاكرته من ردة فعل الناس تُجَاهَ رؤيته مع أحد ذويهم و ليست الأَخيرة ، فَمن الأَحداث المحزنة له و التي اِنطبعت في فكره و ذلك لما انتقل للمرحلة الإِعدادية و بعد أن تعرف على رفيقه بلالا و بينما هما في اَوبتهما في أحد الأَيام من المدرسة هَبَّ شقيق بلال الأَكبر ثم صفع بلالا و ركله ثم كلمه محذرا:

– أين عرفته؟.

– إنه يدرس معى في الصف نفسه.

– منذ متى و أنت تخالطه؟.

– أقول لك: إنه يدرس معي في الصف نفسه.

– لآخر مرة أراك معه هل فهمت ؟.

– فهمت. فهمت.

– عُدْ للبيت وحدك و من طريق غير طريقه.

ثم التفت لآدم:

– لا تصاحب أخي مرة أخرى. هل تفهم ذلك ؟.

سكت آدم و أكمل طريقه و هو يحس بإِحباط شديد و الإِشمئزاز من نفسه و قد ملأ الحزن قلبه و الإِستغراب و الإِستفهام فكره و هو يحدث نفسه:

– ماذا فعلت ؟. ما هو التصرف المشين الذي رآه أبو ناصر من طفل ذي اَربعة اَعوام يتصرفه و هو يلعب مع ابنه فحمله على زجري و ابعده عني ؟. و هذا شقيق بلال يعيد الكرة نفسها بغلظة قاسية و خشونة لا تطاق.

و مما يذكره مرة في أحد الأصباح المشرقة و هو ذاهب للمدرسة أنه رأى ابن الجيران جابرا و لَمَّا يتعرف عليه من قبل ، يتوجه إلى المدرسة كذلك فتقدم منه:

– صباح الخير يا جابر.

فتَمَعَّرَ وجه جابر و رد بجفاء و صدرت كلماته مَيْتَةً:

– ماذا تريد مني ؟.

– أود أن أُشاطرك الطريق لمدرستنا.

– و هل تعرفني حتى تشاطرني الطريق للمدرسة ؟. فإن اَبي حذرني من اللعب معكم و مخالطتكم.

ثم فَرَّ كمن يَفِرُّ من طريق الحية أو الأسد ، و مثله ابتعد آدم عن جابر مسرعا و الخجل يكسر حياءه كما يُكْسَرُ الزجاج ، و الحزن و الأسى يعتصر قلبه و هو يشعر بالإشمئزاز من نفسه و لامته نفسه على اِقدامه هذا ، أما كلمات جابر فإنه اَحسها سُمّاً قطع احشاءه و قنابل قد عذبت سمعه بصوتها الرهيب مما ورثته ما يشبه الأزيز العالي و المزعج و الجالب للصداع داخل رأسه طوال ذلك النهار.

هذه التصرفات الخشنة و ردود الأفعال القاسية و الجفاء الجاف التي كانت تصدر كلها من الناس حين مشاهدة أحد ذويهم معه حملته على الميل للوحدة و تجنب الآخرين ، و مخالطة نوع من الأطفال و الشباب الذين لا سلطان قويا لذويهم عليهم أو أولئك المتمردين على أوامر الأهل و المجتمع – طبعا بين هؤلاء تكثر الجريمة و العربدة و المشاكل الإجتماعية – و من هؤلاء الشباب الذين تعرف عليهم بعد أن تم فصله من المدرسة — فإنه كان يدرس و يتعلم و لا يعرف لماذا وُجِدَ التعليم في حياة الإنسان؟. فتم فصله في نهاية سنته الأولى في

الثانوية – قلتُ: و من هؤلاء الشباب الذين تعرف عليهم بعد أن فُصِلَ عن المدرسة الشاب كريم ، و هو شاب اسمر و طويل و يميل بطبعه للتعقل عن الطيش الذي يميز الشباب غير أن الأمر لا يخلو من الهَنَاتِ و السقطات الشبابية ، و ذلك أن كريم كان مدمنا للكيف و إنه اقدم مرة على سرقة بيت مغترب – و باءت السرقة بالفشل و قضى اربع سنوات في السجن – و عندما وَلَجَ بيت المغترب اَحس بالجوع ، فتوجه للثلاجة فوجد فيها الجبن الفرنسي و المأكولات المعلبة فنظم سُفْرَةً لنفسه و اَكل حتى شبع ، و لما لم يجد شيئا يستأهل السرقة مما خف وزنه و غلى ثمنه غادر البيت، و حين حققت الشرطة في السرقة و لم يجدوا شيئا مفقودا استغربوا لهذا اللص الذي يقتحم البيوت و يخاطر بنفسه من اَجل أن يأكل ، و لو قلتُ: (إنه شاب يتعقل). فلا يمنع هذا تهور الشباب فإنه بدأ ببيع الكيف فحذره آدم من ذلك.

-إنك تلعب بالنار يا كريم.

-إني آخذ حذري قدر المستطاع.

-إن الأمور يمكن أن تسير في طريق طبيعتها فإذا دخلها الطمع شذت عن طريقها و اَضرت بسالكها ، و ربما الشرطة تدري بخبرك فتتركك و شأنك فحين يبلغ بك الأمر إلى حَدٍّ فيه لاَحدهم اِعلاء رتبة ، أو خدمة تخدمه بها اَطاح بك و حينها لا ينفع الندم.

-لا تقلق فالأمر لن يطول.

فوقع لكريم ما كان آدم يُحَذِّرُهُ منه فَأُلْقِيَ عليه القبض في عملية استهدفته و وجدوا عنده كمية كبيرة من الكيف و ما يزيد عن خمسمئة حبة مخدر ، و تلك الكمية الكبيرة تثبت إن

حائزها قد حازها لِلإِتِّجَارِ بها و ليس لتعاطيها مما تعرضه للسجن فكلفتة سنين طِوَالًا من عمره.

ثم تاقت نفس آدم أن تعيش حياته تلبية لذاك النداء الداخلي الذي يؤنبه و يعذله عن هذه الحياة التي تعيشه و لا يعيشها ، حاول تهذيب نفسه قدر المستطاع و كما هي عادة البشر في مثل هذه الأمور فإنه طلب النصح و الإرشاد مِن مَنْ يشتهرون بالصلاح في محيطهم ، فَاستنصح و استرشد بمن يُعْرَفُونَ بهذه المَزِيَةِ في محيطه ، فاَرشدوه لأول خطوة و هي الصلاة و الصلاة جماعة في المساجد فهي كفيلة أن تُقَوِّمَ كل اِعوجاج فيه ، و اِنه عمل بهذه النصيحة ، فتوجه للصلاة و الصلاة في المساجد و بينما هو يصلي ذات يوم في مسجد صلاة الظهر ، و حين كَبَّرَ الإمام للركوع سجد آدم عِوَضاً عن الركوع فانتبه لسهوه فقام ثم ركع مع الإمام ، فلما قُضِيَتْ الصلاةُ و سلم الإمام سجد آدم سجدتي السهو ، و لكنه أحس بِحَرَجِ من يرتكب الحماقة و أن العيون راقبت فعله ، و هي تراقبه الآن لتعلم من هذا المخطئ في تصرفه ، فالتفت آدم ليتأكد و صدق ظنه فإنه لمح نظرة اَحدهم – مِن مَن تبدوا على وجوههم علامات الصلاح و العلم و يلفهم الوقار بلفائفه – ساقطة عليه و لم تغادره و كأنها تقول له:

–إنك اَخطأت يا هذا بقيامك بهذا الأمر.

فتوجه آدم في الحال و قصد صاحب النظرة المتكلمة ليبرر فعله.

–السلام عليك.

و مَدَّ آدم يده ليصافح الجالس ثم قعد مقابله.

–و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته.

-إني اَخطأتُ في صلاتي فسجدتُ عوضا عن الركوع ، و عرفتُ -كما تعلم – إنه من أخطأ في صلاته جَبَرَ خطأه بسجدتي سهو فأتيتُ بهما.

-كلامك صحيح لكن ذلك في صلاة مفردة لا صلاة جماعة ، أما صلاة الجماعة فأخطاء المأمومين تجبرها صلاة الإمام و هم مطالبون باتباع الإمام في كل شيء.

فانبهر آدم بهذه المعلومة التي يسمعها لأول مرة كما انبهر بقائلها و بعلمه ، فقال آدم في نفسه:

-لأغتنم الفرصة و أسأل هذا الشخص الفاضل و العالِم حول النقاش الذي دار بيني و بين البشير منذ أيام.

و كان آدم مجنونا بالغناء و الموسيقى و اَخبره البشير هذا بِحُرْمَانِيَّةِ الغناء و الموسيقى .

-أريد أن اَسألك عن أمر لو تسمح لي طبعا بسؤالك.

-تفضل.

-هل الغناء و الموسيقى حرام ؟.

-بلى.

-أنا لا اقصد موسيقى الراي بل موسيقى عَلَّا البشاري فحين انصتُ لموسيقاه أُحِسُّ بالهدوء و الطمأنينة و إني سمعتُ أن المشافي في أوروبا تستعمل موسيقاه في تَهدِئَةِ نفوس المرضى.

فابتسم المُسْتَفْتَى ابتسامة تَنُمُّ عن جهل المُسْتَفْتِي ثم كرر كلامه و اَضَافَ قائلا:

-الغناء و الموسيقى كلها حرام و قد قال رسول الله ﷺ:

" لَيكونَنَّ من أمَّتِي أقوامٌ، يَستحِلُّون الحِرَّ والحريرَ، والخمرَ و المعازفَ."

فلا تقتنع بكل ما يُقال لك و اتبع الدليل من الكتاب و السنة أما الغناء و الموسيقى فهما قرآن الشيطان فإن كنتَ مستمعا فاستمع للقرآن الكريم ففيه كل الشفاء.

فاقتنع آدم بكلام ذلك الصالح فشكره ثم تركه و ذِكْرَهُ لله أما كلامه و علمه و وقاره فإنه خَلَّفَ في نفسه اَثَرَ طيران الفراشة ، من يومها قرر أن يلتزم في الجوامع حِلَقَ الذكر و العلم مما يشبه اصحابها سَمْتَ ذلك الرجل الصالح ، و توجه إليها بنفس الظمآن المتعطش للماء و بخاصة إن ذلك الصوت الداخلي كان يشجعه على ذلك ، و ما يميز هذه الحِلَقَ إنها تتكون في الأغلب و إن لم تكن دائما من الشباب ، و بينما هم يوما في حلقتهم مَرَّ شخص مِنْ أمامهم فقال أحد الشباب:

-قتله الله.

فتعجب آدم من دعاء الشاب على المارّ فسأل الداعي:

-ما فعله هذا حتى حملك على الدعاء عليه و بقتل الله له ؟.

-إنه من جماعة ضالة و هم لا يقلون ضلالة عن تلك الجماعة المتخشعة خشوع الرهبان بغير هدي و لا دليل و التي تتحلق اَمام الأسطوانة فكلهم من جماعة يتبعون البدع و الخرافات.

فتعجب آدم لهذه العنصرية التي نطق بها الشاب المتكلم ، و الكراهية التي تغلف الكلمات التي قالها ، فسأله:

-ما حملك على النطق بهذه الكراهية و اَلفاظ البغضاء ؟.

-ألم تسمع حديث رسول الله ﷺ : " يخرجُ في آخرِ الزمانِ قومٌ أحداثُ الأسنانِ سفهاءُ الأحلامِ يقرأونَ القرآنَ لا يُجاوزُ تَرَاقِيَهُمْ يقولونَ من قولِ خيرِ البريَّةِ ، يمرقونَ من الدِّينِ كما

يَمرُقُ السهمُ من الرَّمِيَّةِ ". و خوارج هذا الزمان هم هؤلاء فلا عمل لهم إلا تسليط ألسنتهم على الحكام المسلمين الذين أُمِرْنَا بطاعتهم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " اسمعوا و أطيعوا و إن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ". أما الآخرون فإنهم فرقة ضالة مضلة مبتدعة و في مثلها ورد حديث رسول الله ﷺ : " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟. قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي ". أفلا نكره الإثنين و نبغضهم و نحذر الناس منهم؟.

فقال شاب آخر من الحاضرين:

–أنظروا لصاحبهم ذلك الذي اَلصق ذقنه بصدره و هو يبكي لعلهم أمروه أن يكون عشاؤهم عنده الليلة.

ثم ضحك و ضحك الجميع ، لم يغادر آدمَ الإِستغرابُ و الإِستنكار اَياما و ليالي لهذه العواطف البغيضة و كلمات الكراهية التي بدت من افواه الجالسين ، و الإِحتقار الذي اَظهروه لأناس لا عيب لهم إلا انهم يملكون وجهة نظر أخرى للأشياء ، و خاصة إنها تصدر من شباب يدعون ميلهم للصلاح و المحبة للآخرين ، و التي يدعو لها الدين ، و بالأخص أن هَجْوَهُمْ لهم تم في بيت الله ، و من تلك الجلسة استبصر الناس في الجوامع تلتزم حِلَقاً عينها لا تغيرها اَبدا – و حين اَقول (حِلَقاً) فلا أقصد مجالس فنون العلوم و الذِكْرِ بل هي مجرد مجموعات من اَشخاص عاديين ، لهم قناعاتهم الذاتية نفسها لا يخالطهم في مجلسهم اَحَدٌ من غير معتقدهم – ، نعم تبين إنه للناس اَحكاما سابقة و ثابتة بها يحكمون و إليها يرجعون ، و على اساسها يصادقون و يخاصمون ، و يحبون و يكرهون ، و ما على الإنسان

حتى يسلم إلا مخالطة من هم على تفكيره و اعتقاده ، فبدأت مرحلة جديدة في حياة آدم مخالفة لمرحلة حياته الأخرى.

الفصل الثاني

و أما أكبرُ اخوته فهو علي ، و إنه لقي من والديه الرعاية الزائدة و الحنان المفرط في طفولته و بداية شبابه ، كعادة الوالدين حديثي الزواج فإن قوة اهتمامهم العائلي في أَوَجِهِ و توجههما و اهتمامهما يكونان مُصَوَبَيْنِ للأسرة و الأولاد و مركزة عليهم و بالخصوص من طرف الأب ، وُلِد علي سنة ستين و تسع مئة و ألف ، و كانت ولادته ولادة الحنان لوالديه لأنهما ترعرعا يتيمين ، فالأب عاش يتيما و لم ير اَباه ، و الأم تربت لَطِيمَةً حيث لم تَطْفُلْ في جنة أمها إنما في نار زوجة الأب مع أُخت شقيقة كبرى ، و اِخوة من أب يتلقون كل الرعاية الكاملة من أُمهم مع اِهمال الربيبتين ، و تحت نظر والديهما الذي كانت تملؤه الحسرة و يقتله الإِشفاق علي اليتيمتين و كان ينتظر الفرصة لتزويجهما حتى يخلصهما من هذا الصعب و يخلص نفسه من العذاب الداخلي – فآسف ما تأسف عليه أم علي طيلة حياتها هو وفاة والدها اِثْرَ تلقي ضربة من عربيد قريتهم على مستوى صدره بصندوق مَمْلوء بكامله بقارورات الخمر فاشتكى أياما ثم مات ، كما كانت ولادة علي السند الذي يُرْجَى تقوية الظهر بعد ضعف و يغني بعد فقر مدقع.

انتقل علي للعيش مع والديه و اَشقائه و جَدَّتِهِ إلى المدينة بعد سكنى الريف ، و ذلك بعد أن رغب الأب عبد القادر سكنى المدينة حيث التعليم متوفر و المدارس قريبة لأولاده و الحياة فيها أقل قسوة من الريف في تلك الفترة المرهقة ، و هروبا من ذكريات الريف المحزنة التي عاشها مع والدته حيث ترعرع يتيما من الأب الذي لم يره قط في بيت مكون من غرفة واحدة مع أم أرملة و أخت غير شقيقة تكبره ، و كانت لها توأما غير أنها توفيت و هي

صغيرة ، و التي تحتفظ لهما أمها بذكرى ولادة حزينة ، ففي ليلة باردة جاءها المخاض فلما وضعتهما و اخبروا والدهما:

-إنك رُزِقْتَ بنتان.

فلما سمع الخبر اسود وجهه فدخل الغرفة و قال لها:

-إذن قد ولدتي لي بنتين.!

ثم ترك الغرفة و خرج فتبعته أُمه فرأته يشحذ سكينا فرجعت للنفساء مسرعة:

-أُهربي بابنتيك فإني رأيت الطاهر يحد سكينه ، و كأني به يهم بذبحك أنت و الإبنتين.

فحملت الأُم المسكينة إبنتيها و هربت فلما بلغت مقبرة سمعت صوت عدو حصان يلحقها فدخلت المقبرة ، و نظرت يمنة و شمالا فلم تجد ملجأ لها غير قبر خرب فدخلته و سكنت فيه ، ولما ادرك الفارس المقبرة اكمل طريقه لما لم يلحظ احدا ، و باتت الأُم المسكينة و النفساء ليلتها كاملة بذلك القبر و هي تحضن إبنتيها ، فلم تجرأ على مغادرة القبر من شديد خوفها حتى طلع عليها النهار ، فلحقت بدار اَهلها في حالة يرثى لها مشعثة الرأس يملأ الغبار شعرها ، مصفرة الوجه تعلوه حمى شديدة ، و ضعيفة الجسد و قد بلغ منها الجهد مبلغه ، و لما دم النفاس ملتصقا بثوبها المهلهل ، و تحمل في يديها اَبنتيها اللّذَيْن لُفَّتَا كلا منهما في خرقة بالية ، و كيف ما اتفق .

أما تلك الغرفة فقد إسودت حيطانها من نار الخشب الذي يستعملونه حطبا للطهي و التدفئة أما السقف فهو من القش ، و شاركتهم تلك الغرفةَ البئيسةَ بقرتهم الوحيدة و عنيزة و بعض الدجاجات ، أما الكفيل الوحيد للعائلة فهي الأم حيث تخدم في بيوت الآخرين حتى تستطيع إعالة أُسرتها ، و من الذكريات المؤلمة التي لم يفصح عنها عبد القادر إلا حين بلغ من

العمر عِتِياً و رَقَّ العظم و القلب و اشتعل الرأس شيبا ، و اَدرك تلك السنوات حيث يميل الإنسان إلى فتح صندوق اَسراره و ذكرياته لمحدثيه و بالخصوص الأقربين إلى قلبه من جلسائه ، حيث كان يبلغ من العمر بضع سنين من عمره يلعب بالقرب من أمه التي كانت تغسل الثياب في واد القرية –كعادة نساء القرى في ذلك الزمان – فلما مرت بالقرب منها بقرة جارها قاصدة ورود الماء نهرتها حتى لا توسخ غسيلها فما كان من الجار – صاحب البقرة – إلا أن توجه للأم وضربها بعصا غليظة على ظهرها فلولا لم تكن قوية لأرداها قتيلة ، و حين شاهد عبد القادر هذا الموقف انفجر بالبكاء و حمل حجرا ثم رمى به ذلك الجار فَرَدَّ عليه هذا بلطمة قوية أوقعته أرضا ، كما يتذكر باستنكار و حسرة و اَلم موفقه خاله السلبي في يومها و برودته التي يفسرها عبد القادر

–إنها جبن ما بعده جبن.

و كانت لحادثة أخرى خطيرة الأثر الكبير في تفكيره و التي بقي يتذكرها طوال حياته و ذلك حين بلغ مرحلة الشباب فكانت الثورة قد بدأت ، و اَصبحت الأمور على المحك ، و في ليلة مظلمة قُرِعَ باب الكوخ و حين فتح عبد القادر الباب ألفى مجموعة من الثوار المسلحين لدى الباب

–هل أنت عبد القادر ؟.

–نعم.

–امشي معنا.

–إلى أين ؟.

–قلتُ لك: تفضل معنا و ستعرف إلى أين.

في هذه اللحظة تدخلت الأم و رجت الطارقين الثوار أن يتركوا فلذة كبدها و شأنه فلم تجد عندهم قبولا فَرَجَتْهُمْ أن يخبروها — على الأقل – عن السبب الذي يقتادون ولدها من اَجله في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، و عن الوجهة التي يتوجهون به إليها فرد أحدهم:

–إن ولدك هذا قد وردت الناحيةَ اَخبارٌ عن نقله اسماء اشخاص ثوريين للسلطات الفرنسية ، و الناحيةُ تريده للبت في أمره.

و بعد أن ساقوا ابنها الوحيد فما كان من الأم المسكينة إلا أن ندبت حظها و حظ ولدها البائس اليتيم ، و لم تنم ليلتها و هي تبكي ولدها ، و في صباح اليوم التالي و حين أنار الجانب الشرقي من السماء و لما تطلع الشمس بَعْدُ ، توجهت ماشية نحو قرية تبعد عن قريتها بحوالي خمسة عشر كيلو مترا حيث يقطن قريب لزوجها ، و هو معروف و مشهور بنضاله و له مكانة في الناحية ، فلما وصلتها قصدت بيته مباشرة و اخبرته بالحادثة و رجته أن يتدخل

–اَرجوك أن تنجد يتيم ولد ابن عمك.

–اهدئي و قَرِّ عَيْنًا ، فإن لم يفعل شيئا سيعود لك سليما معافى ، ربما هناك خطأ ما فسأستفسر عن الأمر.

و توجه من فوره للناحية ، و ما اَظلمت ليلة ذلك اليوم إلا و قد عاد بعبد القادر ، فهذه الحادثة التي يعدها أخطر ما مَرَّ عليه في حياته تركت بصمتها عليه و اَفقدته مودة الناس ، و زرعت عقيدة في نفسه أن الإنسان لا يملك ذرة من الرحمة و أن هذه الدنيا تؤخذ غِلَاباً ، فقرر ترك البلاد بكاملها و فعلا توجه لفرنسا حيث عمل هناك اَعمالا كثيرة كان آخرها في

شركة المياه الفرنسية بصفته سَبَّاكاً ، و هل الدنيا رَدَّتْ ظهر المجن إلى وضعه الصحيح بعد أن قلبته لعبد القادر ؟.

كلا.

فها هو يكشف عن أحد أسراره الأخرى فإنه تعرض أحد أقاربه في فرنسا لتنمر بينما هم في مكان عملهم من طرف مغترب آخر ، فما كان من عبد القادر إلا أن هبَّ لنجدة قريبه و تصدى لذلك المتنمر لكن هذا لم يرتدع ، و أراد أن يهجم على عبد القادر فضربه الأخيرُ بعصا غليظة بين كتفيه و تم التفريق بينهما ، و بعد مرور أيام قليلة تصل الأخبار إليه

–من تشاجرت معه أدخل المستشفى و إنه توفي ، و إن اَهله تقدموا بشكوى لدى الشرطة الفرنسية يتهمونك بقتله.

و فعلا جرى كما بُلِّغَ و حولت القضية للمحكمة ، و حكمت المحكمة بتبرئته من القتل و أن الوفاة طبيعية و لا علاقة للشجار بها ، و مع هذا بقيت الأخبار تَرِدُ لعبد القادر

–إن اَقارب المتوفى يتربصون بك الدوائر للثأر لقتيلهم.

فتوجس خيفةَ تَرْكِ أمه و اَولاده تذيقهم الدنيا من علقمها مثل ما ذاقها إن تم قتله ، فقرر الرجوع لوطنه.

و كانت أول بادرة باشرها عبد القادر هو الإنتقال للعيش في المدينة و ترك الريف و قسوته و ذكرياته المحزنة له و لوالدته وراء ظهره ، و قد قام بذلك ، فعلى صعيد العمل ليعيل اَهله فإنه توجه للتجارة فاشترى سيارة من نوع بيجو اَربعمئة و ثلاثة من نوع Pick-Up) (Bâché، ثم بدأ بتجارة الملح و لما رأى أثره على حيطان بيته و اَرضيته حيث اِهترأت منه قرر ترك تجارة الملح و توجه لبيع الخُضَرِ في الأسواق ، و أما من الناحية النفسية فإنه أصبح

سريع الغضب و في كثير من الأحيان تظهر عليه الهيستيريا الجنونية لأتفه الأسباب ، و أكثر مَن يصيبه شر هذه النوبات هي زوجته المسكينة ثم اَولاده ، في هذه السنوات كان علي قد شَبَّ ، و كانت تلك المرحلة أي مرحلة السبعينات من القرن العشرين تتميز بالحرية الشخصية المبالغ فيها ، فالشباب الذين لا يملكون مرشدا و موجها قد ينجرفون وراء صبوة شبابهم و سَوْرَتِهِ ، و إنه ساعد في ذلك الرخاء الاِقتصادي الذي يعرفه العالم و تشهده البلاد على وجه الخصوص ، و زاد فيها توفر فرص العمل و سهولة التنقل و السفر داخل البلاد و خارجها ، حيث تمكن علي من الحصول على منصب عمل في شركة الحديد و نُصِّبَ عامل مراقب الميزان ، فَوَفَّرَ هذا العمل بين يديه قلب الفتنة و هو المال ، و ما زاد في انجرافهم تلك الفلسفات و الثقافات التي تجيز للشباب اَلاِهتمام بِمُتَعِ شبابهم و صحتهم بل تذم أُولئك الشباب الطيبين البعيدين عن هذا الاِنجراف و ترى فيهم نوعا من التشدد و المرض ، و ما زاد في انتشارها و هجوم البشر على الحياة و الاستمتاع بها بكل جوارحهم هو خروجهم من نار حرب عالمية اَكلت الاَخضر و اليابس .

بدأ علي السهر خارج البيت و الرحلات مع أصدقائه حتى كثرت و في يوم من الأيام تبادر إلى سمع عبد القادر إن ابنه يعاقر الخمر فرأى عبد القادر أن تزويج ابنه يحل المشكلة ، و بينما هو في يوم في حديث مع أحد معارفه قال لمحدثه:

-إني اَرغب في تزويج ابني و أنا اَبحث له عن عروس.

-طلبك عندي و هي شقيقة كَنَّتِي و إن كانت اَخلاق الفتاة تشبه أُختها فإني أُرشحها لك و أُزكيها ، أما والدها فإنه يتمتع بسمعة عَطِرَةٍ بيننا.

-طيب حدد لنا موعدا مع والدها و ليبارك الله في الجميع.

و تم الأمر و التحديد فتوجه عبد القادر مع والدته في اليوم المحدد حسب الأُصول لخطبة الفتاة ، و حين اللقاء رغب والد الفتاة في مصاهرتة كما وَدَّ عبد القادر مُناسَبَةَ الرجل و بالخصوص أن والدها يتمتع بِوَسَامَةٍ و وضاءة و صحة جيدة فَعَسَى أن تكون الفتاة قد ورثت تلك المحاسن عن اَبيها فحُدِدَ زمن كتابة العقد و العرس ، و لما توجهت الجدة لترى العروس لم ترها و إنما رأت أُمها ، و حين مغادرتهما سمعا الفتاة تصرخ و تُبْدِي رفضها للزواج و والدها يرغمها و يحاول اِسكاتها بالقوة لكن ذلك ما كان يردعها ، مما اِضْطُرَ عبد القادر للمناداة على والد العروس و تخييره:

-يمكننا اِحلال بعضنا إن كان في الأمر شيء من الحرج لك و الضيق للفتاة.

-لا يوجد شيء من ذلك و كلمتي و موافقتي قد سمعتها ، فلا تشغل بالك بما يجري الآن.

-لعل الفتاة لا ترغب أن تكون عروسنا فأنا أُحلك من وعدك لي.

-و متى كانت الكلمة لبناتنا اِنطلق على بركة الله ، و الأُمور طيبة و على ما اتفقنا عليه.

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام ، في رعاية الله و حفظه ، صحبتكما السلامة.

حين عادا للبيت سألت الحفيدة حمامة الجدةَ

-بشرينا هل هي جميلة ؟.

-هي جميلة و طويلة و بصحة جيدة.

-إِيهِ.

-لا. لم أرها إني رأيتُ والدها.

فضحك الحاضرون ، و أثناء العرس لما زُفَّتْ العروس اكتشف الحاضرون إنها صورة مؤنثة عن والدها ، و قد ورثت حقا عنه الجمال و الوضاءة و الصحة و الطول ، و صدق حدس الوالد عبد القادر و الجدة ، و إن العروس خديجة نشأت في بيت ريفي واسع الغرف قد بنيت حيطانه من الطين المخلوط بالقش و اخشاب الأشجار و السقف العالي القرميدي ، و إلى جانب البيت بستان وافر قد استوعب كل أنواع أشجار الفاكهة ففيه شجرة كرم و تفاح و رمان و تين و إجاص و غيرها من الأشجار الواسعة الضل ، و ما زاد من جمال البيت و البستان هو موقعهما الجميل في أحضان الطبيعة ، و على سهل جبل مما يسمح بالإستمتاع بالهواء المنعش و المنظر الجميل للطبيعة الخلابة على مدى البصر ، و هو متفرد و منعزل عن البيوت الأُخرى مما يسمح لقاطنيه بحرية التحرك و الخروج و الدخول و التَّبَسُّطِ فِي الحَدِيثِ و لو بالصوت العالي و بالخصوص للنساء و الفتياة ، و من يعيش في هذه البيوت يجد صعوبة في التأقلم في بيوت المدينة و القرار بين جدرانها ، و التي تراها نفسه شبيهة بالسجن لا بالبيت ، و هي وسطى اشقائها فيكبرها اخوها الزبير المتزوج و له من الأولاد – حين تزوجت – اربعة من الولد ، ولادان و بنتان ، و اضافة لأُمهما فقد كان الزبير يقطن مع والديه و اخوته البنات ، كما تكبرها اختها منال و تصغرها بنتان ، و ما زاد خديجة تعلقا ببيت أهلها هو الحب و السكينة و الرحمة اللذان يغلفانه و ميل الأهل للحياة الاجتماعية ، و إنها ورثت قوة الشخصية عن نساء مجتمعها.

لكن قلب علي من شهوره الأولى نفر من زوجته و رغب في فراقها فكلم والده:

–يا أبي إني عازم على طلاقها.

–ماذا تقول. ؟ هل جننتَ ؟.

-لا أريدها ... لا أريدها.

-و ماذا تقول عنا الناس ؟.

-هذا لا يعنيني. الذي يهمني هو مفارقتها.

-هل هناك سبب يحملك على اتخاذ قرار الفراق ؟.

-لا يوجد سبب معين.

-إذن ؟. اسمع يا علي ربما الزمن كفيل أن يُؤْدِمَ بينكما ، فلا تستعجل و تريث.

و لما كان علي يحترم أباه و يوقره كفى عن الكلام و بعد مرور تسعة أشهر رُزِقَ بمولوده الأول و كانت أُنثى و في السنة الثانية بمولوده الثاني و كان ذكرا و في عامه السابع بلغوا سبعة اَولاد ، خمسة ذكور و بنتان.

كما رزق والده عبد القادر بالعديد من الأَولاد لكن مات أكثرهم فبعضهم في شبابهم و البعض اَطفالا و البعض في اَيامهم الأُولى من الولادة و لم يعيش منهم إلا ستة – اربعة اَولاد و بنتان – فَبالإضافة إلى آدم وعلي قد رزقه الله بالعمري و حمامة و وهيبة و عبد الحليم و كان لعبد الحليم توأما فلما بلغا عامهما الثالث مرض توأمه و توفي أما آدم فإنه أُصيب بمرض يَرَقَانِ الرُّضَّعِ و حين خافت الأُم أن يصيبه ما اَصاب اَشقاءه و ذلك حين يتبع مَرَضَهُ وَفَاةٌ كانت تدعو الله كثيرا في مرضه و تقول:

-اللهم آدم و لا آدم بعده.

و سبحان الله !. فإنه توفي من جاؤوا بعده و هم في مرحلة الأَجنة أو اَثناء الوضع ، و ذاقت الأُم الكثير من الأَلم و عاشت صابرة محتسبة كمن يمسك الجمر بشماله و الأَمل بيمينه و ذاقت العلقم و الصَبِرَ من غضب زوجها عبد القادر المفرط الهستيري الذي يحوله إلى اَفعال

فلا تكاد تسلم مرة من ضربه و شتمه لها و تقلباته المزاجية الحادة و قلة صبره لمصائب الحياة مهما كانت كبيرة أو صغيرة فمما تذكر و تردد ذلك كثيرا بحزن و حسرة و اَلَمٍ و نَدَمٍ و كسرة قلب و الدموع حبيسة عينيها عن صباح يوم مشرق من اَيام الله و بينما هي تتهيأ لصلاة الظهر ترجاها العمري أن تأذن له بالخروج للعلب مع اَترابه فلم تسمح له مهددة إياه بإخبار والده إن لم يمتثل للأمر و خرج دون علمها ، ثم كَبَّرَتْ و باشرت صلاتها فسكت العمري و تقبل الأمر و استلقى على ظهره على اَرض فسحة الدار.

-يا أمي عيني.

فلما سمعت الأم – و هي في صلاتها – صراخ العمري و ترديده لكلماته هذه و هو فيحالة هستيرية من البكاء ، قالت في نفسها:

-إنه يدّعي ذلك حتى اسمح له بالخروج و اللعب ، ما أنا بفاعلة و لا أنا تاركة صلاتي حتى أتمها.

و بينما هي في صلاتها سمعت صوت الجدة:

-أمينة. اِجري فقد فُقِأَتْ عينُ ابنك.

فهبت الأُم اَمينة تجري إلى فسحة البيت فرأت ابنها العمري جالسا يغطي بكفيه عينه اليمنى و الدم يسيل بين اَصابعه و عند رأسه شقيقه الطفل عبد الحليم يحمل خشبة في طرفها مسمار و هو خائف و ممتقع اللون و في حالة ذهول ، فجرت و ابعدت كفيه عن عينه ثم مسحت عينه بكفها فأحست بمثل الزيت ممزوجا بالدم بين اَصابعها و في كفها ، فدققت النظر إليه و هي تفرك اَصابعها فلم تدري ما هو ثم ضمته إلى صدرها و الاَلم يعتصر قلبها و هو يبكي بحرقة و يشتكي عينه و ظلمتها و هي تقول:

-لا تجزع يا بني. لا تجزع.

-أنا خائف فإن عاد أبي سيضربني.

-لا تخف يا بني.

كما اَرسلت من يأتيها بعلي على جناح السرعة حتى يسعف شقيقه ، فلما نُقِلَ العمري إلى استعجالات المدينة الوحيد لم يتمكنوا من نجدته فحُوِّلَ مباشرة إلى مشفى المحافظة التي تبعد ثلاثين كيلو مترا و هناك تمت رعايته لكن مع اَسف الجراحين لِانقاذ رؤيته و ذلك للتأخر في استنجاده حيث فقد قرنيته.

في هذه الساعات كان عبد القادر في سوقه و تجارته و عند عودته للبيت و حين نظر في عيون الجدة و الأُم رأى الخوف يخيم في العيون و قد اِختلط مع الحزن و حينها اَحس بحدوث شيء في غيابه و قد افتقد العمري بين الحضور فسأل:

-أين العمري ؟.

-العمري ذهب به عَلِيٌ للاِستعجالات.

-هل حدث مكروه في غيابي؟.

-أُصِيبَتْ عينه اِصابة بليغة و هو يلعب بتلك الخشبة.

فتوجه عبد القادر من فوره إلى استعجالات المدينة فلما وصل بحث فيها عن ولديه فلما لم يجدهما سأل في مكتب الاِستعلامات عن ابنه المصاب

-ما اسم ابنك و ما سبب اسعافه ؟.

-اسمه العمري عبد القادر و أُصيبت عينه.

-ابنك حُوِّل إلى مشفى المحافظة ، لأنه بحاجة إلى جَرَّاحِ عيون و في مشفانا نفتقد له.

فلما أُخْبِرَ عبد القادر عن وجهة ولده عاد لبيته و قد اَعمى الغضب بصيرته و الحزن و الشفقة يملآن قلبه على ولده و غَلَى صدره كالمرجل و انتفخت اَوداجه و احمرت عيناه، و اَول من صب عليه غضبه في البيت هي الأُم المسكينة ، فكلما تذكرت الأُم القصة تقول:

–ليتني تركتُ ولدي يخرج للعب و ما العمل فإن الرهبة من عبد القادر منعتني و لم اَدْرِ ساعتها و أنا اَمسح عينه إني اَمسح نور بصره ، ليتني تركته يذهب ، ليتني قطعتُ صلاتي اَول ما سمعتُ صراخه.

و هي تبكي بكاء صامتا و بكاء من لا يريد أن يشارك غيره حزنه رغم كبره ثم تمسح دمعات عينيها الذابلتين من الأسى على آلامها و آلام اَبنائها و تلك الدموع التي ندرت لكثرة بكائها حتى يظنها الجالس الغريب أنها تتباكى ، و من قصصها أن ابنتها الصغرى وهيبة و في يوم من اَيام طفولتها اَصابتها حمى ارتفاع حرارة شديدة دامت ثلاثة اَيام حتى لزمت الفراش و لم تدر ما التصرف الصحيح في هذه الحالة و بعد ليلة أشد من سابقاتها أُصيبت بسكة دماغية اَورثتها اِعاقة في التفكير و النطق و شللا في ذراعها الأيمن بعدما كانت سليمة معافة ، لكن ما فقدته مما كانت ترجوه من وهيبة فإنه اَملت في تحصيله من شقيقتها الكبرى حمامة.

الفصل الثالث

حمامة نور البيت و حنانه و أُنسه و فرحته و فُرجَتُه فهي من تخفف على أُمها اَحزانها و قسوة الأيام عليها ، فتاة محبوبة عند الجميع لطيب قلبها و مرحها الدائم و صفاء سريرتها ، لم تكمل عامها الثامن عشر حيث تقدم لخطبتها شاب جار لهم صالح كان رفيق شقيقها علي و يعمل بمؤسسة التكوين المهني فوافق والدها عبد القادر على الفور لأن الشاب كان من الناصحين الدائمين لعلي ليبتعد عن السهر و الشرب فظن الوالد عبد القادر أنه بعد موافقته و تزويجه لبنته يكون له آزرا قويا في تقويم اِعوجاج علي لكن الأب عبد القادر خاب ظنه هذه المرة و قد اكتشف و تيقين بعد ذلك أن لخضر كان سبب قربه و ملازمته لعلي و نصحه له حتى ينال مراده و هو الظفر بحمامة زوجة له فما إن نال مراده حتى ترك آدم و شأنه لكن لم يمنعه ذلك من أن يكون صهرا محترما للعائلة و رجلا يقدر زوجته و يودها ويحترمها و اَهلها ، و سكنا زمنا ببيته القريب من دار عبد القادر ثم كان من الفائزين بقرعة الحصول على شقة بصيغة ايجار ينتهي بتملك فرحل إليها و بعد مرور اَعوام قليلة وقع حادث سيارة اَودى بحياته حيث كان في طريقه مع بعض زملائه في رحلة عمل ، لم تُرْزَقْ حمامة بولد في زواجها، و بعد مرور اَعوام و هي اَرملة تقدم لخطبتها رجل مطلق و وافق الأب لأن المتقدم لا يعيبه شيء و ما حمل حمامة على الموافقة أن له ولدا و طليقته تتمتع بحضانته لصغر سنه فرجت ولدا منه ، و عاشت معه بضع سنوات لم تنجب خلالها لكن رغبة حمامة في الاِنجاب كانت قوية فتوجهت للتداوي و بعد الفحوصات تبين أن أمل الاِنجاب موجود لكنها تحتاج لفترة تتناول خلالها الاَدوية و تتبع النصائح الطبية و التقيد بها و كان ذلك و فعلا حبلت حمامة بجنين ذكر فلم تسع الدنيا فرحتها و فرحت الأُم لفرح

اِبنتها و سعدت لها أيما سعادة ، لكن خلال اَواخر الحمل و بعد الفحوصات تقرر أن حمامة لا يمكن لها أن تلد ولادة طبيعية و لا بُدَّ لها من عملية قيصرية و كان ذلك لكنها خلال اجراء العملية و بعد شق الجراح بطنها همت بالجلوس فهرع المسؤول عن التخدير لزيادة الجرعة من غير تقدير علمي دقيق بعد العملية أُخرجت حمامة من غرفة العمليات لغرفة الاِنعاش مباشرة أما الولد فكان بصحة جيدة فلما أُخبرت الأُم بأن ابنتها و نور فرحتها حمامة حوّلت لغرفة الاِنعاش اَحست الخبر مثل سكين غُرِسَ بقلبها فاَنتشر اَلَمُهُ بكل ذرة من جسمها و تذكرت ابنتها حين خرجت من شقتها متوجهة إلى المستشفى في يوم عمليتها كيف تنظر لحيطان بيتها و كأنها تودعها وداع بعيد السفر و تذكرت ما فقدت من ابنائها الكثر فتوجست خيفة و تمر الأيام ثم شهر ثم شهران و حمامة لم تغادر غرفة الاِنعاش و خلالها سكن الحزن قلوب اَهلها و توطن فيه بدأ جسم حمامة يتأثر بذلك السبات الطويل فظهرت دائرتان زرقاوان داكنة حول عينيها و ازرق ظهرها من الاستلقاء الطويل على هيئة واحدة أما شعرها فقد سقط من مؤخرة رأسها حيث يلامس المخدة و ظهرت بقعة كبيرة من الصلع فتعذبت العائلة بعذاب اِبنتهم فمما يذكر آدم من تلك الذكريات و هي اَوبة والده عبد القادر من اِحدى عياداته اليومية لابنته حمامة فحين شاهد آدم اَجهش بالبكاء و قال:

-لا اَظن أن حمامة تعود لنا فإني أُحس الموت يسكن تلك الغرفة.

أما الأُم اَمينة فلم تفارق الدمعة عينها من اَول ما سمعت خبر تحويل اِبنتها إلى غرفة الاِنعاش و فجأة و في يوم من اَيام شهرها الثالث في الغيبوبة اَفاقت حمامة ففرحت أُمها فرحا عظيما ووضع رضيعها على صدرها و هي في استلقائها لتراه فنظرت إليه و ما هي إلا لحظات حتى

دخلت في غيبوبتها مرة أُخرى و بعد عذاب تجرع الجميع آلآم حزنه توفيت حمامة في غرفة الإنعاش و كُتِبَ في التقرير (الوفاة جرعة زائدة أثناء العملية بسبب خطأ طبي).

بفقدان حمامة فقدت الأُم أَمينة أَسباب فرحتها فلم تُشاهد إلا باكية حين وحدتها إشتياقا لفلذة كبدها رَافَعَةً عَقِيرَتَهَا بِالغِنَاءِ و الحِداء بحزن شديد ترثي فراقها و توطن الحزن قلبها من يوم وفاة حمامة و إن ضحكت فهي ضحكة مجاملة لمحدثها إذا تحدث بحديث يدعو لذلك.

بعد مرور قرابة الشهر عن أيام التعزية سأل الوالد عبد القادر عن ذهب زوجته آمينة لعلمه بما تكنه الام لابنتها حمامة من حب جم تنسى فيه الكل حتى نفسها فلم تبخل عليها بشيء حتى الذهب الذي اشتراه لها عبد القادر حين كان يعمل بفرنسا.

-آمينة أين الذهب.

فوجمت الأُم و لم تدر ما تقول فاحس عبد القادر بحدوث امر لا يعلم من خبره شيئا فاعاد سؤاله.

-ذهبك اين هو يا أَمينة.

-الذهب بقي عند حمامة.

-حمامة من سكان القبور يا امينة فأين ذهبك ؟.

-قصدت هو في شقتها.

فثارت ثائرة عبد القادر عند سماع الجواب و أَستشاط غضبا.

-هل جننت ؟. كيف تتركين ذهبك في شقتها و هي بين الحياة و الموت في غرفة تعد بوابة على الآخرة.

-إن تفكيري بحالة أَبنتي و ما تعانيه أَنساني كل شيء

-ماذا تقولين ؟. لكن الحديث معك الآن لا يجدي و سوف نتحدث عن هذا الأمر في وقته.

ثم تناول عبد القادر معطفه و توجه من فوره لشقة ابنته حيث يوجد زوجها و أُمه و حفيده الرضيع و حين دخوله و جلوسه سأل زوجها.

-زهير ناولني الذهب.

-الذهب لا يغادر هذه الشقة حتى يتم قسمة الإرث و حينها يأخذ كل إنسان بما شرعه الله.

-أي إرث تتحدث عنه فالذهب ملك لأُمها و إني أنا من اشتراه كله و أنت تعلم ذلك.

فقالت أُم زهير لإبنها

-اعطه الذهب يا زهير و لا تجعل الدنيا تفرق بينكم بعدما جمع الله بينكم و جعلكم أُسرة واحدة فإن ماتت من كانت تربطكما فإنها تركت حبلا بينكما متينا لا ينقطع إلا إذا أحب أحدكما ذلك و هو ذلك الرضيع النائم هناك في مهده.

فتوجه زهير للغرفة الثانية ثم عاد يحمل كيسا ووضعه بين يدي عبد القادر فلما فتحه و نظر في داخله نقل نظرته إلى زهير و قال:

-أين بقية الذهب ؟.

-هذا كل الذهب الموجود.

-الكيس الذي ناولتني إياه لا يحتوي على كل الذهب.

-هذا الذهب الذي تركته قبل توجهها للمستشفى و إني ألتمس في كلامك إتهاما لي.

-لم أتوقع منك هذه الخاتمة يا زهير و إني كنت أعدك أحد ابنائي بل و من المقربين إلي.

ثم غادر شقة ابنته و ذهب مغاضبا إلى بيته فانفجر كالبركان على اَهل بيته و طبعا لم يكن ساعتها غير زوجته فصب كل غضبه فهجم عليها كالأَسد الثائر على خصمه حين يلقاه داخل اراضي مملكته و قد تعدى على الحدود فتعرضت للضرب و الشتم و العَذْلِ

–أنت سبب ما أنا فيه أيتها الغافلة التي لا تدري بما يدور حولها، أُنظري لما اَوصلنا حبك الاَعمى لِابنتك فكل ما بخلتُ به نفسي من مال و ادخرته فِزَنْكَ فِزَنْكَ و بعد تجميعه اَقول في نفسي " هي اَولى به فدعها تتباهى بين اترابها " فاَشتريه ذهبا لك . فرضيتُ بالجوع و العري و ضحيت بسعادتي من اَجلك فذهب كل تعبي اَدراج الرياح و الاَعظم في هذا أن ثمن ما بذلته من جهد قبضه غيري و غريب ادخلته بيتي و رضيت به زوجا لِابنتي و لم اَبخل عليه بشيء مما يحتاجه مني فكان جزائي جزاء سنمار.

ثم بدأ يصفع وجهه حتى اِحمر و هو يصرخ و يدعو على اِبنته و يقول:

–اللهم لا ترحم حمامة. لا رحمك الله ايتها الشقية و شكرا لك على ما بليتني به من ثعلب ماكر في جلد رجل.

و أُمها تبكي بكاء مريرا قطع اَنفاسها و في المساء سُمِعَ خنين عبد القادر على ابنته من وراء باب غرفته الموصد ثم نحيبه و هو يدعو لها بالرحمة الواسعة لكن ذلك اليوم لحقتها اَياما أُخرى شديدة و عصيبة على عائلة عبد القادر بسبب حدة غضبه الذي يضل درجة الجنون و لأن جزنهم على حمامة في اَوجه و اكبر من وقع عليه هذا الحمل العظيم هي الأُم اَمينة.

حقيقة الذهب المفقود ضاعت فبعضهم قال:

–إن الذهب باعته حمامة و استعانت بثمنه في تطبيب نفسها من العقم.

أما عبد القادر فيرى أن الذهب قد باعه زهير و استعان به في تجارة الألبسة التي كان يمارسها فخسره كله و بين هذا و ذاك ضاعت الحقيقة و لكن اَهم ما يُذْكَرُ هو أن زهير حول ملكية شقة حمامة لملكيته عن طريق التحايل و الرشوة و ذلك في مرض موتها و هي في غيبوبتها وكان يقول:

-كنت متيقنا من أن غيبوبتها الطويلة سيخلفها موت محتم.

ثم باع الشقة و اشترى بيتا بمدينته التي ولد فيها ونشأ وترعرع لكنه تركها ليسكن مع زوجته في مدينتها هي و كان يقول:

-تركتها خوفا على ابني من أن يتربى في عائلة اَخواله المافيا.

ثم رجع ليقطن بمدينة زوجته أما اِبنه الذي كان يخاف عليه من أن ينشأ في عائلة اخواله المافيا فإنه طَفُلَ و شَبَّ عنده في معيشة ضنكة و بائسة و استقر به الحال بعيدا عنه و عن اَخواله عند جدته أُم زهير .

الفصل الرابع

أما علي فقد تطرف في سهراته و رحلاته و ما ظن والده عبد القادر أنه يُهَذِبُهُ و يعقله زاده نفورا عن البيت و غَوَايَةً في تصرفاته كما ازدادت خلافاته مع زوجته بسبب معاقرته و مبالغته في السهر و رحلات المرح و لم تُبْقِ خلافهما بينهما فقد اتخذت من اَولادها السبعة و سذاجتهم جنودا تحارب بهم زوجها و اَهله و بيادق و ورقة ضعط تضغط من خلالهم على زوجها و لم يتوقف الخلاف مع زوجته فقط فظهرت خلافات بينه و بين والده في البداية كان يكتفي بسماع عذل والده و لومه له وهو مطأطئ الرأس و كان اَحيانا يتعرض للضرب من طرف والده عبد القادر إذا عاد للبيت و هو في حالة يرثى لها من السكر و يكتفي بصد ضرباته بساعده و تغطية وجهه لكن لما تكرر تصرف والده معه صار يُحَمِّلُ والده مسؤولية ما هو فيه.

-أنت سبب ما أنا فيه فلا تلمني و لا تعذلني.

-ماذا تقول ؟. هل ذهبت الخمرة بعقلك ؟.

-نعم أنت السبب منذ اَيامها الأولى و أنا أقول لك لا أُريدها، إني اَكرهها ... اَكرهها.

-قتل الله تهور الشباب من يسمعك كلامك هذا و لا يفقه شيئا عن حياتك العائلية يظنها تكلفك ما لا طاقة لك به ، ألستُ أنا من يرعى شؤون بيتك و يعيله ؟. فَلِمَ هذا التململ منها و التضجر عُدَّهَا حجرا باليَمِ.

-سأَتركها و شأنها كما سأَترك لكم البيت و أُغادر بغير رجعة.

-اذهب إلى إين تشاء لكن خديجة و اَولادها سيبقون بيننا ، هل فهمتَ ذلك ؟ .

كما انفجرت مشاجراته مع الناس و تفاقمت و كثر خصامه و فتح على نفسه باب عداوة كبيرة معهم و اشتهر بينهم بقتاله و عراكه لهم حتى اَصبح يلقب بالمافيا ، و لم يتوقف نفور الناس و تحذيرهم بعضهم بعضا من مخالطته بل شمل الأمر أُسرته و والده و اَشقاءه

-هل جُنِنْتَ؟. ألم تجد مع من تلعب ؟. ألا تعرف من هم ؟.

-لقد رأيتك بالمقهى تسمر مع فلان و أنت مرتاح البال لمخالطته كأن أُمك دعت عليك بالثبور و قد اِستجاب الله لدعائها.

-صباح الخير يا عمرو كيف اَصبحت؟

-الحمد لله.

-كأنك تعمل من طلوع الشمس لمغربها.

-صدقتَ. الحياة اَصبحت صعبة و العائلة كبر عددها و كبرت طلباتها معها كذلك و كثرت فتحتاج لمزيد من البذل و المجهود مني.

-أكيد أكيد. لكن هذا لا يمنعنا من مراقبة اَولادنا ، فالحياة لا ترحم و هناك من يتربص بنا الدوائر.

-صحيح. هل تلمح لشيء ما قد غاب اَمره عن ذهني ؟.

-الحقيقة نعم. و قد أُمِرْنَا بتقديم النصيحة لبعضنا و قد لاحظت ابنك وحيد يكثر اللعب و مخالطة بن علي المافيا.

-شكرا على النصيحة سَاَتَوَلَى الأمر. دمتَ بخير.

و ألفوا القصص العجيبة و الغريبة لاَخلاقهم

-أنظر من المار.!

-أليس هذا شقيق علي الصغير ؟.

-بلى. هو بعينه.

- علي يا له من رجل لو كان بإيطاليا لكان عراب المافيا إني سمعت إنه يوم الأحد يتوجه للسوق و يبتز السارقين انفسهم و لقد ذكروا لي كيف ابتز مصعب المطرقة و افرغ ما في جيبه من مسروقات و ذلك واقف كالميت بين يدي غساله رغم ضخامته و جسارته على الناس. و إذا أُصيب أحد الناس بمصيبة سرقة أو ضياع شيء و لم يعرف غريمه لم تَستح اَصابع الإِتهام أن تتوجه إليهم بضمير مرتاح لاَصحابها

-هل تفقد شيئا أو سُرِقَ منك ؟

-نعم.

-و من غيرهم يفعل ذلك ، أراحنا الله منهم.

-كأنك تنظر إلى قلبي وتفقه ما يحدثني به فإن هذا ما يمليه علي.

و قد تَوَاصَوْ بِهِ.

-مساء الخير يا سعيد.

-مساء الخير.

-ما لي اَراك مقبلا و أنت شارد الذهن مهموما ؟

فاَشعل السعيد من عقب سيجارته المنتهية سيجارة جديدة - التي تكاد تكون زائدة شفوية و قطعة من فمه لإِدمانه الشديد للتدخين فلا يشاهد إلا و السيجارة في فمه كما اِرتسم خطان اَصفران تحت اَنفه و على شاربه الاَسود - ثم قال:

–صدق ظنك فإني مقبل من المدرسة التي يتخرج ابني عبد الكريم فيها حيث اسْتُدْعِيتُ من طرف معلمه فاَعلمني أنه وجد علبة سجائر في محفظته.

–أُفْ !. ماذا تقول ؟. أليس عبد الكريم صغيرا و من أين جاء بهذه العادة ؟.

سحب النذير نفسا عميقاً من سيجارته ثم نفخه في الهواء و قال بحسرة و قلق:

–بلى و قد زجرته و نهيته من اللعب مع عبد الحليم بن عبد القادر و هو الذي علمه هذه العادة و مَنْ غيره ؟.

حتى لعصبية عبد القادر و حِدَّةِ طبعه حظ في تحامل الناس على عائلته فالبشر تألف من يجاريها و تسكن للذي يداريها و تَوَدُ من يتجاوز عن اَخطائها و يغفل عن عيوبها ، و هذه الخصال تحتاح إلى من يتمتع بصبر حديدي لا يُخترق و هو ما يندر في اَخلاق عبد القادر ، فمرة من المرات اَجَّرَ جاره مستودعه لنجار ليكون مشغله لكن هذا الاَخير لا يرش خشبه إلا خارج مستودعه مما يسبب أذى للعباد و النبات لأن المواد المستعملة للطلي ضارة بالهواء ، فاشتكى بعض الجيران في صمت و فيما بينهم ، و استمر النجار في رشه خشبه خارج مشغله فشاجره عبد القادر كذا مرة على هذا التصرف لكن دون جدوى ، كما اشتكى لصاحب المستودع ما صمت عنه الآخرون و كانوا يقولونه في ما بينهم لكن هذا اتخذ موقفا رماديا و في مرة بينما عبد القادر و ابنه علي و هما جالسان أمام باب البيت بدأ النجار في رشه لخشبه.

–ذبحتني هذه الرائحة الكريهة و بسببها لا نمكن فتح شبابيك البيت لأن الرائحة تُعَبِئُ الغرف بِوَخَمِهَا، انظر إلى اَوراق الشجر كيف اِصفرت و اَصابها السقم ، و إني كلمته اكثر من مرة لكن دون جدوى كما اشتكيت لمؤجره فلزم الصمت و ما يهمه هو ؟. فإنه يقبض مالا

مقابل هذا الضرر أما نحن فما يصيبنا منه إلا العلة ، كما توجهت للشرطة فحين يأتون يمتثل للأمر و حين يذهبون يرجع لسالف أمره.

حين سمع علي كلام والده عبد القادر ثارت ثائرتة و غلى الدم في عروقه فقصد النجار فضرب برجله الباب الذي كان يرشه فطرحه أرضا و رفع يده على النجار مهددا:

-رُشَ خشبك بمشغلك و إن رأيتك مرة أُخرى ترشه خارجه سَقَّيْتُكَهُ.

-لا استطيع ذلك فهو يضرني صحيا إن رششته داخل المشغل.

-قد سمعتَ كلامي و قد اعذر من اَنذر.

و من يومها التزم النجار مشغله و عندما استوفى عقده ترك المستودع.

و في مرة أُخرى أجر جار آخر مستودعه لشاب جعله موقفا لسيارته و من عادة هذا الشاب السهر و عند عودته ليلا يرفع صوت مذياع سيارته بالموسيقى الصاخبة مما يزعج الجيران لكن أحدا —كما تجري العادة – لم يشتك و لزموا الصمت كلهم فشاجره عبد القادر على هذا التصرف و زجره فما كان من هذا الشاب في اِحدى الليالي إلا أن اقتنى دراجة ميكانيكية ثم انتزع منها العادم مع كاتم صوتها فاصبحت تصدر صوتا قويا فلما سمع علي بالقصة و تصرف الشاب انتظره حين عودته ليلا و هو بدراجته المزعجة للصوت و عند توقفه أمام مستودعه اَمسكه من تلابيبه و حذره من تصرفه هذا فجزع الشاب و رهب و غادر ذلك المستودع من غير رجعة ، فمثل هذه الحوادث و غيرها من الحوادث و الخلافات التي جرت لعبد القادر مع جيرانه و الناس و لما كانت تتعارض مع مصالحهم الذاتية زرعت الضغائن في صدورهم له و لذريته و حملتهم على ترقب سقطاته و أهل بيته.

الفصل الخامس

و قد كان عبد القادر يعول عائلته و عائلة ابنه علي لأن الحياة كانت فيها نوعا من البحبوحة تسمح بذلك و لما رأى عائلته و عائلة ابنه علي بدأت تكبر و بيته الصغير المكون من غرفتين مع فناء صغير لا تستوعب هذا العدد من الساكنين رغب في بيت اَوسع فتقدم بطلب الحصول على قطعة اَرض قصد التَمَلُّكِ لبناء سكن فكان من الفائزين بقرعة الحاصلين على قطعة أرض ضمن التوسع الجديد للمدينة و بمجهوده و تمويله الخاص استطاع بناء البيت ، ربما الحياة تسير مجانبة لنا فترة من الزمن لكنها سوف تضطرنا يوما لمواجهتها و كلما تقدم بنا العمر كشفت لنا عن نابها و عجمتنا اكثر بأضراسها ، بعد الإنتقال للبيت الجديد بدأت تظهر خلافات بين العجوز و كنتها ، صحيح هي خلافات طبيعية و بشرية لكن إن لم تُهَذَبْ و تُتَعَهَدْ بالتثقيف كما يتعهد البستاني شجره فإن اَغصانها تطول و تتغول و تتعقد و عوضاً من أن تكون تلك الأَغصان مفيدة تصير مضرة مما تنبئ بسقوط الجذع في اول هزة قوية من ريح عاتية ، و هذا ما حدث فبعد نشوب الخلاف بين الكنة و الأم تفاقم و وصل إلى حد إنه في بعض الأحيان يتطور الشجار إلى تشابك بالأيد و اَصبحت الحياة بينهما منتهية و ميتة و ضربت البلاد حينها عاصفة اقتصادية عاتية اَضرت بأَعمال الناس و معيشتهم و تحولت الحياة إلى المشقة و سنين عجاف بعد سهولة و اعوام الرخاء فطلب عبد القادر من ابنه علي أن يتحمل مسؤولية بيته

–عليك أن تتحمل مسؤوليتك و تعول عائلتك وحدك من الآن و لا تنس فإن عائلتي قد كبرت و كثرت حاجياتها و اصبح البيت يحتاج إلى معاونين في مصروفه و اِدارته.

فوقع خلاف بينهما انتهى بأن طلب الأب من ابنه علي مغادرة البيت مع زوجته و اَولاده هذه المرة ، و في حالة غضب شديد يعمي البصيرة اِمتثل علي لرأي والده فانتقل للعيش في غرفة عند مدخل البيت و لم يتركه كُلِّيَّةً ، هدأ البيت فترة قصيرة من الخلفات المعهودة لكنها ظهرت مرة أخرى و أقوى من الأول على كل شيء فإذا طلبت الأم من كنتها مساعدتها في تنظيف البيت قالت هذه:

-و ما دخلي أنا !. ألم أُطرد منه و أولادي ؟.

و اضافة لتقدم العمر صارت الأم تتعب بالقيام بالوجبات المنزلية لوحدها من تحظير الطعام و غسل و كنس كما صارت تحس بالوحشة في البيت الواسع و هي وحدها في النهار لما يغادرها كل اَولادها فتعيش في ذكرياتها الحزينة و بالخصوص ذكريات ابنتها حمامة و التي تطيل بكاءها و احزانها ، و كانت تلك الذكريات الشعرة التي قسمت الظهر فادخلتها في حالة من الاِحباط الحاد فاشتكت لزوجها عبد القادر تعبها و وحدتها خلال نهارها و رجته و رغبته بتزويج عبد الحليم و إنه كان لها ذلك فتم تزويج عبد الحليم و بعد دخول كنة جديدة ظهرت خلافات جديدة و اشتعلت نار الغيرة بين الكنة القديمة و الجديدة ، و كان رأس الخلاف كما تقول الكنة الكبرى خديجة:

-كيف يعيش زوجان و سبعة ابناء في غرفة لا ترقى لسكنى البشر و هي المطبخ و غرفة المعيشة و غرفة نومهم بينما تتمتع الكنة الجديدة بالبيت و وسعه ؟.

و انتقل هذا الإحساس لعلي و نمى في نفسه شعور التَظَلُّمِ و بدأت عقدة النقص تصيبه و هو ما انتقل لزوجته بعدوى العيش المشترك نفسه و تقاسم المصير ذاته و بدأ علي يميل لزوجته و اَولاده على حساب والديه و اشقائه.

لكن الأيام كانت تخبئ لآدم مفاجآتها و اهدتها له بعد انفصاله عن أبيه فوجد صعوبة في ادارة شؤون بيته و تلبية حاجياتهم لأن أُجرته الشهريه كعامل تكاد لا تغطي أكلهم و شربهم و ما زاد الأوضاع تأزما هو الحركة المفرطة لدى أولاده مما تسبب له في خلافات لا حصر لها فلا تغرب شمس يوم من الأيام إلا قصده العديد من الناس ، جيران و غرباء يشكون إليه أحد أولاده و ربما كانت الشكوى حقا أو ظلما ، حقيقة أو ظنا ، فلكثرتهم لم يدر علي صدقها من زيفها ، تلك التصرفات الطائشة و المتهورة من أولاده و إتهامات الناس الباطلة و الإشاعات التي كان لها مبرر في سلوك ابنائه حملت الناس على نبذهم و اجتنابهم و عزلهم عن ابنائهم و ساعتها لم يخالطوا و يجالسوا إلا المنبوذين مثلهم.

الفصل السادس

وردة هي أكبر أَولاد علي و هي فتاة جميلة لكنها متهورة و لا تُقَدِّرُ مغبات الأُمور و إنها تنتهي بنصيب سخي و حظ مشرف أو كفل غليظ لا يُغتفر و يُنسى و إنها ورثت قوة الشخصية عن والدها و أُمها معا فكانت أكبر المتعاطفين مع أُمها فمهما حدثت من خلافات كانت دائما في صفها و على صغر سنها كانت ماكرة و تحسن تدبير المكائد كما لا تحسن التصرف مع الآخرين غير إنها معلمة في التنمر فلا تجدها إلا تأتسد على اِحداهن أو تحادث أُمها عن عيوب الآخرين و هي تقهقه بملء فيها و لا تذكر الناس باسمائهم بل بالقاب و نعوت قبيحة و ذميمة ابتكرها عقلها الماكر.

أما فارس فهو ثاني اكبر اخوته يعاني من فرط نشاط الحركة و في اعوامه الأُولى كان يتميز عن أَقرانه بلكنة حببت الكبار فيه فكانوا يكثرون من مجالستهم له و التَبَسُّطِ في الحديث معه فكسر حاجز الخوف من الكبار و الغرباء، كما كان متهورا في تصرفاته و اتخاذ قرارات خطيرة ففي يوم من الأَيام و هو في المرحلة الاِبتدائية احتجز بعض التلاميذ في دورة المياه و لم يحررهم منه غير مدير المدرسة عندما بُلِّغَ بالأَمر ، كما كان بارعا في التمثيل حتى درجة التصديق ففي يوم من الآيام قصد موقف الحافلات و بعد توقف حافلة صعد إليها قبل نزول كل الركاب ثم توجه إلى قاطع التذاكر و طلب منه اِرجاع فكة المئتي دينار التي اعطاه اياها حين كان يقطع التذاكر فزجره القاطع فتوجه فارس لشرطي بالموقف و اشتكى عن تصرف قاطع التذاكر فما كان من الشرطي إلا أن صدقه و قال في نفسه:

-مستحيل أن يتجنى طفل على بالغ و ينصب عليه.

ثم توجه للقاطع:

-إن هذا الولد يدعي إنه سلمك مئتي دينار و لم ترجع له فكتها.

-إنه يكذب و لا صحة لدعواه.

-اعطه ماله و إلا أنا في هذه الحالة مضطر لكتابة محظر بالأمر.

-حسن حسن لا تتعب نفسك سأُعطيه فكة المئتين.

ثم سلم فارس الفكة ، و إنه اَرهق اَباه و اَعمامه مما اِضطر والده علي أن يدخله بنفسه مصلحة اِعادة التأهيل ، و في تلك المصلحة ارهقهم ضبطه و اكثروا من استدعاء علي حتى اضطر لاِعادة النظر في الموضوع ، أما ثالث الاِخوة فهو الزبير و هو اَعقل اَشقائه و طوال حياته لم تصدر منه حماقات و لم يتظلم منه أحد من الناس و قد اشتغل في النجارة في أول شبابه ثم عامل في مؤسسة الحديد التي عمل فيها والده علي أما نصير الذي يصغره فقد كان كثير الشبه بشقيقه الزبير لكن حاله قد تغيرت في أول شبابه و انضم لفريق المتهمين من اشقائه و سار على سيرهم أما خامس الأَشقاء فلإنه كان صورة و هيئة عن شقيقه فارس و كان مفرط النشاط و الحركة مثله فأرهق من حوله كذلك أما شقيقتهم الصغرى فكانت اَعقل اَشقائها و اَهدأهم و لم يصدر منها إلا كل خير بشهادة الجميع و هو اِنطباعهم على الشقيق السابع و اصغر الاِخوة.

قضت عائلة علي سنوات طوال في تلك الغرفة البائسة و عان الجميع في عائلة عبد القادر و رأسهم الأُم آمنة من خلافات و اَعصاب متوترة و اَخيرا فاز علي بسكن اِجتماعي بعد أن لبثوا فيها سنين عددا فتنفس الجميع الصعداء.

الفصل السابع

بينما آدم في يوم من الأيام يستقل حافلة للعودة إلى بيته صعد نبيل يحمل كتابا – و هو شاب متوسط الطول حنطي اللون تعلوه سمرة مغبرة قد اَعفى لحيته اتباعا لسنة رسول الله – صلى الله عليه و سلم – ، و هو يحب القراءة و الكتب لدرجة الهَوَسِ و الإدمان و يندر أن ترى عينيه تنظر في شيء غير صفحة كتاب ، فتعرف على آدم فورا و إنهما كانا جارين في الحي القديم الذي رحلت منه عائلة عبد القادر فتقدم منه و جلس لجانبه:

–السلام عليكم.

–و عليكم السلام ورحمة الله و بركاته.

–كيف حالك يا آدم.

–الحمد لله. و أنت كيف حالك.

–الحمد لله.

–و الاَبُ عبد القادر و الأم و بقية الاَهل

–كلهم بألف خير و لله الحمد و المنة.

–فأي سنة دراسية أنت الآن يا آدم؟.

–للأسف تم فصلي من دراستي.

–و كيف تشغل وقتك ؟.

–لا شيء غير تقديم ملفات العمل هنا و هناك عسى أن احصل على وظيفة أو عمل.

–ماذا تقول يا رجل ؟. تريد وظيفة يعني أنك ترغب في الدنيا و زينتها و نحن ضيوف فيها.

–ما التدبير إن لم نعمل.!

-انظر لي فقد حصلت على وظيفة حارس في شركة الكهرباء و الغاز التي يحلم الكثير بالعمل فيها ثم تركت الوظيفة، دعك من الدنيا و توجه لطلب العلم.

تفاجأ آدم و استغرب مستهجنا كلمة (طلب العلم) فلأول مرة في حياته يسمع هذه الكلمة و لا يذكر اَحدا في محيطه قد أتى على ذِكْرِهَا أو تطرق إلى معناها و هو لا يفقه ابعادها لكنه أَسَرَّ استغرابه و استهجانه للكلمة فقال :

-كيف اطلب العلم و إنهم فصلوني في الثانوية و ابعدوني عنه ؟.

-سأَطلعك على أمر بعد أن تركت وظيفتي توجهت لمصر قاصدا القاهرة للتسجيل في الأزهر الشريف لكنني - للأسف - لم احمل معي بعض الأَوراق المهمة للتسجيل هناك .

-حقا ما تقول قد كنت بمصر ؟.

-نعم و إنني زرت الشيخ اَبو اسحاق الحويني - حفظه الله - و تعرفت هناك على اِخوة طيبين و إني مكثت عند اَحدهم فترتي القصيرة التي قضيتها هناك.

-و هل يقبلون هناك في الأزهر غير المصريين ؟.

-نعم.

-و كيف العمل حتى تسجل بالأزهر؟.

-ما عليك إلا تصدر شهادة مدرسية ثم تجري امتحان قبول فإن نجحت يتم تسجيلك طالبا عندهم.

-جميل ما تقوله.

-لكن الوقت قد تأخر للعودة لهناك كما أن ميعاد التسجيل عندهم قد آن اَوانه و لن أُدركه لكني سمعتُ كما حدثني أحد الإِخوة التجار الذين يقصدون سوريا أن بها معاهد تقبل غير السورين من العرب و الأجانب ، و إني عازم على السفر هناك.

-جميل ما تقول يا نبيل.

-فإن اَحببتَ سافرنا كلينا و سجلنا هناك.

-و من لا يحب الخير ؟. أنا موافق.

فلما وصلت الحافلة موقف إلى الوجهة التي كان نبيل يقصدها فارق آدم على ميعاد ضربه له يلتقيان فيه و يتكلمان عن تفاصيل الرحلة ، تغلغت كلمات نبيل في صدر آدم فاثلجته و كانت كاليد الرحيمة التي تمتد لغريق في اللحظة الحرجة التي يكاد يغادر فيها الدنيا و يستقبل فيها الآخرة ، و مدت روحه بأمله الذي كان يسعى خلفه و وضعت رجله على طريق النور الذي كان يبحث عنه ، بعد اَيام التقى آدم و نبيل للإِتفاق على خطة السفر ، فقال نبيل:

-أول شيء علينا القيام به هو تحصيل المال الكافي للرحلة حيث يجب علينا حجز تَذْكَرَيْ سفر ثم توفير الباقي للإِستعانة به في سوريا من اَجل المأكل و المشرب و المبيت ريثما نسجل بأحد معاهدها ، فإني أُخْبِرْتُ إن المعاهد هناك تتكفل بالطلاب العرب و الأجانب حين يتم قبولهم فيها .

-و كم يلزمنا من المال الكافي للرحلة على اَقل تقدير ؟.

-يجب علينا تحصيل مئة و خمسين ألف دينار على أقل تقدير فالتذكرة الواحدة تكلف اربعين الف دينار و نحن نحتاج لتذكرتين و الباقي ندبر به أُمورنا ريثما يتم قبولنا.

-يعنى أن كل واحد منا يلزمه توفير خمسة و سبعين ألف دينار ، ذلك مبلغ كبير لا يمكنني الحصول عليه.

-لنحصل على ما وَسِعَنَا تحصيله و الباقي يعيننا اللهُ في امتلاكه.

-و نِعْمَ باللهِ. و إذا اَعاننا الله في ذلك و وفرنا المبلغ المطلوب فمتى يكون السفر إذن ؟.

-إذا وفقنا الله في تحصيل المبلغ فلا يتجاوز آخر أجل للسفر الثلاثة اَشهر من الآن.

-طيب ليعيننا الله في ذلك.

بعد أن افترقا و في طريق عودته للبيت حدث آدم نفسه:

-خمسة و سبعون ألف دينار مبلغ كبير لا يمكنني تحصيله حتى و لو توفر لي منصب عمل ، فاَعلى أُجرة يمكنني تحصيلها هي عشرة آلاف دينار يعني يمكنني الحصول على ثلاثين ألف دينار خلال ثلاثة أشهر فمن أين امتلك بقية المبلغ ؟. هذا إذا رضي أحد من الناس أن يُوَضِفَنِي مقابل أُجرة العشرة ألآف بينما الأُجور تتراوح بين السبعة آلآف و الثمانية آلآف دينار ليعينني الله على ذلك.

بحث آدم عن عمل خلال تلك الأيام و من الذين قصدهم لعله يعينه في الحصول على منصب عمل الأستاذ صالح و هو شاب اسمر قصير و نحيف لكنه شُعْلَةٌ من الذكاء و يتميز بتلك النظرة الجادة و الحازمة و عصامي من عائلة عصامية كلها كونت نفسها بنفسها و هي من ثلاثة أشقاء ، شابان و فتاة و أم أرملة ، و إنهم اِنتقلوا للسكن في المدينة منذ بضع سنوات و الاِقامة فيها بصفة دائمة بعد أن كانت مؤقتة و السبب في ذلك أن العائلة استأجرت بيتا قريبا من الإعدادية التي عُيّنَ فيها الأستاذ صالح مدرسا للغة العربية بعد تخرجه

في الجامعة مباشرة ، و بعد مرور سنتين قرر صاحب البيت بيع بيته المؤجر لاستغنائه عنه و بينما صالح بالبيت دق الباب ففتحه

-عمي الحسين هذا انت . كيف حالك تفضل ... تفضل.

-لا. شكرا يا صالح . لكني أود الحديث معك في أمر طارئ.

-تفضل داخل البيت و نتحدث في كل ما ترغب.

-شكرا سنتحدث هنا قرب الباب.

-تفضل أنا كلي آذان صاغية.

-إني قررتُ بيع البيت.

-حقا!. كم هذا مؤسف ؟.

-نعم. قد قررتُ ذلك و أول شخص اَعرضه عليه هو أنت يا صالح.

-أنت تمزح يا عمي الحسين ، بلا شك. من أين لي ثمن البيت ؟ و أنت تعرف الحال و رقتها.

-لا تستعجل الحديث إنك تدفع إيجاره و سوف آخذ ثمه أجرة كالعادة فلله الحمد و المنة لستُ بحاجة لثمنه كله الآن ، فالحال ميسور و لله الحمد و كلنا نعلم أنك بدأت عملك منذ أجل قريب و تلزمك سنوات أُخَرُ حتى تستوفي عملك و تتقاعد ، فلو بقيت طول فترة عملك مستأجرا سوف تدفع ثمن بيت و زيادة. على كل حال إني اَخبرتك عن قراري فانظر في اَمرك و شاور عائلتك و أنا في انتظار الجواب.

-فاجأتني يا عمي الحسين و حقيقة كلامك مقنع و عرضك سَخِيٌ و مغري. اعطني فترة اَتشاور فيها مع العائلة و سأُخبرك بعد ذلك.

-حسنا لِيَكُنْ لك ذلك.

بعد مشاورة صالح لأمه و شقيقته قرروا شراء البيت فتم ذلك على أن يقبض البائع ثمنه المقدر بخمسمئة ألف دينار أجرةً على ما اتُفِقَ عليه سابقا حتى يستوفي حقه كاملا و قد كان لهم ذلك ، و اِضافة لِاسْتِئْجَارِ البيت — قبل شرائه – فقد استأجرت العائلة مستودعا صغيرا في حي آدم ثم حولته لدكان يكون مصدرا آخر لهم يَرْتَزِقُونَ اللهَ منه و يكون لهم رافدا آخر غير عمل الأستاذ صالح ، فكان يتناوب فيه الشقيقان على ادارته كل منهما وقت فراغه لكن هناك طارئ جديد قد طرأ و هو الخدمة العسكرية الاِجبارية التي لزمت الشقيق الأصغر عبد الباسط حين بلوغه السنة الثامنة عشرة من عمره.

و حين كان آدم عائدا من الجامع بعد آداء صلاة المغرب نظر تجاه دكان صالح فرآه يسحب سلة الخبز ليضعها عند الباب فقال في نفسه.

-لماذا لا اعلم اصحاب الدكاكين الذين اعرفهم و يعرفوني عن بحثي عن العمل لعلهم يوجهونني أو يكون أحد معارفهم أو زبائنهم قد ذكر أمامهم عن حاجته لعامل و سأبدأ بالأستاذ صالح مادام أن الفكرة قد طرأت على فكري الآن و ها هو ذا وحيدا في دكانه و الفرصة مناسبة للحديث معه في الأمر.

ثم ولج الدكان و كان الأستاذ صالح في هذا الوقت بالذات مشغول البال بطارئ الخدمة العسكرية لشقيقه و ما يترتب عليها من غلق المحل لساعات طوال كل يوم خلال النهار تتقاذفه اَمواج الهموم و هو يحدث نفسه.

-يعني هذا أن الدكان تظل مغلقة كل الفترة التي أكون فيها في الإعدادية لمدة سنتين كاملتين و هي الفترة النهارية و مرحلة الذروة لنا للبيع و لا استبعد خسارة زبائننا بهذا الإغلاق ، و

لا يمكنني تَفَادِيَ هذه الخسارة و اجتنابها إلا بترك الدكان فترة عامين لحين انتهاء عبد الباسط من خدمته العسكرية لكن هذا القرار سيجلب لنا بعض العسر في مصاريفنا و يوقع الخلل في التزاماتنا مع الناس. لا هذا قرار يجب استبعاده و هناك قرار ثاني هو الإستعانة بعامل يقوم مقام عبد الباسط لكن هذا القرار سيحملنا مصروفا جديدا و ثقيلا و يضيع علينا مالا نحن بحاجة إليه و حتى لو قررتُ ذلك فأين لي بعامل أمين يحفظ ما وُكِلَ به و نشيط يدبر الأمور و لَبِقٍ يحافظ على زبائن الدكان و يزيدهم و في الوقت نفسه يصبر على معاملة الناس ؟.

ثم قال بلسانه:

-حقيقة الأمر معضل.

في هذه اللحظة دخل آدم

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام.

-كيف حالك يا استاذ.

-الحمد لله.

-أود الحديث معك إن كنت تسمح بذلك و لم يكن حرج في اختاري التوقيت.

-تفضل لا حرج في ذلك.

-شكرا لك. دون مقدمات إني أبحث عن عمل و لا يهم نوعه و مكانه فإني بأمس الحاجة إليه فإذا ذكر أحد من الناس أنه بحاجة لعامل فأرجو أن تخبرني و لك الأجر من الله و الشكر مني.

فانبسطت اَسارير و عضلات وجه الأستاذ صالح بعد تجهمه و انقباضها من هَمِّ الموضوع الذي كان يشغل باله و نزل الخبر ثلجاً على نار صدره و وجد ما كان رجاه منذ لحظات في قراره الثاني لكن مع توجس خيفة أن لا يكون آدم على قدر المسؤولية.

–قد وقعت على طلبك أنا بحاجة لعامل يقوم مقام عبد الباسط.

–حقا!. و عبد الباسط ما حل به ؟. أَ هو مريض مثلا ؟.

–لا. لله الحمد فهو في صحة و عافية.

–ما الأمر إذن؟.

–كل ما في الأمر أن الخدمة العسكرية قد آن اَوانها.

–صحيح الخدمة العسكرية لا مفر منها و كل شاب لا بُدَّ له من ذلك.

–صدقتَ. و عند ذهابه لا بُدَّ لي من معين في هذه الدكان.

–صحيح لا بُدَّ لك من معين و ستجدني خير معين إن شاء الله لكن لي بعض الشروط لا أقول لك شروطا بل هي طلبات و لولا الحاجة ما طلبتها.

–تفضل.

–أولا و حتى نكون أنا و أنت على وضوح تام فإن سبب اضطراري للعمل هو توفير بعض المال لِسَفَرٍ فإن وُفِقْتُ له — بإذن الله – سوف يكون بعد ثلاثة اَشهر و عليه فإن عملي لديك لا يتجاوز الثلاثة أشهر.

–هذا توقيت قصير لما أرجوه فإني محتاج لعامل يعمل في الدكان لمدة عامين و ذكرت لك سبب حاجتي له.

ثم فكر قليلا وقال:

–عسى أن يكون في الأمر خير لكلينا. ربما هو وقت كافي لأبحث عن عامل جدير لهذا العمل.

–قد اتفقنا على مدة العمل بقي أن نتفق على الأجرة يا استاذ. فكم تدفع للاَجير ؟.

–كما يُدْفَعُ للأُجراء في مقابل قيامهم بمثل هذه الاَعمال ، و هي أُجرة سبعة آلاف في الشهر.

–رغم أنك عدلتَ في ما قلتَ و لم تخالف العُرْفَ الذي تعارف عليه الناس لكن الأُجرة – التي ذكرتها – في مقابل ما أنوي القيام به و سفري الذي عقدتُ العزم على القيام به تبدو لي قليلة.

–و كم تريد ؟.

–عشرة آلاف دينار للشهر.

–ذلك كثير جدا يا آدم.

–صحيح ما تقول يا أُستاذ الرقم كبير لكن لا حيلة لي غيرها و إلا ذهب مع الريح ما قررتُ القيام به و سأتكل على كرمك و اَمانتك و سأفشي لك سر عزمي السفر و كما قال رسول الله – صلى الله عليه و سلم –: " اِسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ الْحَوَائِجَ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٍ ."

–شوقتني لذلك.

–بما أنك أُستاذ فإنك تقدر العلم و اَهله و إن سفري هو لطلب العلم لا لغنى اَرجوه أو دنيا اَطلبها فقد قال رسول الله – صلى الله عليه و سلم – : " الأَعْمَالُ بالنِّيَّةِ، ولِكُلِّ امْرِئٍ

ما نَوَى، فمَن كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ ورَسولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ ورَسولِهِ، ومَن كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إلَيْهِ."

قال آدم هذه الكلمات و هو يحس بالإفتخار و لكن هذا الإفتخار قد حبسه كالعادة خجله أما كلمة (طلب العلم) فقد خرجت حروفها مفخمة من فمه و اَحسها كقطعة الذهب الأَصلي بين القطع المزيفة و المغشوشة بين كلماته.

-العلم! آه من العلم. و هل يوجد شيء في الدنيا اَرقى من العلم.

-صحيح لا يوجد و قد تقرر السفر منذ أيام قليلة بعد ثلاثة اَشهر حتى أتمكن من بلوغ الوجهة و التسجيل في اَحد المعاهد قبل فوات الأوان و إلا اضطررتُ للإنتظار سنة أُخرى ربما سيكلفني ذلك الانتظار أن جَذْوَةَ هذا الطلب قد تنطفئ و الظروف قد تضطرني لسلوك طريق أُخرى لا اَرغب فيها.

-و الوجهة إلى أين؟. هل هي مصر ؟.

-لا، هي سوريا و بالتحديد دمشق.

-سوريا ! دمشق ! كم أرغب في زيارة تلك البلاد و تلك العاصمة و الجلوس بين يدي علمائها.

-صحيح . سوريا بلد قد باركها الله و رَغَّبَ رسوله الكريم ﷺ في سكناها وهي منبع الحضارات فعن عبد الله بن حوالة – رضي الله عنه – قال : "كُنَّا عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فشكَوْنا إليه الفَقرَ والعُرْيَ وقِلَّةَ الشيءِ، فقال: أبشِروا، فواللهِ لأَنا وكثرةُ الشيءِ أخْوَفُ عليكم مِن قِلَّتِهِ، واللهِ لا يزالُ هذا الأمرُ فيكم حتى تُفتَحَ لكم أرضُ فارسَ والرومِ، وأرضُ حِمْيَرَ، وحتَّى تكونوا أجنادًا ثلاثةً: جُنْدٌ بالشَّامِ، وجُنْدٌ بالعِراقِ، وجُنْدٌ باليَمَنِ، وحتَّى يُعطى الرَّجُلُ

المِئَةَ الدينارِ فيَسخَطُها، قال ابنُ حَوَالةَ: فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، مَن يستطيعُ الشَّامَ وبها الرُّومُ ذَواتُ القُرونِ؟ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: واللهِ لَيَستخلِفَنَّكُمُ اللهُ فيها حتى تَظَلَّ العِصابةُ منهمُ البِيضُ قُمُصُهمُ، المِحَلَّقَةُ أقْفاؤُهم، قيامًا على الرَّجُلِ الأسودِ منكمُ المحلوقِ، وإنَّ بها اليومَ رِجالًا لأنتم أحقَرُ في أعيُنِهم منَ القِرْدانِ في أعجازِ الإبِلِ، قال ابنُ حَوَالةَ: فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، خِرْ لي، إنْ أدرَكَني ذلك، قال: أَختارُ لكَ الشَّامَ، فإنَّها صَفْوةُ اللهِ من بلادِهِ، واللهُ يَجتَبي صَفْوتَهُ مِن عبادِهِ بأهلِ الإسلامِ، فعليكم بالشَّامِ، فإنَّ صَفْوةَ اللهِ منَ الأرضِ الشَّامُ، فمَن أبَى فيَسقيَ بغُدُرِ اليَمَنِ، فإنَّ اللهَ قدْ تكفَّل لي بالشَّامِ وأهلِهِ."

وقال عالم الآثار الفرنسي شارل فيرلو – قارئ النصوص المسمارية الأُوغاريتية –: " لكل إنسان متحضر في هذا العالم وطنان ، وطنه الأم و سورية ."

–و من أين تأكل و تشرب و أين تقيم ؟.

–و هذا سبب تحديد أُجرتي بعشرة آلاف دينار. فإني بحاجة إلى مبلغ خمسة و سبعين ألف دينار ، سيذهب منها أربعون ألف دينار لتذكرة الطائرة و الباقي يبقى ذخرا لحاجياتي من أكل و شرب و مبيت حتى يتم التسجيل في أحد المعاهد فعلمتُ إنها تتكفل بالطلاب من العرب غير السوريين و الأجانب.

–مبلغ كبير من أين لك تحصيله؟.

–لِيُعِنِّي الله على ذلك فما خاب من يرجوه.

–و نِعْمَ بالله ، ليكن الله في عونك.

–شكرا لك.

–يا آدم كلامك عن طلب العلم و السفر و سوريا قد بعث في نفسي حماسا لا يوصف ، لولا التزاماتي و اِعالتي لعائلتي لسافرتُ معك ، و أنا أُشجعك على هذا القرار و اَدعمه و في ما يخص ما طلبته من أُجرة العشرة آلاف فإني وافقتُ على ذلك و لِيُعِينُنَا الله جميعاً.

–اشكرك على تفهمك و على موافقتك و ستجدني إن شاء الله خير معين ،كما لي خطة آخذ بها أُجرتي حتى لا يثقل عليك دفعها لي في آخر الشهر.

–هاتها.

–سوف اقتطع في كل يوم أُجرته و التي تقدر بثلاثمئة دينار و في بعض الأيام ثلاثمئة و خمسين دينارا و بهذا لا تحس بمبلغ العشرة آلاف دينار في آخر الشهر.

–حسنا ليكن ذلك.

–متى سأبدأ ؟.

–من الغد صباحا إن شاء الله. لا تنس أن تمر بعد صلاة العشاء حتى أُسلمك نسخة من مفاتيح الدكان كما إنني سأترك لك دفتر الأسعار على سطح المكتب ، ستجد فيه اسعار السلع فإن ارتبتَ في سعر مادة من المواد الغذائية أو شيء من الأشياء عُدْ للدفتر و تعرف على ثمنه.

غادر آدم دكان الأُستاذ صالح تملأه السعادة و يحدوه الأمل و تُطَبْطِبُ الاَحلام على كتفيه و تُرَبّتُ ، و حين عودته من صلاة العشاء إلى البيت غرق في اَحلامه قبل نومه و إذ بصوت شيء ارتطم بالحائط و قد اِنتشر صداه في اَرجاء البيت و اخترق الأبواب و الجدران و بدأ صراخ والده العصبي يعلو.

–اتركيني و شأني ، أهلك قد استراحوا منك و أنا ابْتُلِيتُ بك.

فقام آدم فزعا ثم فتح باب الغرفة و وقف في فراغ الباب ينظر تجاه غرفة والده حيث رأى والدته تبرز من خلال فراغ الباب صامتة و الحزن ياكلها أكلا فَأَسَرَّ إليها الحديث:

-ما به ؟. ما اغضبه ؟ .

-مثل العادة و لا يوجد سبب لغضبه غير أنه لم يجد منبهه في مكانه.

ثم انطفأت الأضواء و سكن الجميع فمن عادة عائلة عبد القادر أن تحذو حذوه في الاستيقاظ و النوم و لا يُسمع صوتهم في مدة وجوده في البيت إلا همسا ، قال أحد أقاربهم لطفله:

-رافقني نزور عائلة عبد القادر.

فردّ الطفل:

-ذلك البيت الذي يقطنه الصامتون.

في ساعات الأُولى من صباح الغد و بعد صلاة الصبح توجه آدم لدكان صالح و بعد مرور أيام في عمله تفاجأ صالح لنشاط آدم و لباقته مع زبائنه و حسن إدارته له في غيابه ، كما تيقن من أمانته و ذلك بمراقبة الحسابات فاستراح له و وثق به ، و بعد مرور أيام أُخر و قد إقتراب الشهر من نهايته وبينما آدم في الدكان دخل مراد صاحب الدكان الثاني في الحي:

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام . كيف حالك يا مراد؟.

-بخير و الحمد لله. و أنت كيف حالك ؟.

-الحمد لله.

-أراك تعمل عند صالح.

-صحيح إني بدأت العمل عنده و هذا الشهر قد اَوشك على بلوغ منتهاه.

-و كم أُجْرتك؟.

استغرب آدم لسؤال مراد و الذي بدا له سؤال مستخبر و ليس سؤال مستفهم ، و كعادته منعه خجله من طلب التوضيح لهذا السؤال الذي تشبه تلك الاَسئلة التي تستغفل المسؤول و يبحث اَصحابها عن شيء لا علاقة له بموضوع الكلام المطروق لحظتها غير تحصيل معلومات منه فقط و مع هذا رد عليه:

-عشرة آلاف.

-أجرة جيدة.

-اعلم ذلك.

-ما رأيك بالعمل عندي بأجرة اِثني عشر ألف دينار.

تفاجأ آدم من عرض مراد و رآه مبلغا مغريا و فيه اِضافة جيدة تعينه في سفره لكنه انتهز الفرصة و رفع السعر لخمسة عشر ألف دينار.

-لا. الموضوع الآن انقلب لطمع.

لكن آدم برر طلبه لهذه الأُجرة التي تكون لعاملين و ليست لعامل واحد في حديث دار بينه و بين مراد يشبه حديثه مع الأُستاذ صالح غير أن مراد استهجن كلمة (طلب العلم) و رآها غريبة كل الغرابة و لم يستوعبها عقله ، كيف لإنسان ترك المدرسة و بعد مدة يريد الرجوع إليها فعلق على ذلك مستغربا مستهجنا:

-لما شَابَ عَلَّقوا له تميمة العين.

ثم وافق على أُجرة الخمسة عشر ألف دينار لكن هناك اَمرا اَربك آدم و اَخجله ، و الخجل بالنسبة لآدم يعني مشكلة تفويت فرصه الذهبية و اهتم لأمر الأُستاذ صالح و كيف يبرر له هذا التصرف ؟. و ما هي الوسيلة التي تمكنه من أن يحله من اتفاقه معه ؟. و إن استطاع اقناعه فلا يترك بقلب الأُستاذ صالح ذرة من البغض أو الكره يحملها له على تصرفه هذا في قادم الأَيام . في المساء و حين جاء الأُستاذ صالح و حال دخوله الدكان لِيَنُوبَ في ادارته كانت السماء ماطرة مطرا خفيفا ثم اشتدت:

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام.

-هل الأُمور على احسن حال.

-على التمام و الكمال.

-يمكنك المغادرة.

-استاذ صالح هناك طارئ قد طرأ و لا بُدَّ من اِخبارك إياه الآن. لكنني لا اعلم كيف اَبدأُ الكلام فإن خجلي قد...

ثم أُرْتِج عليه.

-تفضل. تفضل

-وجدتُ منصب عمل آخر و آمل أن تحلني من اِتفاقي معك و تسامحني على اِخلافي وعدي لك.

تفاجأ الأستاذ صالح بالخبر و انزعج لسماعه و عاوده هَمُّ التفكير في وضعه الحَرِجِ و في هذا الدكان الذي اَصبح مشكلة عوضا عن الحل المرجوّ من اِستئجاره.

–ماذا تقول يا رجل ؟. هل انت جاد أم تمزح؟.

–إني اتكلم صادقا يا أُستاذ.

–هل ازعجتك أم ازعجك أحد غيري حملك على اِتخاذ هذا القرار؟.

–لا يوجد ازعاج في الأَمر...

فقاطعه الاستاذ صالح:

–ما السبب اِذن؟.

–انت تعلم يا أُستاذ حاجتي للمال من اَجل السفر و إن مراد عرض علي العمل عنده مقابل اِثني عشر ألف دينار لكني رفعتُ الأُجرة إلى خمسة عشر ألف دينار ، و هذا المبلغ يعينني كثيرا في توفير بعض المال الزائد على ما كنت سوف احصل عليه عندك، طبعا فإني اخبرتُ مراد أن ذلك لا يتم إلا بِإِذْنِكَ لي و مسامحتي على قراري هذا و اِحلالي من وعدي لك و تُبْرِئَ ذِمَتِي، و أنا اَعلم إنه لو ظروفك تسمح ما كنت لتبخل علي بالمال، وأنت تعلم ما أنا مقبل عليه، كما اَعلم تقديرك للعلم و طلبه. و أنا اَتكلُ الآن على نبلك و كرمك لا على عدلك و انصافك.

فَسُرَ الأُستاذ صالح بهذا الإطراء كما اقتنع بكلامِ آدم الصادقِ لكنه اهتم لما سيترتب على موافقته و مع هذا فلإنه حَلَّلَهُ و اَبْرَأَ ذمته من اتفاقه معه ، لكنه اشترط عليه أن يبقى معه اَياما أخرى حتى يأتي بمن يخلفه فوافق آدم ، و بعد اَيام قليلة جاء الأُستاذ صالح بقريب له يخلف آدم في عمله ، و لما كان دكان مراد في الشارع نفسه رجاه أن يقدم يد العون للمستخلف إن قصده و هو غائب فطمأنه آدم ثم انتقل للعمل في دكان مراد ، و بعد العمل لعدة أيام عنده اكتشف إن مراد كان بحاجة لعامل يخلفه في دكانه وقت فراغه ليتفرغ

لموسم حصاد أرض العائلة و لما وثق من اَمانة آدم ترك الحبل على الغارب فَاَصبح لا يقرب دكانه إلا قليلا و كان من عادته قبل أن يوظف آدم عنده أن يبيت في دكانه — هو أو شقيقه الذي كان شريكه في الدكان – مخافة السرقة صار هذا الأمر منوطا كذلك بآدم مما وجد نفسه محبوسا في دكان مراد لا يغادرها إلا اَوقات الصلوات الخمس ، و في ليلة ربيعية دافئة كانا في الدكان و بعد حديث جانبي دار بينهما قال مراد:

–إني متفاجئ يا آدم لظن الناس بكم ظن السوء فمن خلال معاملتي لكم ، و بالخصوص بعد أن عرفت اَخلاقك عن كثب إني لمتعجب من كلام الناس و كيف يختلقون عنكم القصص العجيبة.!

فصمت آدم و لَمْ يَخِرْ جَوَابًا.

–صحيح عبد القادر عصبي و رهيب لكني اَجد لكثير من عصبيته على الناس مبررا أما علي فقد هذبت الأيام اخلاقه و هذا أنت فإني لم أر في هدوئك و صبرك على الناس مثلك. عجبتُ لأمرك يا دنيا.!

انقضى الشهر الثاني و لم يبق على السفر غير شهر واحد و بينما آدم في الدكان دخل أبو اَشرف و هو أحد سكان الحي:

–آدم إني كنت مارا فسمعت صراخا و بكاء في بيتكم فاذهب لعل في الأمر ما يحتاج لوجودك الآن.

اصفر وجه آدم و زادت دقات قلبه و انقبض صدره من الخبر و ضاق نفسه و ارتجفت يده فاغلق الدكان ثم توجه للبيت ، و خلال مشيه في الشارع شاهد العيون تراقبه و كأنها تعلم بما يحدث في بيت عائلة عبد القادر فتأسف على هذا الموقف و تحول خجله للحجر الذي

يربط بالمعدوم الذي يحكم عليه بالإِعدام غرقا ثم اغرقه الحزن في بحره ، و حين اقترابه سمع صراخ عبد القادر العصبي و عويل خديجة زوجة علي و بكاء اَولادها و حين دخوله وجد والده عبد القادر كالثور الهائج يُزْبدُ و يرعد و يخبط باب غرفة علي المغلق من الداخل بكلتا كفيه الضخمتين و القويتين و هو في حالة هيستيريا جنونية و حين ملامسة ضربات كفيه للباب تحدث الحيطان صدى قويا للضرب الساقط على الباب و هي داخل الغرفة مع اولادها السبعة.

–ستغادرين اليوم أنت و اَولادك من غير رجعة.

–أنت لا تملك لك علي طاعة أو اَمرا فإن لي زوجا هو يملك اَمري.

–سنرى رأي من في الاَخير الذي يكون القول الفصل. ما هذا الصراخ و الجري و الخبط للاَشياء التي تحدثينها و اَولادك كأن هناك قطارا يتحرك بالبيت و لا يتوقف ضجيجه.

فتقدم آدم من والده

–يا أبي استهدي بالرحمن و اهدأ....

فانفجر عبد القادر مرة أُخرى كالبركان

–اغرب عن وجهي انت كذلك، اتركوني و شأني،كرهت أنا كرهت الحياة و أنتم السبب ، كلكم تكرهونني و تتمنوا موتي حتى ترتاحوا مني.

ثم صعد الدرج و هو يهدر كالطوفان متوجها للطابق الاَعلى حيث يقيم و عائلته هناك فاَصاب العجوز المسكينة آمنة أكثر مما اَصاب كنتها حيث صَبَّ و سَلَّطَ عَلَيْهَا جَامَ غَضَبِهِ فللاَسف فإن الظروف جعلتها كالرمية الحبيسة التي تحبس لغرض الرمي.

–اغربي عن وجهي ، قد اَصابني العمى يوم اتخذتك زوجة لي و إنه حذرني فلان و فلانة قالت لي: " طلقها فليست بكفء لك ". فليتني سمعت كلامها لكني وقتها قلت في نفسي: " أولادي صغار و لمن أوكل بتربيتهم و رعايتهم ". ما أتعس حظي. ما أتعسه. أنت كرِجْلِ الكرسي في هذا البيت لا رأي لك ، البيت تتعال فيه الاَصوات و تتكسر فيه الاَبواب و الاَشياء كأننا نقيم في مشفى المجانين وأنت هادئة البال...

فما كان من آدم إلا أن وقف بين اَبيه الهائج و أُمه الخائفة و إنه اَصابه كذلك نصيب من ذلك الغضب.

–ماذا تفعل هنا أ لم تترك البيت ؟. اذهب . غادر. كم تعبتُ من اَجلكم و هذا هو جزائي تتركوني وحدي ، كأنني لم أُرزق الأَولاد ستعاقبكم الدنيا كما عاقبتموني أنتم بعقوقكم لي.

ثم دخل غرفته و جلس على سريره و سكن البيت كأنه مقبرة و بيت من الحياة الآخرة يسكنها الأموات لا بيتا من الدنيا يسكنه الاَحياء ، نزل آدم ثم دقَّ على باب غرفة علي دقا خفيفا فسألت خديجة:

–من ذا الذي يدق ؟.

–آدم.

فتحت الباب فنظر آدم للوجوه داخل الغرفة فكانت كلها مصفرة من الفزع ترتعد اَجسادهم من الخوف الشديد كالطريدة حين تقع فريسة بين مخالب الوحش.

–ما الذي اغضبه؟.

–لستُ ادري كنت منهمكة في تحضير العشاء ، و حين رأى الاَولادُ جدهم هرعوا لداخل الغرفة فاَحدثوا ضجة بسبب جريهم فكأن ذلك ما أثار غضبه.

-إن كل الجيران و المارين قد سمعوا ما يحدث هنا من جنون و لا سيرة لهم الآن غيرنا ، أصبحت الحياة لا تطاق في هذا البيت.

خرج آدم و توجه للدكان في حالة اِحباط شديد و في طريقه إليه رأى العيون تراقبه كما اَحس أن اَحاديث المجتمعين منهم تدور حول ما يجري في بيت عبد القادر و هي تلتذ بتلك الفاكهة المحرمة عليهم ، و حين جاء مراد صاحب الدكان استأذنه بالمغادرة اليوم باكرا لأنه يترقب ليلة صعبة و شاقة و اَجواء مضطربة في البيت و على اَحدهم أن يكون حاضرا لتهدئة النفوس و يخفف من وطأة غضب عبد القادر و علي ابنه حين يلتقيان ، و الله المستعان على ذلك ، فأذن مراد لآدم لأنه –كجميع الناس المحطين بعائلة عبد القادر – يعلم شدة غضب عبد القادر و علي و الخلاف الكبير الذي وقع و يقع بينهما.

لما بلغت الساعة التاسعة ليلا ولج علي إلى البيت فشعر بذلك السكون الذي يسبق العاصفة و تيقن من أن هناك شجارا قد وقع ، فاصفر وجهه و توجس خيفة و دق قلبه دقا سريعا اسرع من جريان الدم في عروقه ، فاَصابه ذلك الضخ المتسارع إلى اَطرافه بارتجاف اطرافه فامتدت يده إلى باب غرفته لفتحه و هي ترتجف و هو يقول في نفسه:

-اللهم إني اسألك العافية.

فوجد الباب مغلوقا من الداخل فَدَقَّ الباب:

-من بالباب.

-علي.

ففُتِحَ الباب فرأى وجوها كئيبة و اجسادا صغيرة ساكنة لولا الحياة فيها لكانت كالأموات

-ما الأمر ؟.

-لا شيء جديد والدك و أنت تعرفه.

-هل شاجركم أنتم أم أمي أم شقيقي ؟.

-بل نحن.

فلما سمعها قالت ذلك قرفص و وضع مرفقه الأيسر على ركبته اليسرى ثم بسط على فمه ابهامه و السبابة و عقد باقي الاصابع و دَنَّقَ في وجه زوجته كما دَنَّقَتْ فيه أيضا فلما اَبصرت ما فيه من ضُمْرِ الْهُزَالِ و الوَصَبِ قالت:

-يا علي تعال نخرج من بيت اَبيك و نؤجر بيتا يكون لنا سكنا مما نحن فيه فقد تحول هذا البيت إلى جحيم لا يطاق فانظر إلى ما اَصابني و الأولاد من فزع و اضطراب ، فالأفضل أن تخسر مالك إيجار بيت و لا تخسرها دفع كشف أطبة الأعصاب و الأدوية ، فحقيقة وضعنا الحالي المضطرب يجبر كل من في البيت على التوجه لأطبة الأعصاب.

-و من أين لي ثمن لتأجير بيت لمدة سنوات أما أُجرة عملي فتكاد لا تكفينا مصروف حاجياتنا. فكيف اَستطيع تأجير بيت ؟.

-المهم نترك هذا البيت الذي هو قطعة من الجحيم و يدبرنا الله بلطفه.

لما اَحس عبد القادر بدخول علي انتعل مِدَاسَ وضوئه البلاستيكي المفتوح عند الأصابع ثم نزل الدرج فلما سمعت عائلة علي وقع خطواته على درجات السلم فزعوا و اضطربوا و امتقع لون وجوههم فلما وصل باب غرفة علي ناد:

-علي.

فلما سمع علي نداءه خرج.

-اسمع يا علي قد تحملت زوجتك و اَولادك بما فيه الكفاية أما الآن لا اَريدها أن تبقى في بيتي.

ثم علت نبرته عن ذي قبل:

-لا أُريدها في بيتي ؟.

-أين اَذهب بهم ؟.

-لا يهمني ذلك.

-فبدأ وجه علي يصفر اكثر و اصاب اصابع كفيه اختلاج و بدأ يدور حول نفسه مثل المجنون و زاد شهيقه و زفيره كمن قطع مسافة طويلة و هو يجري حتى انقطع نفسه ثم وضع كفه الأيمن على جهة صدره الشمال و في هذه اللحظات كان والده عبد القادر يزبد و يرعد.

-قد كَبَّرْتُ و علمت اَولادك و كسيتهم و داويتهم في حين كنت أنت لاهيا بسهراتك و غارقا في رحلاتك و إنه كان جزاء ذلك من زوجتك أن تمكر و تحرض اَحفادي علي و تفسدهم بحقدها لا يمكن لها أن تبقى في هذا البيت بعد الآن...

-أنت السبب في ما نحن فيه فقد اخبرتك من اَيامي الأولى إني لا أُريدها و أنت اَصريت على بقائها ، فلن اَذهب بهم إلى أي مكان و سأَبقى هنا.

-قلت لك : لا أريدها في بيتي هل تفهم ذلك سأتصل بالشرطة الآن و سَاَرمي لك اَغراضك في الخارج.

لما سمع علي هذا الكلام الذي اختلط فيه صراخ والده مع كلامه الجارح فقد السيطرة على نفسه و اَخذ بتلابيب والده عبد القادر كما اخذ والده عبد القادر بتلابيبه – و هم لا

يشعرون – في هذه الأثناء تدخل آدم الذي كان خلف والده دون أن – يشعر به حيث إنه عند نزول عبد القادر علم آدم أن نزوله كان لشر فتبعه بخطوات صامتة و وقف على إِحدى درجات السلم ينظر إلى ما يفعله والده و ليتدخل في الوقت المناسب ليحل دون وقوع الخلاف المتوقع بينه و بين علي فلما سمع مناداة والده عبد القادر لشقيقه علي نزل باقي الدرجات و وقف خلفه – و اَبعدهما عن بعضهما.

–إفعل ما بَدَا لك و لن اَخرج من هنا.

فهذه الأثناء استطاعت خديجة أن تسحب زوجها ثم ادخلته الغرفة و اغلقت الباب ، أما آدم فإنه حاول أن يهدئ والده لكن عبد القادر لا يوجد شيء يهدئ اعصابه و دائما ما يثير اعصابه كل مهدئ ، و كأن ذلك ينشط غضبه اكثر ثم دفع آدم و ضرب باب غرفة علي برجله فانحشر خنسر رجله اليمني في زاوية الباب و عندما سحب رجله انفجر الدم منها و قد انقطع جزء من اصبعه عند مفصله الأعلى لكن غضب عبد القادر الهستيري لم يترك مكانا في نفسه للشعور بألم القطع ، ابتعد عن الباب و هو يصرخ و يتكلم بكلام غاضب فلاحظ آدم الدم يسيل من اصبع والده فأراد تنبيهه لكن دون جدوى فكلامه يشبه حديث غواص حين يحدث غواصا آخر تحت الماء ، عاد عبد القادر لغرفته و ساد البيت هدوء المقابر و سكونها أو هدوء البيت الخالي من القاطنين.

طلع النهار و توجه آدم لعمله أما عبد القادر فإنه خرج مبكرا لسوقه مع ابنه عبد الحليم ، وأما علي فمثل عادته فإنه توجه مبكرا كذلك للمقهى التي يحب الجلوس فيها ، و أما العجوز المسكينة و كنتها الجديدة فقد اهتمتا بشؤونهما المنزلية ، و أما خديجة فقد بدأت

ترتيب غرفتها لتحولها لمطبخ فمساحة الغرفة ضيقة و لا تسمح إلا إن تكون غرفة أو مطبخا ، و أما الأولاد فقد اغتنموا فرصة غياب جدهم عبد القادر و خرجوا للعب.

الفصل الثامن

إقترب موعد سفر آدم فالتقى نبيلا ثم توجها لحجز تذكرتيهما فوجدا اَقرب موعد للسفر يمكن حجزه حيث يجدا مكانين شاغرين لهما في الطائرة يكون بعد شهر آخر و لا يوجد حل آخر غيره فحجزا و قطعا تذكرتيهما و قال نبيل:

-سوف نذهب للمطار و نحاول إيجاد مكانين شاغرين و ذلك بالتسجيل في قائمة المنتظرين الجاهزين للسفر فلعل بعضهم يغيب فنسافر مكان من يغيب.

و فعلا بعد ما يقل عن أُسبوع و بعد استعلامها عن طائرة الجزائر دمشق علما موعد سفرها خلال الأُسبوع ، فتوجها للمطار يوم الأحد و حاولا السفر لكن باءت محاولتهما بالفشل و قررا أن يلتزما بموعد السفر المقرر رسميا على تذكرتيهما عاد آدم للعمل في دكان مراد و في عصر إحدى تلك الأيام المتبقية قبل السفر دخل والده عبد القادر فأحس آدم بهيبة حضوره و توجس خيفة من فجأة دخوله

-اسمع يا آدم قد قررت تزويجك و كلامي لا رجعة فيه.

انصعق آدم حين سمع الخبر و علت صفرة الخوف وجهه و جف حلقه و تسارعت ضربات قلبه و رأى حلم سفره الذي قضى اَشهرا في تحضيره و تعب لذلك و أُرهق يتمزق كما تمزق الأعاصير اَعلام السواري ، و بعد أن وجد نفسه و طريق النور الذي يبحث عنه ها هو ذا يفقدهما من جديد و ترأى له سراب الضياع يلوح قريبا منه.

-سامحني يا أبي أنا لا افكر في الزواج الآن.

-ماذا تقول؟. قد صرت شابا و لا يصلح اَمرك غير الزواج و قد تكلمت مع والد الفتاة و إنه وافق و انقضى الأمر.

-لن أُوافق على ذلك.

-و كلمتي مع الرجل ؟.

-أُنقض ذلك ، أما الزواج فلا أُفكر فيه الآن البتة.

نظر عبد القادر في ولده نظرة تمحيص ثم غادر الدكان متوجها لصلاة المغرب تاركا ابنه آدم في حالة من التشويش يأكله الفزع و الإحباط أكلا ، و بعد إنقضاء أيام من هذه الحادثة و لم يتبق لسفره إلا أيام قليلة و كانت الوقت عصرا و هو الوقت الذي يجلس فيه والده عبد القادر يشرب قهوة مسائه ، فقرر آدم مصارحة والده بسره الذي يكتمه عنه لكن مع هيبة منه تمنعه من ذلك خوفا من ثورة غضبه الهستيرية التي قد تدوم أياما و مع ذلك عزم على المواجهة و لما كانت قنوات الحوار بين عبد القادر و أولاده غير موجودة فإن الكلام يدور بينهم مثل الأوامر العسكرية حيث يكون الكلام موجها و جافا و من غير مقدمات أو مناسبة

-أبي سَأُسافر بعد أيام.

-ماذا ؟ تسافر إلى إين ؟.

-إلى سوريا ؟.

فتفاجأ عبد القادر لأن ابنه آدم لما ذكر السفر ظنه سفرا قريبا داخل الجزائر أما خارجها فلم يتوقعه فقال – مقطبا حاجبيه و رافعا لصوته مما ينبئ ببداية ثورة غضبه البركانية: –

-سوريا !. و ماذا تفعل هناك ؟.

-سَأُسافر لطلب العلم.

نزلت هذه الكلمة على صدر عبد القادر غريبة و هجينة كغرابة و استهجان نزول الثلج في منتصف فصل الصيف و لم يستوعب اَبعاد معناها.

-ماذا تفعل ؟.

-أدرس يا أبي؟ .

-و ماذا تدرس ؟. بعد أن شاب علقوا له تميمة العين.

-أدرس الشريعة ؟.

-هذه الدراسة أي منصب تمنحك إياه.

-منصب إمام جامع.

و قد قال آدم هذا الجواب و هو كاذب في قوله فَنِيَةَ آدم لطلب العلم اَكبر من منصب اِمام في جامع من الجوامع فلما كان والده من أُولئك الناس الذين يربطون الدراسة بنهاية مهنية و ربما والده و الناس الذين يعتقدون بهذا الاِعتقاد ربما هم الذين على صواب و تجنبا لثوران غضب والده البركاني اِختار هذا الجواب.

-و لِمَا لا تسافر إلى مصر إلى الأزهر الشريف ففيه يتخرج العلماء؟.

تفاجأ آدم من اِنبساط والده لهذا الحوار عوضا من غضبه المتوقع في أي لحظة.

-صحيح يا أبي و حتى سوريا يكثر العلماء في ربوعها على مر الاَزمان و حتى أيامنا هذه.

ثم صمت الحديث فخرج آدم فرحا لأنه استطاع اِفشاء سره لوالده و قَدِرَ على محاورته من غير أن يثير غضبه ، صحيح إن كلامه دار معه كرسائل تلغراف جافة لكنها اَفضل من الصمت و الاِنقطاع و الهجر و بعد أيام في ليلة السفر ناد آدم والدته و بعد صلاة المغرب حيث والده في الجامع فادخلها غرفته ثم قال لها:

-سأسافر غدا.

تفاجأت الأُم من كلام ابنها و استولى عليها الفزع من ردة فعل عبد القادر الخطير إذا سمع الخبر ، و سيطر الحزن على قلبها لفقدان اَبنائها و فراقها لهم بين الموت و السفر الطويل الذي يشبه الموت غير إن فراقهم يبقيهم في دنيتها مبعدين عنها و فوق التراب بخلاف الموت الذي يدفنهم تحت التراب ، و على كثرتهم و بعد أن اَهداهم الزمان لها على طول سنوات ها هو ذا ينقصهم على سنوات أُخرى تشبهها بعد أن ضاقت من اَجلهم الصَبِرَ و رجت خيرهم ، فوضعت كفها على جبهتها و اَحَدَّتْ النظر لِاَصغر اَولادها المتبقين.

-ماذا تقول؟. إلى إين تذهب؟.

-إني اَخبرتكم عن هذا السفر منذ اَيام.

-و والدك؟.

-ما به ؟. فهو يعلم بهذا السفر.

و لما كان آدم يخشى سورة غضب والده عبد القادر التي تدوم اَياما و ليالي و تصيب ناره المذنب و غير المذنب و اَول من يدفع ثمن ذلك الغضب البركاني هي والدته المسكينة ، فلم يكرر الكلام على موضوع سفره مع والده و و يتحقق من اِذنه مرة أُخرى ، و اتخذ من صمته حين كلمه عنه رخصة موافقة منه على سفره.

-أرجوك لا تسافر و ابقى معنا فلا بلد لك غير بلدك هذا بلد اجدادك و لا بيت لك إلا بيتك هذا بيت اَبيك و أُمك.

صمت آدم و صمتت أُمه ثم خرجت و توجهت للمطبخ أين توجد كنتها الصغرى و حفيدتها وردة و من ساعات الصبح الأُولى غادر آدم حاملا حقيبته بعد أن ودع والدته ثم استقل مع نبيل سيارة أُجرة أَوصلتهما إلى المطار.

الفصل التاسع

في ليلية صيفية دائفة استقل آدم و نبيل الطائرة لكن آدم اصابه انقباض و زادت دقات قلبه و شعر بصعوبة التنفس و التفكير حيث تملكه رُهابُ المرتفعات و الأماكن المغلقة و الضيقة و هو لم يختبر ذلك من قبل و لا يدري ما علة هذا الإضطراب المفاجئ غير إن مصباح الخطر الأحمر قد اشتعل في رأسه و علا فيه أزيز يشبه ازيز الكهرباء ذي التوتو العالي حين سريانه في الأسلاك الكهربائية ذات التوتر العالي و بعد أن جلسا قعد بجنب نبيل مسافر آخر فبادر نبيل للحديث معه:

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام.

-هل تقصد دمشق للتجارة ؟.

-نعم. و أنا أُتاجر في ألبسة الأطفال.

-جميل و هل هذا سفرك الأول إل دمشق أم كانت لك أسفار قبله إليها ؟.

-إني أُسافر لسوريا منذ أربعة أعوام أو اكثر بقليل كل مرة في الشهر.

-جميل إذن أنت تعرف دمشق جيدا.

-أُصدقك القول لا أعرفها جيدا لكن الأماكن العامة و السياحية المشهورة فيها أعرفها و قد زرتها مرات عديدة.

-أنا و صديقي نقصد دمشق من أجل طلب العلم .

-عندي فكرة عن ذلك فكثير من الجزائريين يقصدونها لطلب العلم.

–صحيح. لكني آملُ أن توجهنا فنحن اَول مرة نقصد فيها دمشق و لا ندري كيف نتوجه فيها ، و إنه سبقنا صديق لنا لكننا لا نملك عنوانه فإن كنت تعرف أحد طلبة العلم الجزائريين لعله يدلنا على عنوانه .

–أُعذرني أنا لا اعرف أحدا من طلبة العلم لكني سمعت أنهم يقيمون في حي يسمى ركن الدين.

–و كيف نتوجه إليه ؟.

–سوف نصل إلى دمشق في الليل فاَنصحكما بالنزول في فندق لتبتا ليلتكما هذه و تستريحا و في الصباح يمكن لكما أن تسألا عن حي ركن الدين ثم تتوجها إليه.

–فكرة جيدة و هل تدلنا على فندق في دمشق يكون سعره على قدر بذلنا ؟.

–يوجد الكثير و لا تقلقا سآخذكما إلى فندق في وسط دمشق يتميز بسعره المناسب و نظافته و قربه من كل المرافق و الأماكن فهو ما يناسبكما.

–اشكرك على ذلك.

–لا داعي لن افعل شيئا ذا بال.

ثم خاضا في اَحاديث جانبية أُخرى أما آدم فإن الرهاب قطعه تقطيعا منذ صعوده للطائرة فقد اَصابه تعرق شديد و خفقان قلب حاد و ضيق في التنفس و الصدر و شعور بالغثيان و صعوبة في التفكير ، و شحوب في الوجه حتى اصفر منه اصفرارا ليمونيا و حتى يتفادى هذا الوضع المزعج و المقلق و المضطرب له غرق في ذكرياته و احلامه لكن كل ذلك منع التفكير و ما زال إلا حين خروجه من الطائرة ، و بعد سفر دام لأكثر من اربع ساعات حطت الطائرة بمطار دمشق و بعد المعاملات الروتينية القانونية من ختم الجوزات و غيرها استقلوا

حافلة من مطار دمشق الدولي إلى دمشق و حين وصولهم موقف الحافلات في حي البرامكة إستقلوا سيارة أُجرة حيث اَوصلتهم إلى فندق مقابل لسوق الحميدية و هناك باتا ليلتهما ، و اَول ما استلقى نبيل غرق في نوم شديد أما آدم فرغم تعبه و شدة إرهاقه فلم ينم –كعادته حين ينام في مكان غير ما عهده للنوم فإن النوم يهجره في اَيامه الأُولى – و بقي مستلقيا يفكر غارقا في بحر اَفكاره تتجاذبه اَمواجها في وضعه الحالي و في والده عبد القادر و أُمه و عائلته:

–ما يكون رد فعل أبي حين يعلم بسفري هذا ؟.

و هل تدفع أمي ضريبة هذا السفر آلاما تصيبها بها ثورة أبي الهستيرية و لا ذنب لها إلا إنها أنجبتني رغم أن قرار سفري اتخذته و حدي و لا دخل لها ؟.

هل عصيت والدي بسفري هذا لِمَ لم اَتأكد من موافقته ؟.

هل أنا مذنب بتصرفي هذا و يسمى عقوقا للوالدين ؟.

كيف يسمى عقوقا و ربما يكون قرار الأولاد في بعض الأحيان اَصوب من قرار الوالدين و يمكن أن أُصبت أنا هذا المرة ؟. فلماذا اترك الفرصة تفوتني ؟.

و ماذا فعلت ؟.

غير إني اَنوي أن أُصيب الخير كله فلم أُهاجر لدنيا أُصيبها أو اِمرأة اَنكحها و اِنما لِمَا فيه خير الدارين – الدنيا و الآخرة – فإني هجرت لله و لرسوله الكريم و لا يوجد طريق موصل إليهما غير طريق العلم فهو طريق النور المفضي إليهما ، و قد يصيب والدي من الخير ما اَصابني و زيادة و بهذا أكون قد نفعتهما و لم اَضرهما ، و قد قال رسول الله ﷺ:

"إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّةِ، وإنَّما لِكُلِّ امرئٍ ما نوَى، فمَن كانت هِجرتُهُ إلى اللَّهِ ورسولِهِ، فَهِجرتُهُ إلى اللَّهِ ورسولِهِ، ومن كانت هجرتُهُ إلى دُنْيا يصيبُها، أوِ امرأةٍ يتزوَّجُها، فَهِجرتُهُ إلى ما هاجرَ إليهِ."

أَبِهَذَا أكون قد عققتُ والدي و عصيت ربي و خالفتُ رسوله الكريم الذي اَوصانا بطاعة الوالدين ؟. كما إني اَعلم سبب رفضهما إن استأذنتهما و هو خوفهما من إن يصيبني مكروه و هذا المكروه الذي يخافانه يمكن أن يصيبني و أنا بينهم و الله خير حافظا ، و إن كان من اَجل خدمتهما فها هو ذا أخي عبد الحليم يقوم بذلك ، لكن آدم عرف بعد ذلك أنه قد وقع في اِثم عقوق الوالدين بمخالفة اَمرهم لكنه رجى الله أن يجعل من طول الأَيام ثلجا يغسل صدر والديه من ذكرى عقوقه لهما و مسامحته و إنه ظفر بذلك .

و دام تفكير آدم و اتصل و لم ينم إلا في ساعات الصباح الأُولى من اليوم التالي و الذي صادف يوم جمعة حيث تكون دمشق قليلة الزحام إلى منعدمة و حين استيقظا في الصباح و بعد فطار سريع سأل نبيل عامل الاستقبال في الفندق عن الطريق الموصل لركن الدين فدلهما عليه

-توجها مباشر لجسر الرئيس و تحت الجسر هناك موقف ميكرو سرفيس خطوط المدينة كلها و استقلا ميكرو سرفيس خط (ركن الدين – جسر الرئيس).

خرجا قاصدين لجسر الرئيس و حين وصولهما إليه صادفا اَحد طلبة العلم الجزائريين فرجى نبيل لعله يوصلهما للتوفيق الذي كان قد تكلم عنه مع التاجر الجزائري في الطائرة:

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته.

-أود أن اسألك لو سمحت بذلك.

-تفضل .

-هل أنت طالب علم مقيما في ركن الدين ؟.

-نعم.

-إني ابحث عن شخص اسمه توفيق و هو من سطيف و إنه وصل إلى دمشق منذ اربعة اشهر تقريبا و هو مقيم في ركن الدين

-لا اعرف شخصا من سطيف بهذا الِاسم رغم إني مقيم في ركن الدين منذ فترة طويلة.

-حسنا هل تعرف عبد المجيد الجيجلي ؟.

-عبد المجيد اعرفه حق المعرفة.

-هل بالِامكان لو تدلني على بيته ؟.

-الآن لا نجده في بيته و إنما في جامع أبي رمانة حيث يصلي عادة صلاة الجمعة ثم يُبَسِّطُ بعد الصلاة فهو يملك (بَسْطَةً) للعطور و السواك يسترزق منها فإن اَحببتما صحبتماني فأنا في طريقي للصلاة هناك.

-ليكن ذلك.

توجه نبيل و آدم مع طالب العلم لجامع أبي رمانة الموجود في حي أبي رمانة مشيا على الاَقدام و هو حي منه يبدأ جسر الرئيس و أول ما دخلوا الجامع انبهر آدم بفخامة بنائه و نظافته كما انبهر بفخامة الحي و رقيه من قبل و لما حان وقت الظهر اِنفتح باب في احدى زوايا الجامع ثم برز في فراغه شاب يرتدي جلابية بيضاء من احسن الناس وجوها و نظارة ثم

تقدم من المنبر و ارتقى ثلاثة درجات منه ثم استقبل المصلين و ألقى السلام بصوت هادئ لكنه اسمع الحاضرين ثم أذن المؤذن و عند انتهائه بدأ الشاب خطبته

-إن الحمد لله نحمدهُ ونستعينُه ونستغفره، ونعوذُ باللهِ من شرور اَنفسنا و من سيئات اَعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، و اَشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، و اَشهد أن محمدًا عبدهُ ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102) ﴾ [سورة آل عمران]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1) ﴾ [سورة النساء].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71) ﴾ [سورة الأحزاب].

و كانت خطبته عن فقه السيرة على صاحبها أفضل الصلاة و السلام و هي جزء من سلسله خطب عن السيرة في كل خطبة يتطرق لحلقة من حلقات تلك السيرة العطرة لكنه ملك الاَلباب بصوته الهادئ و تمكنه من سردها ، كما اَصاب آدم ما يشبه السحر من حلاوة كلامه و دقة تفصيله للحوادث و الاَسماء و ما جرى فيها من حديث فانفتحت شاشة ذهنية في فكره و عاش بخياله بين اَبطال الحادثة التي كان يتطرق إليها الشاب الخطيب

و كأنه واحد منهم فتمنى ألا تنتهي الخطبة لكنها للأسف انتهت بأَسرع مما كان يأمل ، و بعد الصلاة اِلتقوا بعبد المجيد و هو شاب اسمر و نحيف و طويل بعض الطول لا تفارق وجهه الابتسامة و هو اِنسان اجتماعي بامتياز يضع نظارة تساعده على الرؤية ، واقفا اَمام حقيبة تشبه الحقائب الدبلوماسية مفتوحة لكنها و عوضا أن تكون مليئة بالأَوراق فإنها مُلِئَتْ بِقَنَانِي العطر و المسك الصغيرة و السواك و هذا ما قصده طالب العلم حين اَخبرهم عن شأن عبد المجيد و سماها (بَسْطَة) .

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته.

-كيف الحال يا عبد المجيد ؟.

-الحمد لله.

-الشباب سألوا عنك.

-اهلا و سهلا بهم أنا في الخدمة ، هل من خدمة يمكنني أن أُقدمها ؟.

فتكلم نبيل:

-أنا صديق سفيان نسيبك و إنه دلني عليك و نصحني بملقاتك لما كنت في الجزائر و قد جئنا أنا و صديقي آدم لتسجيل في اِحدى المعاهد.

-وصلتما إلى وجهتكما و أنا في خدمة العلم و طلابه و هذا الكلام يحتاج إلى تفرغ تام و اَنتما كما تلاحظا هذا وقت استرزاقنا فَقِفَا بجاني ريثما انتهي و سنذهب للبيت و نتكلم بكل هدوء.

-حسنا.

-أما أنا فأَرجو أن تعذروني بعد أن وصلتما عند عبد الحميد سأَرحل و سوف نتقابل في الأَيام القادمة إن شاء الله.

-إن شاء الله. من غير شك و جزاك الله خيرا.

بعد انتشار المصلين و ابتعادهم اقفل عبد المجيد حقيبته:

-تفضلوا معي.

فتبعه نبيل و آدم ثم استقلوا ميكرو سرفيس (جسر الرئيس – ركن الدين) ثم سلم عبد المجيد الراكب امامه قطعتين من النقود اِحداهما من فئة عشر ليرات أما الأخرى فمن فئة الخمسة ليرات – و الذي سلمها هو بدوره للذي اَمامه مع أُجرته و أُجرة من بجانبه حتى وصلت ليد السائق:-

-ثلاثة لو سمحت.

ثم التفت لنبيل:

-إذن أنت صديق سفيان نسيبي.

-و هو من اَعز اصدقائي.

-كيف قررتما التنقل للشام لطلب العلم.

-أنا ذهبت للقاهرة للتسجيل بالأَزهر لكن بعض الأَوراق كانت تنقصني و بين سفري للجزائر و رجوعي للقاهرة يكون وقت التسجيل قد فات لكن سفيان بلغني عن قبول المعاهد في سوريا لطلبة العلم غير السوريين و اَخبرني عنك فقررت القدوم هنا.

-هل تعلما اَنكما وصلتما في الوقت المناسب فلم يتبق الكثير من الوقت للبدء بعملية التسجيل؟.

-جميل فالحمد لله.

و اثناء حديثهما كان المكرو سرفيس قد قطع قسم حي ركن الدين الشرقي بأَبنيته الفخمة و المرتفعة و شوارعه العريضة و حدائقه الجميلة و محلاته الحديثة و العصرية و بعد قطعه شارع صلاح الدين بدأ بصعود شوارع قسمه الغربي الضيقة و هو حي شعبي كبير و عريق و من اقدم احياء دمشق يتربع على جبل سفح جبل قاسيون و لما وصل الميكرو سرفيس وسط الجبل بعد أن قطع بعض الشوارع قال عبد المجيد للسائق:

- عَ اليَمِينِ زَكَاةَ عُيُونَكَ.

-تِكْرَمْ عُيُونَكْ ، تفضل.

-شكرا.

ثم نزل ثلاثتهم و بعد أن ولجوا البيت و شربوا الشاي قال عبد الحميد:

-أول شيء عليكما القيام به هو اِستئيجار غرفة ثم بعد ذلك لما يحين ميعاد اختبارات القبول في المعاهد تجريان الاِختبارات في كل منها و أين يتم قبولكما فذاك معهدكما.

فقال نبيل:

-لي طلب قبل ذلك.

-تفضل ما هو ؟.

-أود زيارة توفيق فإن سفيان اخبرني إنه اَلتقاك و أنت تعلم مكان اِقامته.

-صحيح. و هو الآن يقطن مع شاب من جيجل اَعرفه و بعض طلبة العلم الجزائريين في حي الطَبَّالَةِ مؤقتا ريثما يَبُتُّ في اَمره فهو متردد بين المكوث و التوجه للأردن.

-هَلَّا زرناه الآن ؟.

-لا مانع عندي.

توجه الثلاثة للطبالة و هو حي شعبي من اَحياء مدينة دمشق تقع فيه كلية الهندسة الكهربائية و كلية الهندسة الميكانيكية و بعض المعاهد المتوسطة ، و توجد به كنائس هامة و يرتبط مع باب شرقي و باب توما من الشمال و الشمال الغربي و المنطقة الصناعية من الغرب و الجنوب الغربي ، و هناك اِلتقى نبيل بالتوفيق و حين و صلوا البيت الذي يقيم فيه طرق عبد المجيد الباب ففتح التوفيق فلما رآهم و رأى نبيلا بينهم هب لملقاته بالاَحضان و الفرحة لا تسعه ، و هو شاب نحيف و طويل و صاحب سريرة طيبة و صافية تجاه الآخرين لا تغير فيه نظرتك من اَول ما تعرفه و مهما طالت معرفته تبقى نظرتك إليه واحدة فهو من أُولئك الناس الذين يشبهون الكتاب المفتوح الذي كتب و قد جفت الاَقلام و انتهى ، أما البيت الذي يقيم فيه فهو بيت أرضي مكون من ثلاثة غرف الأُولى عند الباب مباشرة على شمال الداخل أما الغرفتان الباقيتان فهما تحتلان صدر البيت ملتصقتان ببعضهما لكن كل غرفة لها بابها الخاص و يفضيان لفسحة سماوية ، أما المطبخ و الحمام فإنهما قابلا الغرفة الأُولى كما إن للبيت فسحة يُرْتَقَى إليها بدرج حجري جانبي يبدأ من الفسحة السماوية و ينتهي على ظهر المطبخ.

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته .

-انظروا من زارنا. إنه نبيل فاكرم و اَنعم.

-شكرا. شكرا. كيف حالك يا التوفيق.

-غارق في نعم الله و فضله. كيف حالك أنت و الاِخوة و الاَصدقاء ؟.

-كل بخير و صحة جيدة.

-من الأخ الذي معك لم تُعَرِفْنَا به ؟.

-هذا صديقي آدم و جار قديم لنا لكنهم رحلوا الآن ، ألا تعرفه؟.

-شَرُفْتُ بمعرفته الآن أما قبلُ فلا للأسف.

-آدم شاب خجول و يرتاح في العيش في الظل.

-و هذا سبب مقنع أني لم اَعرفه من قبل رغم إننا نقيم في مدينة واحدة.

فقال آدم:

-و أنا نلت الشرف.

-تفضلوا.

-لما دخلوا غرفة من غرف البيت في الصدر كان هناك شاب ذو طبع هادئ جالسا متربعا يضع ساق رجله اليمنى على ساق رجله اليسرى و كف يده اليمنى تلعب بشعر صفحة خده الأيمن و يدقق النظر في كتاب في الفقه الحنفي و حين دخل الوالجون الغرفة و سلموا رد السلام:

-و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته.

ثم ترك ما كان بين يديه جانبا و استقبل الزائرين بابتسامة خفيفة توحي بهدوء صاحبها و رباطة جأشه و إنه وُضِعَ على جبهته لاصق طبي فوق اِحدى عينيه و على رأسه قلنسوته فسأل عن حاله عبد المجيد:

-كيف حالك يا التهامي هل التهب الجرح ؟.

–لا. الحمد لله و هي ليست بذلك الورم الخطير إنما كانت حبة صغيرة لكن بإذن الله نجحت العملية

–الحمد لله و ها هي ذي جماعة جديدة وصلت من طلبة العلم الجزائريين فهذا الأخ نبيل و ذلك آدم.

–شَرُفْتُ بمعرفتكما.

–و هذا التهامي و هو في السنة الرابعة من كلية الأُصول بجامعة الفتح الإِسلامية و هو ابن بلدي جيجل.

فقال نبيل:

–شَرُفْتُ بمعرفته

و كذلك قال آدم ثم دارت اَحاديث جانبية عن اَحوال الجزائر و عن بداية الموسم الدراسي بالشام و بداية التسجيل فيها و بعد ساعات من المحادثة و في المساء تطرق الحديث عن إِقامة مؤقتة لنبيل و آدم حتى يستأجرا غرفة في إِحدى البيوت التي يستأجرها طلبة العلم أو شقة مناسبة لهما ، فاقترح التوفيق بإِقامتهما في الغرفة المجاورة مؤقتا لأَيام لأن مستأجرها طالب علم فرنسي من اَصل جزائري و قد سافر إلى فرنسا لزيارة اَهله مستفيدا من عطلة الصيف الدراسية ، و وافق التهامي على ذلك و اَستحسن نبيل و آدم الإِقتراح و حبذاه فاعتذر عبد المجيد و غادر ، في المساء رجع مستأجر الغرفة التي بجنب باب الخروج و هو شاب من مدينة تيارات جسيم و طويل تهابه النفوس من أول نظرة لكن بمجرد أن يبدأ في الحديث حتى تطمئن له و هو يحمل بيده اليمنى حقيبة تشبه حقيبة (البسطة) التي لدى عبد المجيد الجيجلي و يمتهن المهنة نفسها و يدرس مع عبد المجيد الجيجلي و الشاب الفرنسي

ذي الأُصول الجزائرية بمعهد التهذيب و التعليم للدراسات العربية و الإِسلامية و في الصف نفسه أي الصف الثالث ، فلما علم بوجود ضيفين جديدين في البيت ولج غرفة التهامي الجيجلي:

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام و رحمة الله بركاته.

-ألا تعرفاني على الشابين ؟ .

-نبيل و آدم طالبان جديدان و إنهما وصلا البارحة.

-شرفتُ بكم اَخوكما اِبراهيم من تيارات.

-شرفتُ بك.

-شرفتُ بك.

-إنكما اقبلتما على طلب العلم فعليكما بإِغتنام الوقت إن احببتما الفوز به ، و إن كان لكما دخلا مرتاحا سنويا أو شهريا فإنكما ترتحان أما إذا لم يكن ذلك ضاعت جُلُّ اَوقاتكما في العمل مما ينهب الكثير من اَعز اَوقاتكما لطلب العلم و هذا يطيل مكوثكما هنا و اَطول مما تتوقعون.

قال نبيل:

-على طالب العلم أن يكون زاهدا في الدنيا و يقنع بالقليل منها فلا يجتمع للإِنسان طلب العلم مع طلب الدنيا فلا بُدَّ أن يزيح اَحدهما الثاني.

-صحيح ذلك في القديم في زمن ما كان الزهد يرغب فيه الجميع و يطلبونه أما الآن و مع جشع الإنسان اختلف الأمر فكل شيء بالمقابل و لا يوجد شيء بلا ثمن فالأكل بالمال و الإقامة بالمال و التنقل بالمال و حتى العلم صار بالمال.

-منذ القديم كان كل شيء بالمال لكن الفرق بين طلب العلم و طلب الدنيا هو الزهد في الدنيا و القناعة بالقليل منها مع كثير من الصبر و اغتنام الأوقات في طلب العلم و إن احببتَ جئتك بأمثلة و نماذج من صبر العلماء على طلب العلم ، ألم تقرأ كتاب (صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل) للشيخ المحقق و المدقق عبد الفتاح أبو غُدَّةٍ.

-ليكن الله في عوننا على كل حال أهلا و سهلا بكما بيننا.

-دمتَ و دَامَ عِزُكَ.

-الآن أُعذروني أُريد أن أتعشى شاركوني.

فقال التوهامي:

-ما عشاؤك اليوم ؟.

-مثل العادة سندويش الفلافل ؟.

-و ما يفعل سندويش فلافلك لهذه البطون الجائعة فمن يسمع دعوتك للعشاء يظن أن هناك خروفا مكتفا مشويا.

-عادة من الكلام تعودنا عليها فماذا نفعل أمام العادة ؟. فالطبع يغلب التطبع.

-حسنا. حسنا.

ثم غادر إبراهيم لغرفته و لما قاربت الساعة منتصف الليل توجه نبيل و آدم لغرفة الفرنسي ذي الأصول الجزائرية للنوم و مثل الليلة السابقة فما إن وضع نبيل جسمه على الفراش غرق في

نومه ربما ساعده على سرعة النوم في كل الأمكنة هو رحلاته الكثير فإنه لا يضع عصاه عن ظهره ، أما آدم فقد جفا النوم عينيه و طال سهره و تفكيره بما جرى في يومه هذا و بما شاهده من اَماكن تاريخية و أُخرى حديثة و راقية و تجواله في مدينة تُعد من اقدم العواصم في التاريخ و إنه حدث شعور جديد في نفس آدم منذ سفره لم يعرفه من قبل و هو نشوء صوت داخلي يرتفع كل ما خَلَى بنفسه يوجه له الأسئلة نفسها:

-ماذا تفعل هنا ؟.

-ماذا بعد هذا السفر ؟.

-أأصبت الرأي و القرار بسفرك هذا أم جانبت الصواب ؟.

و غرق كعادته في بحر اَفكاره و في البحث عن اَجوبة لهذه الأسئلة الجوهرية بالنسبة إليه و لم ينم إلا في ساعات الصباح الأُولى ، و في مساء اليوم التالي تَحَيَّنَ الساعة العاشرة ليلا و هو الوقت الذي يعود فيه والده عبد القادر من صلاة العشاء و هو الآن جالس ليتعشى فاتصل ليخبره بوصوله إلى دمشق ، و حين رن الهاتف زادت دقات قلبه و علاه التوتر و اَمتد نفسه كمن يجد صعوبة في التنفس و اَوجس خيفة ، و هي حالة تتملكه كلما صادف والده أو حدثه ، و حين فُتِحَ الخط كان صوت والده بنبرته الصافية و الحازمة كنبرة جينرال أول ما سمعه:

-نعم. من معي ؟.

-أبي أنا آدم.

-ما هذا الغياب ؟.

-بحمد الله وصلت إلى دمشق.

-دمشق.!

تغيرت نبرة عبد القادر و علت قليلا عن قبل و اختلطت بالدهشة من أمر مفاجئ غير متوقع فأوجس آدم خيفة.

-نعم يا أبي أنا في دمشق و إني وصلت في الوقت المناسب فإن التسجيلات ستبدأ في الأيام المقبلة.

-فعلتها إذن.

أحس آدم في هذا الكلام الملامة و العذل فقال:

-أخبرتك بذلك يا أبي و اَستأذنتك.

-إفعلوا ما بدا لكم أُهجروني و اتركوني لوحدي سافروا متى و أين شئتم أما مصالح هذا البيت فإنها كُتِبَتْ عليَ وحدي.

-يا أبي...

-حسنا و كيف تأكل و تشرب و أين تنام ؟.

-كل شيء ميسر فلا تحمل هَمًّا فقد استضافنا بعض طلبة العلم الجزائريين و نحن الآن نبحث عن بيت نؤجره.

-هل تملك مالا تعين به نفسك ؟.

-إني ادخرت بعض المال خلال عملي في الأَشهر الماضية و هي تكفيني ريثما أُقبلُ في إِحدى المعاهد فإنها تتكفل بالطالب أكلا و شربا و إِقامة.

-حسنا.

-هلا سمحت لي أن اكلم أمي يا أبي ؟.

-ألو كيف حالك يا بني ؟.

-أنا بخير و في عافية يا أمي لا تخافي ضرا علي ؟.

-هل تأكل جيدا و تنام جيدا ؟.

-كل شيء على ما يرام يا أمي.

-حفظك الله يا بني و اسبغ عليك نعمه.

-سامحيني يا أمي فالمكالمة الدولية غالية و إنه نفد رصيدي سا...

-مع السلامة يا بني مع السلامة و اعتني بنفسك.

-مع السلامة يا أُمي.

حين انتهت المكالمة تنفس آدم الصعداء و اَحس بِارتياح داخلي ليس لدرجة كبيرة و لكنه يهدئ النفس و يطمئنها أن الأُمور بخير مع فرحة تخالطه لأنه كلم اَباه عبد القادر و لم يُثِرْ بركان غضبه ، و شعر برضا والده عنه من خلال كلماته الاَخيرة لكنه و ما زاد في هذا الشعور هي المساعدات المالية التي كانت تصله من والده بين الفينة و الأُخرى ، و في الأَيام التالية بدأ الاَصدقاء البحث عن بيت يستأجرونه و بينما هم في زيارة لطلبة علم جزائريين في اِحدى الأُمسيات اِنظم للثلاثة شاب جديد عازم على طلب العلم هو كذلك

-توفيق عند الباب مَنْ يبحث عنك.

-من هو ؟.

-لا اعرفه و لكنه قال: " إني ابحث عن التوفيق و قيل لي: إنه في ضيافتكم."

-دعه يتفضل بعد اِذنك.

-حسنا.

حين دخوله اَوحى شكله و وجهه المرهق و المتعب لآدم بسرعة اتخاذه للقرار سفره و سرعة سفره كما ينزع لردود الفعل السريعة و يفتقد للروية ، و هو شاب رَبْعَةُ القَامَةِ ممتلئ الخدين كرضيع في اَعوامه الأُولى و لا تفارقه ضحكة خفيفة حين يقابل أحدا من معارفه.

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته.

-هذا أنت عبد المحسن !. ما هذه المفاجأة!

فقال عبد المحسن مع ضحكة خفيفة سبقت كلامه و قد علق نظره بالسقف لا لشيء مقصود بل لمجرد عادة و طبيعة حين يهاجمه الخجل:

-شكرا . شكرا . كيف تسافر يا التوفيق و لا تخبرني ؟.

-هذا الذي جرى فلم أُخبر أحدا. و كيف وصلت هنا ؟.

-هذا أمر يطول الكلام عليه غير أن قرار السفر كان بسرعة و حين اَردت حجز تذكرة لم أجد مكانا إلا بعد شهرين فحجزت و حين خروجي من مكتب الحجز لقيتُ أحد التجار فاخبرني أن طائرة (الجزائر – دمشق) موعدها الليلة و إنه هناك اَمل لسفري و ذلك إذا سجلتُ على قائمة الاِنتظار فإذا غاب مسافر حاجز حللتُ محله و هذا الذي جرى فإن الأُمور تمت بسرعة.

-و من اَخبرك بسفري ؟. و من دلك على عنواني ؟.

-سفيان اخبرني بأَمرك و اَمر نبيل و زودني بعنوان عبد المجيد الجيجلي و في الطائرة تعرفت على طالب علم اَوصلني لعبد المجيد الذي اَوصلني بدوره إليكم.

-كأنه اَرهقك السفر.!

-صدقت فإني لم أنم منذ يومين غير اِغفاءات خفيفة لا إرادية.

-الحمد لله على وصولك سالما و أهلا و سهلا بك بيننا ؟.

-جزاك الله خيرا .

و بعد بحث دام اياما حصلوا على بيت في حي الطبالة ، و هو بيت من طابقين أما الطابق الأول فإنه استأجره قاضي و هو يقطنه مع عائلته أما الطابق الأَرضي المفصل من غرفتين متلاصقتين مع مطبخ و حمام متلاصقين كذلك في الجهة الأُخرى تفصل بينهما فسحة سماوية مغلقة السقف في اَعلى الطابق الثاني فقد استأجره الأَصدقاء الأَربعة ، و في شهر آب انطلقت المسابقات و التسجيلات في المعاهد فاجرى الأَصدقاء المسابقات فيها ، غير أن التوفيق لَمَّا يقرر بقرار حازم بين سفره للأردن أو بقائه بسورية و بعد صدور النتائج قُبِلَ آدم بمعهد التهذيب و التعليم أما عبد المحسن فإنه قُبل بمعهد الأَمينية في قسمه الداخلي أما نبيل فقد قبل بمعهد المليحة، و كلما صدرت النتائج في معهد من المعاهد تملك الخوف آدم ألا يقبل فإذا لم يجد اسمه في لائحة القبول حزن و قال في نفسه:

-إني فوضت اَمري لله و استخرته فهو يَخِرُ لي فلعله لا خير لي في هذا المعهد مع فضله و بركته و عسى أن أجد اسمي في قائمة اِحدى المعاهد الأُخرى المتبقية.

و بعد صدور قائمة معهد التهذيب و التعليم لأَسماء المقبولين وجد اسمه بينهم فانشرح صدره و لم تسع الدنيا فرحته و استقبله اَصدقاؤه بالتبريك و الأَحضان و الفرحة لفرحته ، و ابتدأت مرحلة جديدة في حياة آدم اَحس بالحماسة في اكتشافها.

الفصل العاشر

في أول يوم في المعهد توجه آدم من الطبالة إلى سوق الحميدية و في وسط سوق الحرير المتفرع عنه حيث سوق القَلْبَقْجِيَة و جامعه و حين دخل من باب الجامع على ممر مسقف حيث يفضي إلى الفناء أين توجد هناك فسحة سماوية و التي تتوسطها بحرة رخامية معينة الشكل و ذات الأَضلاع الثمانية ، و قد نبتت من القرب منها شجرة ليمون و بعض الشجيرات الأُخرى ، و إلى يمين الداخل في اَقصى الفناء توجد قاعة ملئت بالكتب يطلق عليها اسم (قاعة الشيخ مُحَمَّد هاشم الخطيب الحسني) تتخذ كقاعة للدروس الخارجية المتنوعة و للملتقيات الجانبية ، كما توجد على شمال الداخل الْمُصَلَى و باب يبدأ بسلم يفضي إلى سطح الجامع حيث بنيت عليه ستّ غرف أو خمس ، اربع منها قاعات للتدريس و الخامسة اتخذت ادارة تدير شؤون المعهد و السادسة غرفة المدير ، حيث أن الطالب يتخرج في تلك الغرف لمدة اربعة اَعوام و عامه الأول منها تكون تأهيلا للأعوام الثالثة الباقية في هذا المعهد ، و في تلك الغرف بدأ آدم يلتقي أُناسا لم يعهد بهم في حياته السابقة و من نوع مختلف و من جنسيات مختلفة ، عربا و غير غرب ، همهم الوحيد و الأكبر هو العلم و بذله و طلبه ، و رغم اختلاف الأَلسن و الثقافات و المشارب و تنوع اَيديولوجياتهم بدأت تظهر روابط الصداقة و المعاملات الطيبة بين الطلاب في الصف الواحد ، و ما زاد في ذلك الإِنفتاح بين الطلاب هو النهج الذي سارت عليه ادارة المعهد حيث ابتعدت في منهاجها عما يثير حفيظة الطلاب و اكتفت بما يجمعهم من الخطوط العريضة في العلم من غير أن يضر هذا النهج بكمال المنهاج ، و ما اَعان على ذلك أيضا هو طول الوقت الذي يجمعهم في مساحة محدودة تفرض عليهم القرب من بعضهم و التعارف فيما بينهم ، و لا يمنع هذا

من اِيثارة بعض المواضيع بين الفينة و الأُخرى تدخل الحاضرين في حالة من التشبث بآرائهم و قناعاتهم السابقة لكن صبر المعلمين و حكمة الإِدارة و طول ممارستها لمثل هذه الطوارئ لم تترك الأُمور تصل إلى اِنزلاقات خطيرة ، و بعد مرور حوالي الشهر اِنتقل آدم لأحد الفنادق الذي ينزل فيه دائما صديق له من التجار كلما قصد دمشق و هو من زبائن الفندق المعروفين و سأل عنه في الإِستقبال :

–من فضلك هل نزل رضا الطاهر عندكم أم لما يأتي ؟.

–بلى إنه وصل منذ يومين.

–هل هو موجود الآن؟.

–غادر من ساعتين تقريبا ؟.

–أرجوك إن عاد اَخبره أن صديقه آدم عبد القادر قد جاء و سأل عنه و سوف اَعود في المساء لملاقاته.

–بكل سرور.

–شكرا لك.

و في المساء و في حدود الساعة الثامنة عاد آدم للفندق فوجد رضا في انتظاره ، و هو فتى طيب يعرفه آدم من اَيام دراسته الإِعدادية و من اَوائل اَصدقائه الذين لاحظوا الخجل العظيم الذي يتملك آدم ، فمِمَا يذكر من القصص القديمة و التي تجمعهم في اَيام الإِعدادية أن رضا دعى آدم و صديقه بلال – رغم تحذير شقيقه الأَكبر من مخالطة آدم إلا أنه بقي وفيا لصداقته إياه — و صديقا ثالثا كان معهم لشرب القهوة عنده بالبيت و حين دخلوا إلى غرفة الإِستقبال اعتذر رضا منهم و خرج ليأتي بالقهوة و حين خروجه من الغرفة و اغلق

الباب وراءه شد انتباهَ آدم جهازُ (الكاسيت) و لولعه بالموسيقى رغب في أن يكتشف الشريط الموجود بالجهاز فشغله و اَنقص صوته لدرجة إنه اَلصق أُذنه بمكبر الجهاز فدخل رضا و لما شاهد وضعية آدم انفجر ضاحكا بقهقهة عالية مستغربا فعله.

-ماذا تفعل يا آدم ؟. يكفي أن ترفع صوته و تبعد أُذنك و تجلس مرتاحا فتستمتع حينها بالسماع.

-إني سمعتك تحدث والدك من خلف الباب.!

-و ما دخل والدي هنا؟ .

-ألا ينزعج من الضيوف و رفع صوت المذياع ؟.

فضحك رضا كذلك.

-و لماذا إذا اشترينا المذياع ؟. أليس للسماع و الإِستمتاع بالموسيقى ؟. أما الضيوف فلا حرج من ذلك فإن بيتنا لا يخلو منهم.

فاَحس آدم بالخجل من تصرفه و الإِضطراب و الخوف من والد رضا إذا دخل الغرفة و وجد اِبنه دعى رفاقه للبيت و وجده هو بين المدعوين فكيف سيتصرف ساعتها ؟. أيقوم بطرده من بيته و تحذير ابنه من مخالطته مثل ما يفعل الآخرون ؟. لكن رضا رفع صوت الجهاز و تكلم بنبرة عالية و دردش الرفاق كذلك بنبرة عالية و ضحك الجميع و قهقهوا و لم يحدث شيئا مما كان يخشاه آدم ، و لم يغضب والده و ظل الجو هادئا حتى خرجوا و انصرفوا ، لكن الدهشة و الاستغراب تملكا آدم اَياما من ذلك. أما رضا فهو الآن شاب ممتلأ الجسم طويل فوق المتوسط بقليل يميل شعره لصفرة قليلة و يمتلك بشرة بيضاء و عينين خضروين

غير إنه يعاني من ربو مزمن ، و مع هذا مقبل على الدنيا اِقبال الطفل المشتاق لأُمه حين يراها بعد طول غيابه مع اعتنائه بمظهره و صحته.

-آدم. كيف حالك يا رجل ؟ .

-في نعم الله و فضله و أنت كيف حالك ؟.

-الحمد لله. فعلتها إذن و قَرَّ بك القرار في دمشق كما اَخبرتني.

-نعم . إني عقدت العزم و لا رجعة فيه.

-جميل و قبل كل شيء هل تعشيتَ ؟.

-لا...

-جميل و أنا كذلك ما رأيك أن تتعشى معي فإني اعرف مطعما بحي الميدان يمتاز بالأَطباق الشهية ؟.

-أنا أ...أ... أ...

-أَ لم تتغلب على خجلك الذي تعاني منه بعدُ ؟.

-و ماذا اَقول لك ؟ .

-لا تقل شيئا ستتعشى مع بعضنا و في الطريق و اثناء العشاء ستخبرني عن تفاصيل رحلتك هذه.

-كما تفضل و تحب.

في الطريق و اَثناء العشاء اخبر آدمُ رضا بكل تفاصيل رحلته كما دارت اَحاديث جانبية عن ذكريات الطفولة و اَخبار بعض المعارف بينهما و حين عودتهما للفندق و قبل الفُرَاقِ قال رضا:

–هل تعلم إني اِلتقيتُ الشيخ عبد القادر قبل سفري إلى هنا ؟.

لما سمع آدم كلام رضا هذا تملكه الخوف حين سمع اسم والده و اتسعت حدقتا عينه

–حقا.!

– لما اقترب وقت سفري قصدت عمي عبد القادر لأُخبره عن موعد سفري و إن كان يحب أن يبلغك رسالة أو يبعث لك بشيء حتى آتيك به ، و في عصر أحد تلك الأَيام قصدت بيته لكنني حين اَخبرته احسست بحزنه على سفرك و فراقك لهم رغم هيبته التي تصبغه صبغا و حين كلمته قال :

–هذه حال الدنيا نُرْزَقُ بأَولاد حتى يكونوا سندا و ذخرا لنا و حين نحتاج إليهم و بعد سهرنا الطويل و تعبنا المجهد من اَجلهم و تحمل حَرِّ الصيف و قَرِّ الشتاء و الأَسقام التي تصيب اَنفسنا و اَجسادنا حتى لا يصيبهم مكروه يهجرونا ، و يكون جزاء طيبتنا جفاء منهم ، فها هو ذا ابني العمري قد هاجر لأُوروبا و ها هو ذا آدم قد هاجر لسورية.

–يا عمي عبد القادر هل يوجد شيء اَفضل من طلب العلم ؟ .

–لا يوجد لكن فراق الأَبناء صعب و سوف ترزق ابناء فتحس بما اَقوله لك الآن.

ثم صمت قليلا و اَضاف

–المهم أن ينجحوا في حياتهم فلا نريد شيئا منهم فإننا بخير و العمر قد مضى و انتهى ، و القادم عليكم اَنتم و ليس علينا فإن اَيامنا راحت من غير رجعة لكننا كنا على قدر المسؤولية ، و ما نعيشه هو فضل تفضل عليه ربنا . دعك من ذلك متى تسافر ؟.

–بعد أيام قليلة و إني اخبرته من قبل حين علمت بسفره بعنوان الفندق الذي أُقيم فيه حينما اَقصد إلى دمشق.

-حسنا بلغه سلامي و سلام والدته.

و إنه اَرسل لك هذا المبلغ من المال.

ثم سلم آدمَ ورقة المئة أورو ففرح آدم بالمبلغ لأنه ينطوي على رسالة و اطمأن حين شعر من أن ارسال هذا المبلغ من طرف والده عبد القادر يعني أنه راض عن سفره و قراره الذي اتخذه فابتسم ابتسامة الرضا و الاِطمئنان ، و بعدها ودع صديقه رضا

-إنك تأكدت من عنوان اقامتي هنا في دمشق و إن لي رحلة إلى هنا كل شهر فبين الحين و الآخر تعالى و اسأل عني هنا في هذا الفندق.

-شكرا لك و جزاك الله خيرا.

حين عاد آدم و استلقى في مكانه هجمت عليه النفس اللوامة كالعادة و سؤال الوقت الذي يؤرقه

-ها أنت ذا قد اكتشفت أن العلم لا يدرك بين ليلة و ضحاها و لا في اَشهر معدودة أو بضع سنين مما ينبئ بطول السفر و الوقت المديد الذي يبعدك اَطول وقت عن بلدك و اَهلك و حياتك الخاصة ، هل أنت مدرك لذلك ؟.

هنا سمع صوتا داخليا لم يدري من هو يقول:

-ما رأيك أن تستقر هنا في الشام ؟. نعم. تستقر هنا لا يصيبك الاِندهاش و الذهول من كلامي فهنا كل ما تحبه و على رأسها توفر الكتب من كل الفنون و العلوم و مجالس العلم و مراكز الثقافة مما تفتقر له مدينتك في بلدك الأصلي فإن لم يعش الإنسان لعقله فَلِمَنْ يعيش إذن ؟.

-صحيح ذلك لكن...

–لستَ اَول من يستقر به المقام في بلد غير بلده و لن تكون الأخير فبلد الإنسان و موطن إقامته حيث يجد موطنا لروحه و نفسه و تتوفر الأساليب و الظروف المساعدة لها لتستقر فلا يختلف مَنْفَاكَ إن رضيت أن تعيش في موطن جسدك حيث غربة روحك.

انقلب آدم على جنبه الآخر لكن ذلك الصوت الداخلي إستمر في حديثه.

–إن رجعت إلى موطنك استلمتك حياة التبطل و الجري وراء لقمة العيش و مخالطة من يحملوك على مجاراتهم بالمنافسة الباطلة و لا يمكنك أن تسلم مما يضاف إليك و يُفْرَضُ عليك من اَخلاقهم فإن الإنسان كالعجينة التي تتشرب ما يُضاف إليها من مواد جانبية و إن كان قلبك من حديد فإن طول قربه من قطرات الماء لا بُدَّ من التأثير فيه و تعرضه مع طول الزمن للصدأ و الذي يعرضه بدور للضعف بعد القوة فوطن نفسك على الاستقرار هنا في الشام.

و هكذا قضى آدم جل سهره و اَرقه في حديث نفسي حتى مرت ساعات الليل الأُولى و في الغد و بعد أن حول المبلغ من الأُورو إلى الليرة السورية حيث كانت مئة أورو تقابلها ثلاثة ألاف و بضع المئات من الليرة السورية ، و هو مبلغ كاف لشراء كتاب طال ما كان يحلم باقتنائه و هو كتاب فتح الباري شرح صحيح البخاري لمؤلفه ابن حجر العسقلاني فتوجه إلى حي الحلبونى و اشتراه ، و يقع حي الحلبوني في منطقة البرامكة إلى جوار محطة الحجاز ، و ساعده قربه من جامعة دمشق على أن يكون مكاناً تتجمع فيه المكتبات و المعاهد التدريسية و المهنية ، و هو اَفضل حي يسعد آدم بالوجود فيه لِاحتوائه على دور النشر و المكتبات و فروع بعض المكتبات العربية الكبرى فيندر ألا تجد فيه ما تقصد لشرائه من عناوين الكتب ، و خاصة إذا كنت من اَصحاب الإقتناء ذي الشروط العلمية في تمييز

الكتاب العلمي من الطبعة التجارية و دار نشره الأصلية ، و إن كان من كتب التراث فتحقيق علمي لأحد كبار المحقيقين في تخصصه ، و إن كان ديوان شعر فيضاف لما تقدم شرط أن يكون برواية أحد رواة الشعر المعروفين كأبي عمرو بن العلاء أو حمّاد الراوية أو الأَصمعي أو المفضل الضبي و غيرهم من فحول الرواة للشعر و دواوين الشعراء بكاملها ، و إِضافة إلى ذلك فكلما صدر كتاب في أي دار نشر في العالم كان حي الحلبوني من أَوائل مَنْ يستقبل نسخه الأُولى في العالم، فبعد أن التحق آدم بالمعهد احتل الكتاب من حياته مساحة كبيرة و شغف باقتنائه و تصفحه و قراءته إلى حد الهوَسِ.

بعد انتصاف الشهر الثاني من التحاقه بالمعهد قرر عبد المحسن ترك معهد الأَمينية لاشتراطه الإِقامة الداخلية الجبرية على الطلاب غير السوريين و التحق بمعهد المليحة الذي يتخرج فيه نبيل و لما قُبِلَ فيه قرر الأَصدقاء الثلاثة الانتقال إلى مدينة المليحة في ريف دمشق في الغوطة الشرقية ، و لما كانت قريبة من دمشق و المعهد القلبقجية الذي يتخرج فيه آدم اختار الانتقال إلى الإقامة مع اصدقائه إلى مدينة المليحة ، و في بساتينها – الممتدة خضرتها و اشجارها إلى مدينة دير العصافير – استأجروا بيتا من غرفتين متلاصقتين و منفصلتي الأَبواب عن بعضهما حيث قسمت إِحداهما ليضاف المطبخ لها و تنفتح الغرفتان إلى فناء عريض و واسع و مُسَوَّرٍ يسمح بالجلوس فيه و التمتع بدفء الربيع الجميل و سمر ليالي الصيف ذات النسمة العليلة مع الاستمتاع بالهدوء و الهواء النقي و الطلق ، تلك الطبيعة الساحرة التي تذكرك بقول الجندي المتطوع في قصة (غارة — قصة متطوع) – الذي قاله بعد أن تحول في الطبيعة الساحرة متنقلا مع الجيش الروسي في أرض القفقاس و التي كتبها

الفيلسوف العظيم و المعلم الكبير ليف تولستوي و التي هي من بواكير انتاجه حيث أنه فرغ من تأليفها في سنة 1852 – و ذلك حين قال :

" أَيُعْقَلُ أن الناس يشعرون بالِاكتظاظ في العيش في هذه الدنيا الرائعة ، و تحت هذه النجوم التي لا تُسْبَرُ ؟. و هل يمكن حقا أن يبقى في نفس الِانسان شعور الحقد و الِانتقام و نوازع القضاء على بني جنسه ؟. يبدو لي أن كل ما في قلب الِانسان من شر لا بُدَّ سيختفي في تماسه بالطبيعة ، بهذا التعبير الأعظم فصاحة عن الجمال و الخير ".

لكن للأسف فما يفرق حياة الأرض عن حيوات الآخرة هي التقلب و التغير الذي يحصل في الحياة الدنيوية و لظروف الحياة الطارئة رجع آدم للِاقامة مرة أُخرى بالشام ، و صادف هذا الانتقال فصل الصيف فقرر التوفيق و عبد المحسن الرجوعَ لبلدهم و بقي نبيل و آدم.

الفصل الحادي عشر

بعد مرور خمسة اَعوام و نَفْسُ آدم تنازعه الاِقامة بالشام قرر اَخيرا اِلقاء عصا الترحال و الاِستقرار بِاَرضها المباركة بعد أن تغلغل هوى دمشق في قلبه حتى تعلق بها و بلغ حبها شَغَافَ قلبه حتى تمكن منه الهُيَامُ ، فإن تجول في ازقتها القديمة – التي امتزجت اَسماؤها بالتاريخ و حوادثه و الحضارة و رموزها – شعر بِاَرواح الصالحين تصافحه في اَزقتها العتيقة و علاه السرور لمشاركته اِياهم استنشاق هواها العليل و ربما اَحس بنشوة الافتخار إذا خالجه ظن

–ربما وقعت رجلك على اَثَارِ اَرجلهم و لمسات كفيك على آثار لمسات اَكفهم و ها أنت ذا تسلك دربا قد سلكوه من قبلك.

و ما زاد في هذا الكلف بالشام هو مكتبته التي جمعها و انتقاها بانتخاب دقيق خلال هذه الاَعوام الخمسة ، و تَوَفُّرِ الكتاب و دور النشر و المكتبات فيها ، فإنه صار مهووسا بجمع الكتب و تغلغل الكتاب في حياته حتى ملك عليه كل شيء و لا يقدر على التفكير بالعيش في مكان لا تكن فيه مكتبات و لا على النوم إذا لم تكن بجنبه بعض الكتب و لا يأنس بالرفقة إذا لم يحمل كتابا في يده ، أما التجديد في حياته فيعني اِضافة كتاب جديد إلى مكتبته ، حينها قرر الزواج و الاِستيطان و إنه نال ذلك و حين خطب فتاة إلى والدها قال كلاما استقر في خلده:

–ما عسايا أن أقول فإن رسول الله – ﷺ – قال:" إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَ دِينَهُ فزوِّجوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسَادٌ عَرِيضٌ."

في آخر العام الثالث من الزواج رزق من الأولاد بنتان و أحس أن الدنيا قد أقبلت عليه راضية فها هو ذا يعيش سعادة عائلية و يقتني ما يحب من الكتب و ما يرغب ، و يداوم حضور دروس من يشاء من العلماء و الأساتذة و المعلمين و ما تهواه نفسه من الفنون و العلوم ، لكن تقلبات الحياة سنة فيها فوقع هرج و مرج في سورية واندلعت حرب كبرى و في بداية الفتنة اضطر للرجوع إلى وطنه على أمل أن تهدأ الأجواء بالشام في اقرب وقت ممكن ثم يعود إليها لكن الرياح تجري بما لا تشتهيه السفن ، و حين عودته أحس بغربة تجتاح نفسه و تحتلها فمنذ ما يقارب العشرة أعوام رسم طريقا لنفسه و سلكها لكن الحرب أعادته للخطوة الصفر و حتمت عليه طريقا لا يرغب فيها و حياة لا تستهويه ، و ما بناه خلال تلك الأعوام العشرة ذهب أدراج الرياح ، فرغم وجوده بين أهله و خلانه إلا إن غربة نفسه طغت على أحاسيسه ، و مفارقته لمكتبته التي اصبحت له وطنا افقتده استقراره الداخلي و بدأ تحدي الحياة التي كان دائما يتجنبها و يهرب من وجهها ، فأول شيء صادفه من تحدياتها هو الخلاف الطبيعي الذي يظهر دائما بين الأم و كنتها فرغم اختلاف الثقافة و العادات و الرغبات فلم يمنع ذلك ظهور تلك الطبيعة الأنثوية فبعد رجوعه أقام في بيت والده عبد القادر ، و ما كان قديما يُسكت عنه من المشاكل الأسرية في البيوت الكبيرة – يعنى التي تحتوي الأجداد و الآباء و الكنائن و الأحفاد – بقوة أعراف المجتمع التي تشجع ذلك السكوت و تدعوا للصبر الشديد على المسكوت منه على رغم خطورة بعض الأمور و شدة ظلمها إلا أن ذلك تغير و تبدل ، فقديما كانت رئاسة البيت و ادارته بيد الأب الأكبر – الجد – أما إمارة شؤون البيت الداخلية فلا ينازع الأم الكبرى – الجدة – أحد فيها فتجد ما يجمعه الأبناء – الآباء منهم و العزاب و حتى الأحفاد – من كدهم كله يوضع في يدي الجد

المسؤول الأول و الوحيد عن إدارة البيت ، أما ما يلزم البيت من تنظيف و ترتيب و طبخ و غسل فمآل الأمور للأم الكبرى فهي الآمر و الناهي و ما على نساء البيت كلهن إلا السمع و الطاعة ، أما الآن فإن الأمور تبدلت و بدا الجميع كالمتمردين على هذه الأعراف و التقاليد مما اعلن بداية انقراض عصر البيوت الكبيرة و حلول عصر البيوت الصغيرة حيث تتكون من الوالدين و الأبناء فقط.

بدأت تطفوا خلافات بين الأم و الكنة الصغرى و اشتد الخصام بينهما إلى درجة لا تطاق حيث اصبح لزاما على آدم أن يتخذ قرارا ما ففكر:

-أن وقوفي إلى جانب والدتي يحتم علي أن اَظلم من أُمِرْتُ بصونها و المحافظة عليها فإن الله تعالى قال : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [سورة البقرة – الآية 229] قال ابن عباس: "﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ [النساء: ٢١] هو ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾، أي صحبة حسنة أو ﴿ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ لا يظلمها من حقها شيئاً ". و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " اِسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْرًا ؛ فإنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من ضِلَعٍ ، وإنَّ أعْوجَ شيءٍ في الضِّلَعِ أعْلَاهُ ؛ فإنْ ذهبْتَ تُقِيمُهُ كسرْتَهُ ، وإنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ، فاسْتوصُوا بالنِّساءِ خيرًا ". و إذا وقفتُ إلى جانب زوجتي عَقَقتُ من أُلْزِمَتُ بطاعتها و بِرّهَا فإن الله تعالى قال: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) ﴾ [سورة الإسراء] ، و " جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، مَن أَحَقُّ النَّاسِ بحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قالَ: أُمُّكَ، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: ثُمَّ أبُوكَ."

و إذا تُرِكَ الحبل على الغارب تغولت المشاكل و استفحلت مما تفضي للخراب.

فقرر البحث عن الإِجار و بذلك يريح و يرتاح و خلال بحثه بدأت تصرفات الناس تضطره لتلك المحاكمة النفسية و لذلك التفكير العميق و التمحيص لِأَخلاق الناس و التزامهم بمبادئ دينهم و مجتمعهم أو مخالفة ذلك و نقضه رغم الإِفتخار بالثبات عليها ، حيث يكون موضع الحَكَمِ و الخصم و المعلل و المفسر لتصرفاتهم حين توافق مصالحهم أو تعارضها.

-ألو. السلام عليكم.

-و عليكم السلام. من معي على الخط ؟.

-انا اسمي آدم. أ لستَ السَاسِي الدلال ؟.

-بلى بما اَخدمك ؟.

-أنا اَبحث عن شقة للإِيجار.

-توجد منها الكثير و هي تختلف بِاختلاف مساحتها و موقعها كما تختلف في سعرها فما هو طلبك.

-أريد بيتا من غرفتين و أرجو أن تكون بسعر زهيد.

-طلبك عندي. لكني الآن مشغول و لا يمكن أن اَتفرغ لك إلا يوم الأحد المقبل مساء فاتصل بي حينها و سنلتقي و نتحدث في الموضوع جيدا.

-يوم الأحد !. ذلك يوم بعيد و أُسبوع بكامله و أنا بحاجة لِإيجار البيت اليوم قبل غد فإنني مضطر لذلك و أنت تعلم اَحوال الشباب المتزوجين حديثا في هذا الزمن دون أن أُطيل الكلام و الإِيضاح.

-حسنا. حسنا. سأحاول أن أفرغ لك بعد غد لكن ليكن في حسابك أن الإيجار المتوفر حاليا لبيت من غرفتين لا يقل عن إثني عشر ألف دينار ، و للمالك أُجرة عام كامل مسبوق الدفع و لي حق شهر كامل ، أما مصاريف الإجراءات القانونية فعليك وحدك مستحقاتها.

-اثنى عشر ألف دينار للشهر مبلغ كبير ألا تلاحظ ذلك ؟.

-لقد كثر الطلب على إيجار البيوت و قل العرض أم تظن أنك وحدك من إختلف مع والديه أو أشقائه و مضطرا للبحث عن ايجار بيت هربا من تلك الخلافات ، أو أن الوالدين يملكان بيتا صغيرا لا يسمح بإستعاب عائلة الابن الجديدة ، أو أن العروس و والديها أو أحدهما اشترطوا عدم سكنى العروس مع والدي الخطيب ؟. و لا تنس نحن نقيم بمدينة تجارية يقصدها الناس من كل أرجاء الوطن و حتى من خارجه ، و هذا ما زاد في ترغيب الناس من الإقامة بها حيث فرص العمل و النجاح متوفرة و لا يغيب عن ذهنك طمع الكثير في الثراء.

-و مصاريف الإجراءات القانونية المستحقة ألا تلزم مالك البيت؟.

-قد تغير الوضع و صارت تدفع من طرف المستأجِر ألم أقل لك: كثر الطلب و قل العرض؟.

-بل قلتَ لي: قد كَثُرَ الجشع و الطمع و قَلَّتْ القناعة.

-سمها ما شئت.

-حسنا. حسنا. سنلتقي بعد غد مساء.

انقطع الاتصال دون أن يؤكد السَاسِي الموعد ثم توجه آدم لملاقاة نبيل محدثا نفسه:

-ما هذا الجشع ؟. ألسنا من أمة مُحَمَّد صلى الله عليه و سلم و مطالبين بإتباع أوامره ؟. أليس هو القائل – صلى الله عليه و سلم –: " الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي

الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ " ؟. فكيف نتوقع نزول رحمة الله إذا نحن نتاجر بما يحتاج إليه الناس ؟. و أين اِنسانية الاِنسان حين يساوم اَخاه الاِنسان فيما اضطر إليه ؟. هل اِختلفنا عن ذلك الوحش المفترس الذي يلتهم فريسته و هي لما تمت بعدُ ؟. يا ويحنا من الله .

بعد وصول آدم عند نبيل وجده بمكانه المعهود جالسا على صخرة مربعة أمام باب البيت حيث يقيم و كأنه غارق في بحر اَفكاره ، و هي عادة جديدة اِكتشفها في نبيل بعد رجوعه من سورية و لم يألفها منه قبلها ، حيث إنه اِعتاد على رؤيته متصفحا في كتاب مهما كانت الظروف أو الأَوقات فلا النهار و لا الليل و لا حرّ الصيف و لا قرّ الشتاء و لا حتى الشدة أو الرخاء يمنعه من ترك تصفح كتاب و كأن كَفَيْهِ خُلِقَتْ كتابا.

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام.

-ما لي أراك مهموما يا نبيل ؟.

-استغرقت مصالح العائلة كل وقتي و اَبعدت اِهتمامات الأَولاد و رغباتهم كل اِهتماماتي و رغباتي ، و صرت أرى نفسي جسدا يحيا بروح عائلتي و أنت تعلم شغفي بالقراءة فصرت لا أجد و لو لحظات اغتنمها في قراءة بعض الحروف .

-و هل عائلاتنا هي فقط السبب في غياب وقت الفراغ لِاغتنامها في القراءة ؟. ألا ترى أن كل شيء في هذه المدينة لا يشجع على العلم و طلبه فَخُذْ مثلا المطاعم و دكاكين الأَكل السريع و المقاهي في اِزدياد أما الكُتُبِيَاتُ فَعَلَى قلتها في البداية فهي في تناقص و اِنقراض .

-صحيح. فالله المستعان. أين تقصد ؟.

–إني ابحث عن بيت للإيجار ، هَلَّا رافقتني نسأل في المكاتب العقارية عسى أن اظفر بمرادي.

–هل اَصابك ما اصاب الجميع في هذه المدينة ؟. كلنا نعاني من المشاكل نفسها ما حملنا على تتبع سفاسف الأُمور و صغائرها عوضا عن الكبائر و المهمات منها ، فإنك تَجِدُ اَحدنا يقضي في مسألة غسل أواني الغداء بين شقيقتيه و اَيّهما صاحبة الحق و من المحقوقة ، أو يفك نزاعا وقع بين أُمه و زوجته عن تنظيف غرفة المعيشة ، فمن يطيل النظر في الثَرَى بين رجليه كيف تَأْمَلُ منه أن يصل يوما إلى الثُرَيَّا فوق رأسه ؟.

–صحيح. أليست هذه الصغائر من المشاكل التي يرها البعض من صغرها كالحصى التي وقعت فوق رأسه و حقوق الزوجة و الاَولاد التي يتعارض وجودها مع تحصيل طلب العلم ، هي التي منعت الكثير من العلماء على الزواج و اِقامة أُسرة ؟.

–ربما. يقول العلامة عبد الرحمن المعلمي اليماني في رد على رسالة اَخيه اَحمد بن يحيى المعلمي: " أما الزواج ، وما أدراك ما الزواج، فلا أستطيع أن أشير عليك بشيء، لأني في نفسي وجدت الزواج فيه خير وفيه شر، أما خيره فحفظ العفة والنّاموس. وأما شرّه فكثرة المصارف ونكد الخاطر دائمًا وغير ذلك. و النساء أشبه بالضأن ، جوف لا يشبعن ، و هِيمٌ لا ينقعن ، و أمر مُغْوِيَتِهِنَّ يتبعن ، و لا سيما في اللباس و الحليّ ، أشدّ شيء على المرأة أن ترى عند صاحبتها حُليًّا ليس عندها اَغلى منه ، أو لباسًا ليس عندها أجمل منه ، و الأمر أشد من ذلك ، فإن لم يوافقها زوجها — و طبعًا لا يقدر على موافقتها – أدخلت عليه الهمّ و الغمّ ، أما أنا فإني لا أبالي بهوى زوجتي ولكن لا أسلم من الغم و نكد الخاطر و تكدّر

الحال ". و قال سفيان الثوري: " من تزوج فقد ركب البحر، فإذا وُلِد له فقد انكُسِر به ".
و زعموا أن بِشْرَ بن الحارث الحَافِي قال: " ذُبِحَ العِلْمُ بين اَفخاذِ النِّسَاءِ."
ثم توجه الصديقان إلى المكاتب العقارية للبحث عن بيت و بعد يوم كامل في التجوال بينها عَزَّ طلبه و كل ما دخلا مكتبا منها تم استجواب آدم كاستجواب المخبرين و الأمن السياسي ثم يعتذر اَصحابها عن تلبية طلبه:

-تفضل. ما هو طلبك ؟.

-تأجير بيت من غرفتين ؟.

-ماذا تعمل؟.

-أني ابحث عن العمل في الوقت الحالي.

-آه مُتَبَطِّلٌ و كم لك من الأَولاد ؟.

-اثنتان.

-هل هما كبيرتان؟.

-مجرد طفلتين بين العامين و الخمسة اَعوام.

-طيب. في الوقت الحالي لا توجد عندنا شُقَقاً للإِيجار لكن أُترك رقم هاتفك سنخبرك في اَقرب وقت إن توفرت اِحداهن بمواصفات طلبك.

في المساء عاد آدم إلى البيتو إنه توجس خيفة و اَنقبض صدره و حين دخوله البيت اَحس بهدوء مريب فتوجه إلى غرفته التي كان بابها مغلقا من الداخل فَدَقَّهُ بهدوء و حذر ، ففتحت زوجته في حالة من الرعب و قد اِصفر وجهها و هي تقلم ظُفُرَ خنصرها الأَيسر بِظُفُرِ

سبابتها اليمنى ، و البنتان تقفان وراءها تنظران من طرف و قد تملكهما الذهول و اتسعت احداق عينيهما ، و حين ولج الغرفة و اَغلقت الباب هبت في همس قائلة:

-لم تخبرني أن عمي يغضب لدرجة الجنون.

-ماذا حدث ؟.

-في المساء كنت في المطبخ أُعد طعاما لي و للطفلتين و فجأة وقف عمي في فراغ باب المطبخ ، و اَنفجر بكلام لم افقه منه شيئا غير بعض الكلمات ، ثم ضرب القِدْرَ بالحائط و بدأ يضرب رأسه بيديه و يقول:

-جئتي تريدين أن ترثي أنت كذلك ، لا وفقك الله يا آدم على هذا الإِختيار...

مما سبب لي فزعا هستيريا فصرختُ و دخلت الغرفة و اَغلقتُ الباب بالمفتاح مخافة أن يحدث لي مكروه...

و ما كادت تكمل كلامها حتى سمع والده عبد القادر ينادي عليه من وراء الباب

-آدم.

حين سمع آدم صوت والده و هو ينادي عليه تصاعد نبضه و تسارع شهيقه و زفيره مثل ما يصيب الذين يجرون لمسافة طويلة دون انقطاع عن الجري ، و علت وجهه صفرة و تدفق الدم في عروق اطرافه مما سبب برجفة فيها ، و حين فتح الباب أَلْفَى والده واقفا في ظلمة يتوسط موزع الغرف و اقرب لباب الخروج ، مرتديا لباس الخروج و يحمل في يمناه عصا تَوَكُّئِهِ و هو يحدد نظره في باب غرفته

-نعم يا أبي.

-اَشكرك على اختيارك لعروسك و اَهنؤك عليه فقد خالطت نساء العرب و العجم فهذا الصنف من النساء الذي اخترت منه لم أره في حياتي.

-و ما بَدَرَ منها يا أبي ؟.

-ما بَدَرَ منها ؟....

و بدأ يتكلم بكلام لا علاقة له بالأَمر حيث علت نبرته و كانت كلماته جافة و جارحة و يتقدم بخطواته و يتأخر ، كما غير عصاه من كفه الأَيمن إلى الأَيسر ثم رفع كفه الأَيمن و بسطه حيث علا اِبهامه و سَفُلَ خنصره و هو يهزها هزا عنيفا و متسارعا عند كل كلمة .

-هذا من حظي السيء اَعرف ذلك ، فلا اَولاد لي يليق بي الافتخار بهم ، و لا كنائن يقدرنني حق قدري ، و إنك اَكملتَ ما تبقى من الهم حيث اتيتنا بواحدة لا تفقه شيئا من لغتنا و لا تدرك اَعرافنا و لا تحسن طبخ اَكلنا و حتى لا تقدر على تذوقه ، و منذ مجيئها و هي تعتكف بغرفتها مغلقة الباب عليها ، ما هذا الهم الذي يحيط بي من كل جانب ؟.

ثم فتح باب الخروج و حين خرج جذبه من ورائه بقوة شديدة فاَحدث اغلاقه صدى قويا يزعج السمع و يفزع الروح ، فتوجه آدم لغرفته و جلس على الأرض ، و قد علت وجهه صفرة شديدة و شعر بِاحساس الاِستفراغ و تملكه اِحباط شديد ، و في بداية الليل دار حديث بينه و بين زوجته حيث هي ابتدرت للكلام:

-سامحني أنا لن اَقدر على الصبر على هذا النمط من العيش ، فاَكلكم لم اقدر عليه و لما اَتعود عليه ، و إن حاولت طبخ أُكْلَةً لي استغرب الحاضرون شكلها و دمج مكوناتها ، و استشاط عمي غضبا لأننا حسب رأيه جعلنا بيته مطعما فكل شخص فيه يأكل على هواه

و في كل ساعة يوقد موقده ، و أنا لا اَقدر على الصبر على الجوع الساعات الطوال بين الغذاء و العشاء التي تمتد إلى العشر ساعات فكل اِنسان و قدرته على الصبر.

-اصبري عسى أن اَجد شقة أو بيتا في اَقرب وقت فإنني أُحاول قدر المستطاع.

-قد بلغ الصبر عندي منتهاه فلا يمر يوما إلا و نختلف أنا و زوجة عمي و عمي كذلك ، و هذا البيت كبير و عائلة عمي كبيرة و يحتجان إلى بذل الواسع من المجهود ، و أنا لا اَملك تلك الطاقة الكبيرة التي تسمح لي بمجارات طلباتهم و أوامر زوجة عمي ، فغسيل اَواني العشاء لحاله يهد جهدي كل ليلة و يقسم ظهري...

-حسنا. حسنا. فبعد غد سالَتقي بأحد الدلالين و إنه وعدني خيرا اليوم.

في غرفة عبد القادر ارتفع صوته عاليا كعادته حين يستلقي في فراشه للنوم ، و حين تظهر زوجته اَمينة في غرفته لترى طلباته قبل نومه من شرب ماء أو منبهه أو غطاء أو اِطفاء الضوء و غيرها من الطلبات اِستشاط غضبا و انفجر كالبركان قائلا.

-لا أريد شيئا أُغربي عن وجهي. كل مصائبي آتية منك ، كان يوم الشؤم يوم قررت الزواج بك.

و كالعادة في بيت عبد القادر فخلوده إلى فراشه يعني أن هذا اليوم قد انتهى و لا بد من اطفاء الأَنوار و السكون من الحركة ، صحيح أنه لا يقولها كلمات لكنهم خبروها من طول عشرته و ليس الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ ، و يعد غضب عبد القادر التحدي الأكبر الذي يواجه آدم.

في يوم الثلاثاء مساء اتصل آدم بالساسي الدلال لكن هاتفه يرن و لا يرد على المكالمة و بعد عدة محاولات فاشلة اَعرض آدم عن الاِتصال مرة أُخرى به ، و الغيظ يأكله اَكلا و بينما هو في حيرة من اَمره تذكر صديقه رضا و شبكة علاقاته الاِجتماعية القوية ، فقصده

طالبا مساعدته و حين توجه لبيته وجده يَهِمُّ بالدخول فلما شاهد آدم ابتسم و انتظره واقفا.

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام.

-كيف حالك يا رضا ؟.

-في نعم الله اَرْفُلُ. أين اَرضك يا رجل ؟. فإن الوصول إليك في الشام يسهل أما هنا كمن يبحث عن العنقاء ، و أنت كيف حالك هل تعودت على عيشتك الجديدة ؟.

-لا أُخفيك مشاعري قد اِختلطت علي الأُمور و رغم وجودي بين اَهلي و خُلَّانِي إلا إني أُحس بغربة نفسية عظيمة ، و أكثر ما افتقد إليه هو جلوسي في مكتبتي و اِمتاع نظري بمشاهدة كتبها ، و اِستمداد القوة بتمرير اَنامل كفي على مجلداتها و هي مرتبة في رفوفها فسعادتي منها اَستقيها.

-صبرا جميلا و ستتوقف الحرب عن قرب – إن شاء الله – و تعود لحياتك و مكتبتك ، و نعود للاِلتقاء هناك مرة أُخرى و التجوال في اَزقتها العتيقة و الاِستمتاع بما لَذَّ و طاب من اكلاتها الشهية ، فإن طعم آخر عشاء تعشيناه مع بعضنا في مطعم الميدان لما يزال ذوقه بين اَضراسي إلى الآن لروعة ذوقه.

-سقى الله تلك الاَيام.

-كأني اَراك مهموما هل من مساعدة اَقدر بها تخفيف ذاك الهم ؟.

–صدقت فَإن الهم حاسرني من كل جانب و بدأ الغضب يجد له وطنا في نفسي بعد مخالطة الناس و معاملتهم ، و ما كنت أُنكره من سرعة غضب والدي و كثير من الناس بدأت اَتقبله و اَراه مستساغا.

–سامحني غضب عمي عبد القادر — مع احترامي له و تقديره لي – لا يقارن به غضب اَحد فإنه أُمَّةٌ من الغضب.

–صحيح إنه المثال الأَبرز لذلك الإِنسان الغضوب و السريع الإِنفجار و النَزِقِ و حادّ الطبع ، لكن ذاك لم يكن من فراغ بل هو الكبت إذا صادف قلبا ذا حساسية عاليه فإن أُشْرِبَهُ تحول صاحبه إلى ذلك الأُنموذج الذي تراه في عمك عبد القادر ، فبعض القلوب كحجر الصفا لا تتشرب اَبدا ما يُسْكَبُ عليها و يُصَبُّ أما بعض القلوب فهي كالعجين و لا يمكن لها ألا تتشرب ما يضاف إليها من المواد ، فبحسب الذوق الغالب من المواد المضافة تكون نتيجة نكهة العجين ، فإن كانت المادة الغالبة حلوة كانت نتيجة ذوق العجين حلوا ، و إذا كانت مُرَّةً كانت ذوق العجين مُراً ، و إذا كانت مالحة كانت نيجة ذوق العجين مالحا أو حامضا أو مُزّاً بحسب طبيعة المادة الغالبة و المضافة ، و والدي عبد القادر من تلك القلوب الشبيهة بالعجين – عسى الله أن يهدي قلبه – ، ألا ترى أن الناس تعيش نفاقا – مع نفسها و ذويها و الآخرين – و دينها و مبادئها و اَخلاقها إذا تعارضت مع مصالحها ؟. أَلا يدعو كثير من تصرفاتهم و معاملاتهم إلى الغضب لولا التعقل و محاولة إِيجاد سبب مقنع لتلك التصرفات الهوجاء و لذلك النقض الصريح لأَوامر دينهم و نهيه و لمبادئهم ؟. و لكن هل يمكن دائما حضور العقل بقوة سلطانه أم إنه في بعض الأَحيان – إن لم يكن في اَغلبها

– يغيب كما تغيب شمس النهار عن الليل الدامس الذي لا بدر فيه و لا نجوم تعين الساري على هديه حين مَسْرَاهُ ، فتحمله تلك الظلمة الحالكة على الخَبْطِ في عمياء ؟.

–دعنا من الكلام عن الناس و هناك ما يحملك على المجيء لي من دون سابق اِعلام، فما هو يا تُرَى ؟.

–صدقت. إني اَبحث عن بيت للاِيجار و قد اَعياني ذلك فلما اَحصل عليه بَعْدُ ، لا عن طريق المكاتب العقارية و لا عن طريق الدلالين ، فأما اَصحاب المكاتب فإنهم تحولوا إلى مخبرين أو أمن سياسي ، فما إن تدخل عند اَحدهم حتى يمطرك اسئلة لا علاقة لها بهم و لا بمهنتهم و لا بما تبحث عنه عندهم ثم تخرج من عنده بِخُفَيْ حُنَيْنٍ و صفر اليدين و خالي الوِفَاضِ ، فما يفيدهم مهنة المستأجِر و سؤالهم عن عزبيته أو زواجه و عدد اَولاده و اَسنانهم ، أما الدلالون فهم حَفْنَةٌ من النصابين و المُتبَطِّلِينَ و لا شيء لديهم إلا اللعب بِاَعصاب المضطرين ، فتجد اَحدهم يضرب لك موعدا و يكون لك اَخلف من عُرْقُوبٍ ، و حين يكلمك يراوغك مراوغة الثعلب حتى يجس نبضك و يُقَدِّرَ شدة حاجتك لمطلبك لكي يعرف كيف يقنصك كالصياد لفريسته ، فأنت ترفع عقيرتك من الاَلم أما هو فيرفعها كالذئب ، دعنا —كما قلتَ – من سيرتهم و الآن أنا بحاجة للاِيجار في اقرب وقت ممكن.

–هذا ما تريده !. اَمرك هَيِّنٌ فإن شقيقي جمال له اَجير و إنه جاء والده منذ اَيام يسأل عنه ، و خلال الحديث اَخبر جمال إنه يبحث عن مستأجر لشقة تملكها ابنته في الطابق الرابع في عمارات من العمارات...

قاطع آدم كلام رضا و قد استبشر خيرا و سُرَّ بالخبر.

-لا يهمني أي طابق و لا الحي الذي يتواجد فيه ، الذي يهمني الآن هو الإِستئجار اليوم قبل غد ، فإن الأُمور بلغت حدا لا بُدَّ فيه من الفصل فإن " آخر الدواء الكي "، وبعضهم يقول: " آخر الطب الكي" ، و لا تَقُلْ : " آخر الداء الكي" فقد اَخطأ من قال ذلك كما نبه لذلك ابن السِّكيتِ في كتابه : (اِصلاح المنطق).

عندما سمع رضا (ابن السكيت) و (اصلاح المنطق) اصابته الدهشة و لم يفقه شيئا مما قاله آدم.

-ماذا تقول يا رجل ؟.

-اعذرني يا صديقي غلب الطبع التطبع و حين حضرني المثال : " آخر الدواء الكي " تذكرت استدراك ابن السكيت على العامة خطأهم حين يقولون: " آخر الداء الكي ". فَخِلْتُ نفسي أُكلم صديقي نبيل فذكرت تنبيهه و في أي كتاب هو.

-لا عليك. فيما يخص البيت سأتصل بجمال حتى يمدني برقم والد اَجيره و سَاَتصل به و اَتفق معه و حينها أُخبرك بالتفاصيل فَاَمهلني يومين فقط.

-اشكرك على تعاونك معي...

-لا شكر بيننا و موعدنا مساء الخميس إن شاء الله.

-حسنا و طابت ليلتك.

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام.

عاد آدم للبيت فرحا و يحذوه الأَمل بقرب الفرج فيما يخص وضعه المحرج له و لزوجته و عائلته ، و في طريقه إليه تذكر طلب زوجته بشراء قنينة ماء حتى تخلطها مع حليب ابنتهما

الصغرى فاشترى قنينة الخمسة لترات و حين ولوجه في شارعهم آلفى والده عبد القادر جالسا أمام باب البيت مع شقيقه عبد الحليم فتوجس خيفة – و هي عادة لا يمكن أن يتخلص منها فكل ما رأى والده أصابه الخوف — و أسقط عبد القادر نظرته فيه و لم يصرفها لغيره و حين إقترب منهما:

–أين كنتَ ؟.

–كنتُ مع صديقي رضا.

–هكذا أنتم تنجبون الأولاد ثم تتركون رعايتهم لي ، أليس من حقهم الخروج و اللعب أم تريد أن تحبسهم بالبيت ؟. ماذا تحمل في يدك؟.

–قنينة من الماء.

–قنينة من الماء !. ألا يوجد عندنا ماء حتى نجلبه من مكان آخر ؟.

–هذا الماء لشام فإنها لم تستسغ شرب ماء الحنفية و –كما تعلم – فهي لا تزال رضيعة و تحتاج لكمية كبيرة من الماء من أجل الرضاع.

–لا تقل لي: اشتريتها .!

–نعم اشتريتها.

لما سمع عبد القادر الجواب استشاط غضبا و اشتد نزقه و احتدم و علت نبرته و تمعر وجهه

–ما هذا الذُلُّ و هذا الخنوع اللذان أنت فيهما ؟. منذ متى نشتري الماء للشرب لزوجاتنا و أولادنا ؟. ادخل حتى لا افجر فيك غضبي و اجعل الناس تتفرج علينا.

صمت آدم و دخل و قد أصابه إحباط شديد و ثقلت رجلاه في درج السلم كمن ينازعه الموتُ رُوحَهُ ، و أحَسَّ كلام أبيه كالسيوف الدمشقية تقطع جسمه إربا إربا و زادت دقات

قلبه و شعر بنخزة تشبه وخز الشوك في قلبه و زاد شهيقه و زفيره لكنه كتمهما ، و انفجر اَزيز قوي برأسه يشبه اَزيز الكهرباء ذا التوتر العالي حين مروره في الأسلاك اَورثه صداعا شديدا و افقده التركيز طيلة المساء .

الفصل الثاني عشر

بعد الفراغ الذي تكشف في حياة آدم و حاجات أُسرته التي بدأت تزيد يوما بعد يوم ، اِبتدر للبحث عن العمل فَأُخْبِرَ عن اِعلان مكتبة لتوظيف عامل ، و حين توجه إليها وجد الاِعلان لا يزال معلقا في مدخل الباب ، و حين دخلها سُرَّ بالمنظر الذي اِشتاق له منذ شهور ، و هو مشاهدة كُتُبِيَةٍ كبيرة تحتوي المئات من عناوين الكتب ، حيث أن الكتب احتلت جدران المكان كله و الفراغ الأرضي الموجود فيه حتى السقف لمساحة تقدر بمئتي متر ، فتقدم آدم إلى صدر المكتبة حيث مكتب اَمين الكُتُبِيَةِ الذي تحتله بعض الكتب و التي وُضِعَتْ فوق بعضها البعض و شاشة كمبيوتر ، و من وراء المكتب وقف شاب ذو قامة قصيرة رقيق القد قد غزا الشيب شعره و ظهرت عظام وجهه بعض الشيء و ذو طبع هادئ ينظر لعنوان الكتاب بين يديه بتمعن ثم يدخله في فهرست المبيعات ، حيث يضيف له عدد كميته المتوفرة في المستودع و سعره بالجملة و نصف الجملة و سعر المستهلك العادي ، و بجنبه قد وقف رجل آخر مستدبره و هو يرتب أحد الرفوف التي وراءه.

-السلام عليكم.

فرد الشاب الواقف وراء المكتب:

-عليكم السلام.

-هل اِعلان العمل لما يزال ساري المفعول؟.

-نعم.

-هلا يُعاد النظر في شروطه إذا اَمكن ذلك ؟.

-أي شروط تقصد؟.

-المستوى الدراسي الجامعي و سن الخمسة و العشرون ، هلا يمكن التنازل عن بعض مستويات الشرط الأول و رفع سن الشرط الثاني ببعض السنوات ، الحقيقة ليس البعض بل الكثير ؟.

و صاحبت كلامَ آدم اِبتسامتُه التي توحي بتوتده و كأنه يقول للمبتسم له:

-ثِقْ بي فأنا جدير بذلك ، و إننا نعرف بعضنا منذ وقت طويل و إن لم نلتق أبدا صدقني.

و لم ينس حين ختم كلامه هذا أن يؤكد بهزة من رأسه تلك الابتسامة ، و حين كلم الشاب الهادئ عن منصب العمل استدار الرجل الذي كان مستدبرا ، و هو رَبْعَةُ القَامَةِ متناسق الأَطراف ذو وجه ممتلئ يضع على رأسه الخالي من الشعر طاقية رياضية رمادية و خالية من الشعارات ، كما يضع على أَنفه نظارته الحديدية الإِطار – التي تُظْهِرُ من وراء زجاجها نظرة حازمة – و ذو هندام أَنيق ثم تفرس في وجه آدم و في ابتسامته فرد الشاب الهادئ

-فعلاقتك الآن مع صاحب الأَمر مباشرة و ليست معي.

ثم أَشارة بنظرة للرجل الذي بجنبه و إليه نقل آدم نظرته فرد الأَخير:

-إلى أي مستوى دراسي تريد أن يكون مستوى أَجير كُتُبِيٍّ ؟.

-مستوى الثانوي مثلا لكنه يحترف حرفة الكتاب و يتقن صنعتها إلى مستوى لا بأس به ؟.

-ما أَسمك؟.

-آدم عبد القادر.

-أين تقطن يا آدم ؟.

- في هذه المدينة

-لكن لهجة كلامك تختلف عن لهجة أَهلها.

–صدقت فلطول مكوثي بالشام ربما تَعَوَّدَ لساني على لهجتهم لِاستعمالي الكثير لها و لأعوام عديدة مما جعل لساني ينحرف قليلا عن لهجتي الأصلية و لهجرتي الحديث بها كل تلك الأعوام.

–كنتَ مقيما بالشام و كم مكثتَ هناك ؟.

–لما يقرب من العشرة أعوام و لولا الحرب ما غادرتها.

التفت الرجل إلى الشاب الهادئ و قال:

–ناولني مفاتيح المستودع و سأغيب برهة ثم أعود.

سلمه الشاب الهادئ المفاتيح ثم التفت لِإتمام عمله من تسجيل عناوين الكتب الجديدة و اسعارها في فهرست المبيعات بالكمبيوتر.

–آدم رافقني لو سمحت.

–يسعدني ذلك. تفضل.

في الطريق للمستودع فاجأ الكُتُبِيُّ آدمَ بسؤال أحسه سؤال مستخبر و ليس سؤال مستفهم.

–ما رأيك في الشيخ مُحَمَّد سعيد رمضان البوطي.

–عالم من علماء الشام فإن اِجتهد و أصاب فله أجران و إن اِجتهد و أخطأ فله أجر واحد.

–صحيح. في ما يخص منصب العمل أنا مقبل على عملية جراحية خلال الأيام القليلة القادمة — إن شاء الله – و بعدها يمكن لنا الحديث في الأمر ، اتصل بي بعد أسبوع تقريبا.

–لا بأس طَهُورٌ إن شاء الله، سأكون حريصا على الِإتصال و إذا تم قبولي ستجدني على قدر المسؤولية – بإذن الله و توفيقه–

-سوف اَنظر في الموضوع.

بعد أن اَلقى آدم نظرة على المستودع الذي عزم الكُتُبِيُّ ليكون مستودعا للكتب و الذي هو في الأَصل عبارة عن مجمع اَرضي بُنِيَ ليكون مجمعا تجاريا يضم أكثر من عشر دكاكين فاستأجره الكُتُبِيُّ بكامله و حوله إلى مستودع للكتب و لا يزال فارغا ، بعدها اِفترقا فتوجه الكُتُبِيُّ إلى كُتُبِيَّتِهِ أما آدم فقصد البيت و في طريقه مَرَّ بمحاذاة دار السينما التي أُغلقت منذ عقود ، فوقف ينظر إلى مدخلها العتيق ذي الباب الخشبي من دفتين كبيرتين و قد تقشر دهانه الخشبي ذو اللون البني ، و في لوحة الاِعلانات بقيت مُزَقٌ من اِعلان آخر فيلم عُرِضَ فيها و هو للمخرج الإيطالي سرجيو ليون و الذي يُعَدُ نهاية ثلاثيته التي يُطْلَقُ عليها وَسْمُ (ثلاثية الرجل الذي لا اِسم له) أو (ثلاثية الدولارات) التي بدأها بفيلم (قبضة من الدولارات 1964) و ثَنَّاهَا و شَفَّعَهَا بفيلم (من أَجل المزيد من الدولارات 1965) و ثَلَّثَهَا بفيلم (الطيب و الشرس و القبيح 1966) هذه الثلاثية وَثَّقَتْ شهرةَ المخرج سرجيو ليون العالميةَ و كان كل فيلم منها أكثر نجاحا من سابقه ماليا و أكثر إنجازا تقنيا. بعد أن " سَخِرَ بعض النقاد من المخرج الاِيطالي الذي لا يستطيع التحدث باللغة الإنجليزية ، ولم يسبق له أن زار الولايات المتحدة ، ناهيك عن الغرب الأَمريكي القديم. لكنه بمفرده تقريبا اَعاد تعريف رؤية نموذجية لرعاة البقر الأَمريكان. وفقا لكتاب كريستوفر فرايلينغ الذي عنوانه (شيء للقيام به مع الموت)، عرف ليون الكثير عن الغرب الأمريكي القديم. فقد فتنه الغرب الأَمريكي كطفل ، وقد حمل هذا الاِعجاب معه في سن البلوغ ثم ظهر ذلك في أفلامه". كما يذكر موقع الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

في اليوم الخميس مساء اِتصل رضا بآدم و اَمده برقم هاتف والد اَجير شقيقه جمال فاتصل به آدم مباشرة و اتفق معه على موعد اللقاء ذلك المساء و مكان اللقاء ، و كان اَمام العمارة التي توجد بها الشقة و حيث زوده بعنوانها فتوجه آدم مباشرة إليها و بعد ساعة حظر المؤجر ، و هو شيخ طويل قد اِبيضّ شعره و ذو بشرة بيضاء و وجه نحيف و عينين خضراوين وضيقين بعض الشيء و شفتين بارزتين يعلوهما شارب قد اختلط سواده ببعض الشيب و قد انحنى ظهره قليلا ، و يعمل سائق سيارة أُجرة يملكها بين المحافضات ، و بعد أن اَلقى آدم نظرة فيها فوجدها شقة واسعة من اربع غرف واسعة مع منافعها من حمام و مطبخ ، فثلاث غرف متلاصقة على يمين الداخل تبدأ بغرفة المعيشة (الصالون) عند مدخل الباب ثم تتلوها غرفتان ، ثم تقابل الغرفة الاَخيرة غرفة اخرى – تطل نافذتها على ساحة الحي الكبيرة التي تتوسطها مساحة ترابية واسعة من المفروض أن تكون مساحة خضراء غير إنها تحتوي على بعض الشجيرات من اَنواع مختلفة اِنْتُقِيَتْ بعشوائية كما زرعت بعشوائية و مهملة لا يُعْتَنَى بها و قد تكسرت اَغسانها من طرف اطفال الحي ، و تتوسطها طريق معبدة تجعلها قسمين منفصلين — ثم يلي تلك الغرفة مرحاض و قد أُلصق به حمام و في ظهر الحمام بُنِيَ المطبخ الذي يقابل هو أيضا غرفة المعيشة ، كما زُوِّدَتْ كل من غرفة المعيشة و الغرفة الاَخيرة المقابلة للغرفة التي تطل نافذتها على ساحة الحي و المطبخ بشرفات صغيرة تتفاوت في المساحة ، و الشقة في الطابق الرابع من العمارة المكونة من خمسة طوابق في كل منها ثلاث شقق ، لكن موقع البيت في جهة جميلة حقا فهو في الطرف الجنوبي الغربي من المدينة ، حيث يبعد الحي عن وسط المدينة و الاَحياء القريبة منه حيث يكثر الضجيج و تطول فترة الحركة فيه فتصل إلى منتصف الليل و تزيد ، و من طبع آدم الميل إلى البيوت التي

تكون في الأحياء الهادئة ، و هو بيت معرض للشمس فأشِعتها لا تخطؤه طيلة النهار مما توفر فيها الدفء و النور ما دامت الشمس مشرقة ، و يطل على فضاء ممدود و خال من الأبنية تماما مما يسمح بِسَيَرَانِ الهواء إليه بسلاسة و عذوبة من غير حواجز ، و كما يساعد على بقاء الجو لطيفا و لو في فصل الصيف حيث تكون لياليه خالية من حشرات الصيف مثل البعوض ، و الذي ساعد في ذلك هو علو طابق الشقة مما يتيح لك اطلالة واسعة المدى على ارض زراعية تكسوها الخضرة ثلاثة أرباع العام ، و هو محمي من جانبيه — اليمين و اليسار – و من أعلاه بشقق مما تحميه من برودة الشتاء القارصة و رطوبة مطره و ثلجه و تسمح ببقاء البرودة فيه صيفا فلا تغزوه الحرارة الساقطة عليه مباشرة.

–كم إيجار البيت يا عم أحمد ؟.

–خمسة عشر ألف دينار للشهر على أن استلم أُجرة سنة كاملة سلفا غير منقوصة.

–إني وافقت على ذلك.

–و لا أُريد إزعاجات للجيران و فيما يخص البيت أن أستلمه كما سلمتك إياه فإن وقع أي تخريب فيه لزمك اصلاحه.

–أضمن لك ذلك يا عم أحمد و لكن ما سبب هذه التأكيدات و الشروط؟.

–إني أجرت البيت من قبل لأحدهم فَأَرْهَقَنِي تحصيل حقي منه كما أن شكوى الجيران من سوء تربية اولاده و من ضجيجهم تصلني تترى تتبع بعضها بعضا فطالبني بعضهم بطرده ، و و إني سلمته البيت جديدا كما استلمته و إنه أول من سكنه ، فانظر ماذا فعل قد كسر الأبواب و أتلف المصابيح حتى الحيطان لم تسلم ، مما زرع في نفسي الكره للمستأجرين و الريبة حين أُعاملهم ، و لولا تزكية رضا لك ما تجاسرت على تأجيركه.

سُرَّ آدم بهذه التزكية من طرف صديقه رضا.

–سترى مني و من عائلتي كل ما يسر خاطرك و قلبك.

–آمل ذلك يا بني و هذا ما أوده.

–إذن موعدنا بعد غد دكان جمال في الساعة الواحدة ظهرا فَأُسلمك أُجرة عام و تسلمني المفتاح.

–إن شاء الله. السلام عليكم.

–و عليكم السلام.

ثم فارق الشيخُ أَحمد آدم عند باب العمارة فركب سيارته و غادر ، أما آدم فقد اكتشف أن الشقة كانت في الحي نفسه الذي زاره الأُسبوع الماضي مع دَلَّالٍ اسمه عنتر ليُعَايِنَ فيه شقة أُخرى في عمارة من عماراته ، فاكتشف البيت صدفةً إنه ملك معلم له في المرحلة الإبتدائية فعرفه آدم حين رآه لأول وهلة لما إلتقى معه و الدلالُ حتى يُعَايِنَ البيت لكن المعلم لم يتعرف على آدم البتة ، و لم يُذَكِّرْهُ آدم بصلة الرحم التي بينهما و المتمثلة في صلة رحم العلم بين معلم و تلميذه و التي تكون إن صدقت بصلة الوالد مع ولده ، فإن كان الوالد هو الأَب البيولوجي للإِنسان فالمعلم الأَب الروحي له ، و كان المعلم مثل عادته لم يتغير فيه شيء و كأن الزمن لم يمر بجانبه ، مستقيم القامة ، ممشط و مدهون الشعر و اسوده ، و أَمرد الوجه من الحلاقة الجيدة له و كأن خده قطعة من قماش الحرير و ليس صفحة خد رجل قد بلغ سن الكهولة ، و رغم إنه رجل مَعْرُوقٌ فهو في صحة جيدة ، و نظيف الهندام جديده و لما تظهر عليه تعرجات الجلوس و المشي كأنه مكوي في هذه اللحظة رغم إن اللقاء قد تم مساء

بعد انتهاء دوام المعلمين ، فابتدر الدلالُ بالكلام حين نزل من السيارة بعد إن اتصل به مُعْلِمًا له بوصولهما :

-السلام عليكم يا معلم.

-و عليكم السلام.

ثم صعد الجميع للطابق الثاني وولجوا شقة المعلم و صحيح أن الشقة جُدِدَت و أُحسن تجديدها إلا أنها ضيقة عن شقة العم اَحمد بكثير بالرغم من وجودهما في حي واحد أما اطلالة شقة العم اَحمد فهي اَجمل بكثير من اِطلالة هذه.

-كم أُجرة الشقة يا معلم.

-اتفاقك مع عنتر و ليس معي.

و كأن نبرته تقول:

-لا تقترب مني هل تفهم ذلك؟.

هنا اِبتدر عنتر الدلال بالكلام

-هل عانيت الشقة جيدا.

-نعم.

-سنتكلم عن التفاصيل في الطريق.

-لك ذلك.

خرج الجميع – فركب المعلم سيارته و انطلق بعد أن جذبه الدلال عنتر و دار بينهما حديث .

-كم أُجرة الشقة يا عنتر.

–ستة عشر ألف دينار للشهر على أن تكون عاما كاملا يستلمها صاحبها سلفا و لي أُجرة شهر و عليك مصاريف المعاملات القانونية.

–ألا ترى ذلك كثيرا يا عنتر؟. فإن من يقصد الِاستئجار غالبا من حاله رقيقة ففوق الِايجار الباهظ كذلك تأخذ أنت أُجرة شهر كامل و يتحمل مصاريف الِاجراءات القانونية التي تكلف بضعة آلاف.

–هذه هي معاملات الِاستئجار في هذا الوقت و إننا نقطن مدينة تجارية يقصدها كل الناس للِاقامة فيها و...

–أعلم ذلك و لكن هذا لا يكون مبررا في اِبتزاز الناس...

–ابتزاز ! أَتسمي تقديم الخدمات بمقابل (اِبتزاز) ؟.

–نعم. و لا اِسمَ ثاني له فحين تُكْرِهُ الناس على شيء يسمى اِبتزازا أم تظن أن استئجار البيوت هواية يمارسها الفقراء و المساكين و رفاهية يستمتعون بها ؟. بل هم مضطرون لذلك و مجبرون ، و أنا أُذَكِرُكَ بها إن كنتَ ناسيا ، و إن هذا الطمع و الجشع من اصحاب البيوت اضطر بعض المحتاجين لكراء البيوت أن يرحل بأَهله بعيدا حتى يجد المأوى الذي يقدر على استئجاره ، أنا لا اَعرف الحساب و مسرف لا اقدر على أن أُوازن بين أُجرتي الشهرية و مصاريفي ، فإن كانت أُجرتي تُقَدَّرُ بثمانية عشر اَلف دينار فإذا استأجرت بستة عشر ألف دينار أَيمكن لثلاثة آلاف دينار أن تغطي حاجات العائلة الشهرية من اَكل و ماء و كهرباء و غاز ؟. و مع هذا لم نتطرق لِادخار بعض المال لأجل تصاريف الزمن من اَمراض و عُطَلٍ و تَبَطُّلٍ يُفْرَضُ على الِانسان فَرْضاً.

-إن كنتَ لا تقدر على الإستئجار فلا تستأجر ، و على كل حال فإنك عاينت الشقة و سمعتَ كلامي فانظر في رأيك ، و إن قررتَ فلا تطيل التفكير فإن الاستئجار يشهد اَزمة هذه السنوات الأخيرة ، فإن وجدت شقة فارغة فلا تكاد تستخير حتى تجد غيرك قد اَستأجرها و ظفر بها قبلك و بزيادة سعر عن الذي أُعْلِمْتَ به.

-سوف اَنظر في اَمري.

ثم أَتَمَ آدم كلامه بينه و بين نفسه:

-و إن كان الأمر لا يحتاج إلى تفكير بل إلى عصى موسى تقلب التراب ذهبا حتي يلبي طمعنا و جشعنا و هل يكفي ذلك ؟. صدق رسول الله — صلى الله عليه و سلم – حين قال : " لَوْ كانَ لِابْنِ آدَمَ وادِيانِ مِن مالٍ لابْتَغَى وادِيًا ثالِثًا ، ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلَّا التُّرابُ ، ويَتُوبُ اللَّهُ علَى مَن تابَ."

بعدما افترق مع الدلال تابع حديثه النفسي:

-أَلهذا لا نجد ثمرة علم معلمينا فينا ؟. فأين الصدق في معاملاتهم التي تخالف علمهم ؟. فهذا معلمي الذي علمني الرحمة بالآخرين و نجدتهم و تلبية الملهوف فها هو ذا اليوم يسلمني رغم حاجتي إليه إلى اِنسان قد قتل الطمع قلبه فلا يفرق بين المضطر و المُسْتَرْفِهِ؟. ما سبب هذا التضاد بين علم الإنسان و معاملاته ؟. أ هو من المنافسة على الدنيا التي تبدأ بالتفكير في حلاوتها ثم شيئا فشيئا يعلق هواها بِشَغَافِ القلوب حتى يُقْبَرَ الضمير الإنساني فيها مقتولا ؟. قال رسول الله – صلى الله عليه و سلم – : " فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا ، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ ". أَ لم ينتبه الدلال إلى الرسالة المبطنة التي يحملها

كلامه حين قال : " إن كنتَ لا تقدر على الإستئجار فلا تستأجر " ؟. و ما تحمله من وحشية القرون الأولى و ذلك حين كان العلماء على جلالة قدرهم يقسمون الناس على قسمين فالقسم الأول هم الملاك و المخدومون و الأسياد و لهم خُلِقَتْ الدنيا و وُجِدَتْ ، و إن القوانين رُسِمَتْ لتحفظهم و ذويهم و أملاكهم ، أما القسم الثاني فهم المملوكون و الخدام و العبيد و إنهم خلقوا لخدمة القسم الأول فقط لا غير و وُضِعَتْ القوانين و شُرِّعَتْ الحدود لتطبق عليهم فقط حتى (المدينة الفاضلة) لأفلاطون لم تخلو من هذا التقسيم الوحشي و الشنيع ، فببساطة كان علمهم يقول: " طبيعي الأمر فهذا سيد يحق له كل شيء أما هذا فهو عبد لا يستحق شيئا على تشابه العلل و الأسقام التي تصيب كلاهما فيحق للسيد حين يمرض أن يُخْدَمَ و يَسْتَطِبَ حتى يبرأ ، أما العبد فلا يحق له ذلك ، كما يحق للسيد أن يسكن في بيت يليق بالإنسان و أهله و ذريته ، أما العبد فإن لم يقدر على توفير السكن له و لأهله و ذريته فلا يحق لهم ذلك و الأمر طبيعي جدا ". أليس في هذا العلم نفاق و نصرة لبعض بني الإنسان – و هم الأسياد و الأغنياء – و ظلم لآخرين و هم الفقراء و المساكين ؟. قال رسول الله — صلى الله عليه و سلم – : " إنَّ أخوَفَ ما أخافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ."

بعد بضع أيام اتصل آدم بالكُتُبِيّ كما طلب منه فكان الهاتف مغلقا و في اليوم التالي أعادَ الكرة فكان الأمر كذلك ، و بعد يومين أعاد الكرة في العاشرة صباحا فرن الهاتف و فُتِحَ الخط

–السلام عليكم.

–و عليكم السلام.

-أنا آدم عبد القادر الذي زرتك في كُتُبِيَتِكَ من أكثر من أُسبوع اَبحث عن عمل و طلبتَ مني أن اَتصل بك و ها أنا ذا اَفعل ذلك ، إذا لم يكن اِتصالي في وقت فيه حرج لك.

-لا. لا يوجد حرج إن هاتفي كان مغلقا و فتحته هذا الصباح فإن كنت اتصلتَ من قبل و لم أرد عليك فذلك بسبب مرضي.

-هل نجحت العملية ؟.

-بإذن الله.

-لا بأس طَهُورٌ إن شاء الله.

-إن شاء الله. شكرا لك.

-لا أُريد أن أُطيل عليك و أُثقل ، هل اَستطيع أن اسمع ردك عن منصب العمل؟.

-زرني يوم السبت في الثامنة صباحا في الكُتُبِيَةِ سنتحدث عن الأمر.

-إن شاء الله. السلام عليكم.

-و عليكم السلام.

في يوم السبت صباحا توجه آدمُ للكُتُبِيَةِ و تَمَّ الموافقة عليه اَميناً لمخزن الكتب فاستلم مفاتيحه و توجه لعمله مع الكُتُبِيِّ مُحَمَّد ، و حين وصولهما للمستودع شرح له طبيعة عمله

-كما ترى المستودع فارغا من الكتب لكن من اليوم فصاعدا سيبدأ الموزعون بتفريغ طلبيات نطلبها منهم فيه ، و حين تستلم شحنة كتب من أي موزع كان ستستلم منه فاتورة الشحنة ، فعليك التأكد من سلامة الشحنة من التلف و موافقة العناوين و الكمية لما هو مذكور في الفاتورة ، و ما زاد أو نَقَصَ تستدركه في حاشية الفاتورة و أمام العنوان، ثم تستودع كل عنوان في غرفته المخصصة لذلك الفن ، أظن الأمر سهلا و مفهوما.

-نعم.

ثم غادر مُحَمَّد الكُتُبِيُّ و بعد ساعة وصل للمستودع أول موزع لِإحدى دور النشر و اسمه فضيل ، و هو رجل طويل و نحيف الجسم و الوجه يبرز أنفه نوعا ما و قد غطت وجهه لحية خفيفة مُعْتَنَى بحلاقتها جيدا و كأنها خُطَّتْ من مهندس ماهر ، و بعد أن أفرغ شحنة من العناوين سلم فاتورة لآدم ثم غادر ، و بعد أن فحص آدم الشحنة من التلف و تحقق من العناوين و الكمية و موافقتها للفاتورة رتب كل عنوان في غرفة تناسب نوع علمه و بعد مرور ساعة و نصف ورده اتصال من مُحَمَّد الكُتُبِيّ

-هل استلمتَ الشحنة ؟.

-نعم استلمتها.

-هل من نقص في الشحنة ؟.

-لا يوجد.

-طيب اِغلق المستودع و اَقْبِلْ إلى الكُتُبِيَةِ.

-حسنا.

اغلق آدم المستودع و توجه لِلْكُتُبِيَّةِ و حين ولجها أَلْفَى مُحَمَّد الكُتُبِيَّ و فضيل الموزع يتحدثان خلف المكتب و هما واقفان و إلى يسارهما قد جلس الشاب الهادئ اَمين الكُتُبِيَةِ و اسمه عبد اللطيف و حين شاهدا آدم مقبلا توقفا عن الحديث فقال مُحَمَّد الكُتُبِيُّ:

-هاه. هل اَتممتَ مهمتك الأُولى ؟.

-نعم.

-هل من نقص في الشحنة ؟.

-لا يوجد.

-بل فيها و هذا عنوان بكامل كميته قد اَفرغه الموزع هنا و هو مذكور في الفاتورة.

فاستغرب آدم هذا التصرف و استنكره و عَلَتْ وَجْهَهُ عَلَامَاتُهُمَا فلما قرأهما على وجهه مُحَمَّد الكُتُبِيُّ اَضَافَ قائلا:

-و هذا الِاختبار من بنات اَفكار فضيل و ليست من بناتي اَفكاري فَاَرَادَ به أن يبرهن لي على دقة انتباهك في عملك.

فزاد استغراب آدم إلى درجة الدهشة من تصرف اِنسان لا يعرفه اَبداً ، و كيف يعرض خدماته على اِنسان آخر بطريقة غريبة و غير مفهومة الهدف.!

-يا آدم ربما أُنْسُكَ بمجالس العلم و ثقافة اَهلها لمدة طويلة و عزلتك فيها اَنْسَتْكَ كيف يفكر الِانسان في سواد المجتمع فإني طلبتك لهذا الأمر فَعُدْ لمستودعك.

عاد آدم ادراجه و هو يحدث نفسه مستغربا و معاتبا:

-سبحان الله أَ يَحِلُّ هذا الأمر لِامْرِئٍ أن يمتحن اَجيرَ إِنسان آخر ؟. و ما سبب هذا الِاختبار الذي لا فائدة منه غير إنه تجسس و تتبع عورات و تفتيش عن بواطن الأُمور التي تزرع البُغْضَ الذي يجلب من ورائه الحسد و التنافس المذموم ؟. ألم يقل الله تعالى في كتابه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة الحجرات - 12]

أَلم يؤكد رسول الله – صلى الله عليه و سلم – هذا النهي بقوله – صلى الله عليه و سلم – : " إِيّاكُم وَالظّنّ. فَإِنّ الظّنّ أَكذَبُ الحَدِيثِ. وَلاَ تَحَسّسُوا، وَلاَ تَجَسّسُوا، وَلاَ تَنَافَسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا، عِبَادَ اللهِ إِخوَاناً."

إين إذن التغافل الذي يحبه الله و رسوله و يحبها الناس في اَخلاق الناس ؟. قال معاوية – ﷺ –: " العقل مِكْيالٌ، ثلثه فِطْنَةٌ، وثُلثاه تغافلٌ ". و قال اَكْثَمُ بنُ صَيْفِيٍّ حكيم العرب: " مَنْ شَدّدَ نَفَّرَ، وَمَنْ تَرَاخَى تَأَلّفَ، والشّرَفُ في التّغافُل ". قال الإمام الشافعي: " الكيس العاقل هو الفطن المتغافل."

ألم يمدح الله تبارك و تعالى خُلُقَ نَبِيّهِ – ﷺ – مع زوجه حفصة أم المؤمنين – ﷺ و عن اَبيها عمر – حين قال – في محكم تنزيله –: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3) ﴾ [سورة التحريم].

قال الحسن البصري : مَا اسْتَقْصَى كَرِيمٌ قَطُّ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ ، و إنهم زعموا هذا القول لسفيان بن عيينة و أي الرجلين قالها فهو حقيق بها و جدير و ذلك حين قال: " أبشروا ، فإنه ما استقصى كريم حقه قط ، أما سمعتَ قوله عَزَّ و جَلَّ : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾.. إلى قوله عز وجل: ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ ، فالله تبارك وتعالى اَكرم الاَكرمين ". و ذلك في معرض حديثه عن حديث رسول الله – صلى الله عليه و سلم –:" مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ ". فما اَعظم خلق التغافل.

ثم تذكر كلام مُحَمَّد الكُتُبِيّ حين قال:

–يا آدم ربما أُنْسُكَ بمجالس العلم و ثقافة اَهلها لمدة طويلة و عزلتك فيها اَنْسَتْكَ كيف يفكر الإنسان في سواد المجتمع.

فحدثته نفسه اللوامة قائلة:

–اَظُنُّهُ قد صدق في هذه الكلمة ألم يُثْبِتْ الله تبارك و تعالى قول المشركين من سادة قريش المكذبين لرسول الله – صلى الله عليه و سلم – في كتابه العزيز ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ [سورة الفرقان – 7] ؟. فمرادهم بقولهم هذا صرف الناس عن الإستماع له و اتباعه فإنهم يريدون رسولا ملكا كما يقول القرطبي في جامعه : " ما بالك و أنت رسول الله تأكل الطعام ، وتقف بالأسواق !. فعيروه بأكل الطعام ، لأنهم اَرادوا أن يكون الرسول ملكا ، و عيّروه بالمشي في الأسواق حين رأوا الأكاسرة و القياصرة و الملوك الجبابرة يترفعون عن الأسواق ، وكان عليه السلام يخالطهم في اَسواقهم ، ويأمرهم وينهاهم ، فقالوا : هذا يطلب أن يتملك علينا ، فما له يخالف سيرة الملوك " فرد الله على قولهم و ثبت قلب رسوله – صلى الله عليه و سلم – بقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [سورة الفرقان – 20] ، إذن كانت الأنبياء تخالط السواد الأعظم من المجتمع و عامته لا أن تضل بعيدة عنه معتكفة مع اَصفيائه و خاصته حتى إنهم يدخلون شر البقاع و اَبغض البلاد إلى الله كالأسواق مثلا لأن الناس فيها تتنافس على الدنيا ، و كل متعامل فيها يحرص على مصلحته فيها ، قال رسول الله – صلى الله عليه و سلم – " أَحَبُّ البِلَادِ إلى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَ أَبْغَضُ البِلَادِ إلى اللهِ أَسْوَاقُهَا " و تتعامل مع الناس فيها لكن مع هذا كان الأنبياء يحافظون على نقاوة قلوبهم و صفائهم

عن معكرات ذلك التعامل فإنه جاء في صفة خاتم الأنبياء عَنْ عطاء بن يسار حين قَالَ: " لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بنَ عَمْرِو بنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عنْهمَا، قُلتُ: أَخْبِرْنِي عن صِفَةِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في التَّوْرَاةِ، قالَ: أجَلْ؛ واللَّهِ إنَّه لَمَوْصُوفٌ في التَّوْرَاةِ ببَعْضِ صِفَتِهِ في القُرْآنِ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) ﴾ [سورة الأحزاب]، وحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أنْتَ عَبْدِي ورَسولِي، سَمَّيْتُكَ المَتَوَكِّلَ، ليسَ بفَظٍّ ولَا غَلِيظٍ، ولَا سَخَّابٍ في الأسْوَاقِ، ولَا يَدْفَعُ بالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، ولَكِنْ يَعْفُو ويَغْفِرُ، ولَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حتَّى يُقِيمَ به المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بأَنْ يَقولوا: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، و يَفْتَحُ بهَا أعْيُنًا عُمْيًا، و آذَانًا صُمًّا، و قُلُوبًا غُلْفًا."

هل يقدر ورثة نبي الله محمدٍ – صلى الله عليه و سلم كما زعموا هم و اتباعهم – في هذا العصر على مخالطة عامة الناس و العيش بينهم ؟. فلو فرضنا أحد هؤلاء المشايخ الذين غطت شهرتهم مشارق الأرض و مغاربها قد زار مدينة يغلب على سكانها الخشونة في المعاملة و بعد أن تجولها في سوقها و لما وصل عند بائعي السمك اَحس بالتعب و كان يريد أن يكمل جولته و يختمها بزيارة سوق ثان في المدينة فسأل عن خَطْ مِيكْرُوسرفيس يوصله للسوق الثاني فنصحه اَحدهم بالخط تسع و ثلاثين لكن لسوء الحظ و شاءت الأقدار أن يكون الوقت منتصف النهار مما يعني ذلك إن الزحام سيكون شديدا ، فتقدم الشيخ – حفظه الله و رعاه – ليركب فوجد ازدحاما على حافلات الخط ، مما يعني ذلك إنه إذا لم يزاحم بالمرافق لن يركب الحافلة ، فقال الشيخ – حفظه الله و رعاه:–

–عسى أن ينفرج الإزدحام في الحافلة الثانية.

لكن الأمر بلغ للحافلة العاشرة التي تَتَوَقَّفُ و تمتلئ و تنطلق و الشيخ من اَدبه و لطفه واقفا ينتظر الدَور الذي ما كان يأتي ليركب ، كما اكْتَشَفَ أن نساء المدينة النساءَ الفُضْلَيَاتِ

ينافسن رجالها على الركوب و لا يستحين من الدفع بالمرافق و المناكب ، لكن للشيخ مبادئ و قناعات لا و لَنْ يغيرها و أن (المعاملة مع الله) و (الدين المعاملة) و بعد طول انتظار متعب و مجهد و مقلق جاء الفرج فركب الشيخ بمشقة حافلة ، و ما إن جلس و اِمْتَلَأَتْ الحافلة صعدت عجوز محملة حِمْلاً ثقيلا فَبَادَرَ الشيخ – حفظه الله – لترك المكان للعجوز ، و ما هي إلا ثواني حتى لم يَبْقَ في الباص مكان لِإِصْبعِ قَدَمٍ تقف فيها فامتلأت بالنساء الواقفات ، فوقع الشيخ في حرج و اضطراب كبيرين و ما زاد في هذا الحرج و ذلك الاِضطراب هو بدانة الشيخ و قاطع تذاكر الحافلة الذي لم يترك موقفا لم يحمل منه ركابا اِضافيين ، فاصبحت الحافلة تشبه تلك السفن التي كان في القديم يُشْحَنُ فيها العبيد الذين يتم استرقاقهم في افريقيا إلى أُوروبا و اَمريكا ، و كلما توقف في موقف وقف في فراغ باب الحافلة من الأَمام ثم يقول:

–إرجع إلى الأَمام. إرجع إلى الأمام.

ثم ينزل و يطل برأسه من فراغ الباب الخلفي و يقول:

–إرجع إلى الأَمام. إرجع إلى الأَمام.

و ما على الراكبين من الأَمام و الخلف إلا المثول لأَمره ، و ما يزيد الحالة عسرا و شدة الطريق المكسرة الذي تسلكه الحافلة في خطها مما يجعل اَجساد الواقفين تَرْتَجُّ كأكياس البضائع الممتلئة و هي تخبط بعضها بعضا ، أما اَصحاب النية السيئة فترى الأَمر تحرشا صريحا فتبدأ العيون بالدوران في محاجرها و بالتلفت و النظر إلى الأَمام و الخلف هذا إذا لم يُتَهَمُ بالتحرش و طُلِبَ من الواقف المظنون فيه بالصوت الرعدي المنتشر في كامل الحافلة بِالاِبتعاد عنها و ترك مسافة بينهما — و التي هي مستحيلة في هذا الوضع – من اِحداهن ،

فإن استجاب المُخَاطَبُ لذلك الكلام و تقدم أو تقهقر أُنملة وقعت ردة فعل نفسها من اِحداهن أُخرى تقف اَمامه أو خلفه ، مما يولد في داخله اِحساسا بأنه جمل اَجرب ، فما وَصَلَ الشيخ إلى وجهته حتى تكسرت عظامه و اَصابه ارهاق و اِحباط شديد ، و اكتشف إنه ما شاهده في سفرته بالحافلة من هذا الخط الشعبي لم يأخذ من علمه شيئا ، السؤال : تُرَى لو نزل مشايخنا الفضلاء و خالطوا الناس و مَشَى اَحدهم في الاَسواق ، هل يتكلم اَحدهم بعدها بتلك المثالية التي يتكلم بها من قبل؟. هل مشايخنا في حديثهم حين يتكلمون يقصدون عصرنا الراهن أم لكل شيخ عَالَمٌ خَاصٌ مُتَخَيَّلٌ يتصور الواقع فيه ، ثم يستقي منه اَحكامه و دروسه ؟. تُرَى ما هي آخر مرة خالط أُولئك المشايخ حياة الناس العامة من عشرين سنة أم من اَربعين سنة ؟.

الفصل الثالث عشر

مُحَمَّد الكُتُبِيُّ من الرجال الذين تدور في نفوسهم حرب عظيمة بين الخير و الشر فأيهما فاز في معركة أو جولة كان ذلك الرجل مع إنه لا تنقصه الحيلة و لا يعكر تفكيره معكر ، و مع هذا ينجرف إلى خواطر نفسه العاتية اِنجرافا شديدا فيفقد معها زمام الأُمور فلا تهدأ نفسه مع خصمها حتى يسلم الخصم الراية أو يبتعد منهزما و على رغم طعم الفوز إلي حد النشوة فإنه يورد صاحبه المهالك ، و هو من هؤلاء الرجال الذين لو توفرت لهم البيئة المناسبة لكان من اَبرز الرجال و اكفئهم ، فلما غابت تلك البيئة المواتية توجهت نفسه للتدنيق و تتبع صغار الأُمور و توافهها ،و تشعبت نفسه في بُنَيَّاتِ الطريق إلى أن سرقت الغفلة عمره و ضاعت آماله التي كانت الاَيام مسرحا لها لو أعد لها عدتها ، فقد تربي فقيرا في حي شعبي ففي بداية شبابه كان من أُولئك الشباب المتحمسين للصحوة الاِسلامية ذات الفكر السياسي المتعقل بعد أن خالطهم في تخرجه في الجامعة الاِسلامية و لما يزال ذا حماس بعد تخرجه فيها غير أن جذوته ضعفت و فترت في نفسه ، ثم فتح الله عليه من فضله و سعته فصار ذلك التاجر الناجح في حياته و مع هذا تلتمس في تصرفاته النقائض و التضاد في أُسلوب معاملاته مع من يحيطون به ، كما يغلب عليه التنظير العنقائي أو من يبحث عن بيضة الديك ، و التفكير الذي إذا حاول تطبيق اَفكاره تعارض مع واقع لا يناسبه و حياة تميل إلى الفوضى عن أن تتجه لحياة ينظمها العلم و يؤطرها ، فعلى مستوى عمله فإنه حاول أن ينهج سير مؤسسات لا سير كُتُبِيَةٍ بمعناها التقليدي و على رغم مساعيه و جهوده و بذله المال إلا إن الواقع الفوضوي هو الذي فرض نفسه و باءت كل محاولاته بالفشل .

أما أمين كُتُبِيَتِهِ عبد اللطيف فهو اِنسان فاقد لشخصيته تماما ، فهي دائما تختبئ وراء رسوبيات شديدة فتحتاج إلى حفر و تنقيب شديدين حتى تظفر بها فعوضا من أن تكون تلك الشخصية عاملة عمل الجيوش و هي حراسة حدود الوطن و الذّود عن حياضه أي حامية له و لنفسه تختبئ هي وراء نفسه و تتجه إلى اَعماق داخله حيث تختبئ من المهاجم عليه ، و هذه الشخصية الرمادية تناسب جيدا أن تكون في خدمة شخصية مستبدة أو دكتاتورية مثل شخصية مُحَمَّد الكُتُبِيّ الذي اَعُدُه (أُنموذج دكتاتور قزم) فاسمحوا لي على تصغير و تقزيم تِنّينِكُمْ و طائر فينيقكم يا من تعشقون أُسطورة الدكتاتور.

عمل آدم لدى مُحَمَّد الكُتُبِيّ لبضعة اَشهر ثم استقال ، ثم عمل كَمُدَقِّقٍ في اِحدى دور النشر لمدة تصل إلى عامين حتى يظل في جو العلم و لا تسرق الحياة منه ما عزم أن يكونه ، و لا تحيد به عن طريق النور الذي اَحب سلوكه ثم قرر أن يستقل في عمله و لما كانت الكتب لها هوى في قلبه فكر في مشروع كُتُبِيَةٍ تُبْقِيهِ مشدودا إلى طريق النور ، و بعد دراسة المشروع وجد نفسه بحاجة لشريك يكون له عونا في العمل و رافدا ماليا فالمبلغ الذي بحوزته لا يغطي اِقامة ثلث مشروعه على اَقل ميزانية ممكنة ، و قبل هذا و ذاك يكون ذا خبرة لا بأس بها تسمح بالاِنطلاق بالمشرع على أُسس صحيحة فلم يتابدر إلى ذهنه شخص بهذه المواصفات غير عبد اللطيف الذي كان أمين كُتُبِيَةِ مُحَمَّد ثم استقال هو كذلك و لحق به في دار النشر التي يعمل بها آدم مُدَقِقًا في منصب محاسب الدار ، فحدث آدم نفسه قائلا:

–لما لا اعرض مشروعي على عبد اللطيف فإن وافق هَوَى في نفسه و كانت اَحواله المادية تسمح بدخوله شريكا لي تشاركنا ، و ليبارك الله في هذه الشراكة.

ثم ارتاحت نفسه لهذه الفكرة فعرضها على عبد اللطيف مساء ذلك اليوم بعد انتهاء دوامه:

–عبد اللطيف إني نويت أن أستقل في عمل أكون فيه رئيس نفسي و ما اجتهد في تحصيله و اتعب فيه يكون مردوده لي ، و إن نفسي تهوى التجارة و على رأسها تجارة الكتب فإني أعزم على فتح كُتُبِيَّةٍ ، لكن مشروعا كهذا في هذا العصر و في هذه المدينة التجارية التي يتنافس فيها كبار تجار البلد و ليس كبار المدينة وحدها على التجارة فيها ، جعل المشاريع على أقل ميزانية يمكن أن تنطلق بها هي ميزانية مكلفة و باهضة ، و إني ابحث عن شريك يسمح تمويله أن يقوي تمويلي للمشروع و يكمله ، و يكون لي عونا و سندا على إدارته و يجب أن تكون له خبرة تسمح بالإنطلاقة الصحيحة.

–جيد ما تقول فإن تكن صاحب عمل خير من أن تكون أجيرا عند أحدهم ، فأنت تملك أمرك حين أوقات عملك ، و ما تبذله من جهد يعود عليك ثمره فلا يذهب جله لغيرك ، و خير ما فكرت فيه هي التجارة فقد مدحها الله و باركها إِنْ صَدَقَ التاجر في تجارته عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالَ:" التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ."

–بأبي و أمي هو ﷺ.

–لكن هل و جدت شريكا لك ؟.

–الفكرة بنت اليوم و أول من تبادر لذهني و أحببت أن أطرح عليه الفكرة فإن وافق فَبِهَا و نعمت و إن رفضها بحثت عن خليفة له و شريك آخر ، و ذلك المتبادر هو أنت يا عبد اللطيف.

–أنا !. إنك فاجأتني بطلبك هذا يا آدم لكنه أعجبني ، فاترك لي أياما أُفكر فيها و سأُقرر و أُخبرك بقراري بعدها.

–لك ذلك يا عبد اللطيف.

باتت الأحلام و الأُمنيات تتقاذف فكر آدم و طمعه تلك الليلة إذا نجح مشروعه ، ثم تلت جلسات أُخرى بينه و بين عبد اللطيف في الأيام التالية حاول فيها اِقناع عبد اللطيف بفكرته و اخيرا وافق بالفكرة.

–حسنا يا عبد اللطيف ما هو رأس المال الذي تقدره و تراه يُمَكِّنُنَا من اِلانطلاق في مشروعنا ؟.

–لنقل ثلاثة ملايين...

–ماذا تقول يا رجل ؟. ذلك مبلغ كبير لا اَملكه و لا اَقدر على جمعه.

–صحيح هو مبلغ كبير لكنه اَقل رقم يسمح لنا بِاطلاق مشروعنا فنحن في مدينة تجارية تُعَدُ الاَغلى اِفريقيا في اِستئجار المستودعات و كرائها ، و التي تحول إلى دكاكين و متاجر و مكاتب و كُتُبِياتٍ ، أم تريد أن تفتح مشروعك في حي قَصِيٍ لا تتزاحم فيه الأقدام غير اَسواق الأحياء المعروفة و المشهورة في المدينة و خارجها ، فإن ثلث رأس المال يذهب في الإيجار وحده ، و نصف ثلثه يذهب في التجهيزات التي يقوم عليها المشروع ، فلا يبقى لنا إلا ثلث و نصف رأس المال أتظنه يكفي لاسترداد ما صرفته على الكراء و التجهيزات و يمدك فوق هذا بالربح؟.

–فما الحل إذن ؟. فهذا مبلغ لا اَقدر على توفير نصفه المطلوب مني.

–هناك حَلٌ آخر و هو زيادة شريك ثالث في المشروع ، فإنه سأل مشورتي و نصيحتي أحد الأشخاص منذ أيام في المشاريع التجارية التي يمكن له طرقها ، فإن له شقيقا مغتربا زوده بمبلغ من المال و طلب إليه أن يوظفه في التجارة.

–ألا ترى زيادةَ شريك ثالث في مشروع كُتُبِيَةٍ سابقا لأوانه ؟.

-لا مفر من هذا الشريك في حالنا التي لا نملك رأس مال كاف للاِنطلاق بمشروعنا .

-إذا كان لا بُدَّ من ذلك فلتكن شراكته تنحصر في رأس المال و في الربح أما اِدارة المشروع فتبقى مناصفة بيننا.

-موافق على ذلك.

و فعلا اتصل عبد اللطيف و آدم بالرجل و بعد مفاوضات معه دامت اَياما انسحب رافضا لفكرة المشاركة برأس المال فقط ، لكنهما عزما على الاِنطلاق في مشروعهما على قلة رأس المال.

-عبد اللطيف فكرة اِقامة مشروعنا حيث (تتزاحم الأَقدام) لا تتحقق إلا في الأَسواق المشهورة بالمدينة حيث يكون الكراء باهضا و مكلفا لنا و يستغرق اَغلب رأس مالنا.

-لا تناقشني في شرط (تزاحم الأَقدام) و بالخصوص مداخل الأَسواق فهي تناسب مشروعنا جيدا.

-إن كنت متأكدا من ذلك فليكن الأمر كما تخطط له ، لكن هذا لا يمنع من اِلقاء نظرة على بعض الأَحياء الشعبية الكبيرة في المدينة حيث الكراء يُعَدُّ منخفض التكلفة إذا قارناه بالاِستئجار في الأَسواق المشهورة ، و يكاد شرط (تزاحم الأقدام) يحصل فيها على درجة فوق المتوسط ، و لا بأس بها فشوراعها الرئيسية تعد اَسواقا هي كذلك ، و إن كانت اَسواقا ثانوية إذا قارناها بالأَسواق الكبيرة في المدينة -كذلك – ، و من بين هذه الأَحياء حي قوطالي فهو حي شعبي و كبير و يُعَدُّ شارعه الرئيسي سوقا تزدحم فيه الأَرجل و للعلم فلا منافس لنا إذا اَسَسْنَا كُتُبِيَتَنَا فيه ، و في حالة ما إذا اَوجسنا خيفة من الركود و الاِقبال علينا ندمج مع الكُتُبِيَةِ قِرْطَاسِيَةً وَ وَرَّاقَةً ، و مثل ما لكل عمل موسم فموسم القرطاسية و الوراقة

هو الدخول المدرسي ، و حينها يكفينا موسم القرطاسية لتغطية تكاليف المشروع إذا اَحْسنا استغلاله جيدا ، و قبل ذلك التحضير الجيد له من اِختيار الموقع المناسب لكُتُبِيَتِنَا و الاِشهار الجيد لها و بشكل كبير ، يقول اَحدهم – من اَصحاب العقول التجارية:–

–لو لي مئة ألف دولار لوظفتُ تسعين اَلف دولار للاِشهار للمشرع.

إذن الاِشهار حسب كلامه إذا صدق زعمه يكون تسعين بالمئة من المشروع ، و إني سبقتك إلى هناك و سألت عن مستودع للاِجار فوجدت اَحدها ، و بشروط ممتازة لمشروعنا حيث يتوسط الشارع الرئيسي و مساحته واسعة تسمح بعرض جيد لعناوين كثيرة من الكتب.

و على قدر ما كان آدم مستغرقا في اِقناع عبد اللطيف بفكرته كان الاَخير مستغرقا في تحليل كلامه لاِستثماره في شيء ما!. ثم قال عبد اللطيف:

–جيد ذلك فلنلقي نظرة و على فكرة فلي شقيقة تقيم بحي قوطالي.

–حقا.!

توجه آدم و عبد اللطيف للشارع الرئيسي لحي قوطالي و اَلقيا نظرة تفحص فيه.

–على كل حال هذا شهر رمضان على الاَبواب فَلْنُرْجِئْ مشروعنا بعده ثم نستأنف التخطيط له — إن شاء الله.–

–إن شاء الله على أن لا يطول الاَمر اكثر من ذلك ، فبعد شهر رمضان يكون فصل الصيف قد بلغ نصفه أو تجاوزه بقليل ، و بذلك يحاصرنا الوقت و لا يترك لنا الاِختيار المناسب للموقع ، أو الاِشهار الجيد لمشروعنا لتدارك موسم القرطاسية و الوراقة و فوق هذا كله سعة الوقت لشراء السلعة.

–فيما يخص جلب بضاعة الكتب فإني اَملك اَرقام الموزعين الخاصين بِاَغلب دور النشر من اَيام عملي أمين كُتُبِيَةِ مُحَمَّد الكُتُبِيّ ، و لي علاقة طيبة معهم فيمكن لنا الإِتصال بهم أما القرطاسية فيمكن الإِتصال بأحد زبائن مُحَمَّد الكُتُبِيّ – و لما احتفظ برقمه كذلك – و هو يُوَجِهُنَا.

–جيد ذلك فعلى بركة الله ، لكن هناك اَمرا لا بُدَّ من مناقشته الآن ما الإِسم الذي تقترحه لكُتُبِيَتِنَا ؟.

–لا بُدَّ أن يكون الإِسم شعبيا و متداولا عند الناس و قريبا من نفوسهم ؟.

–جميل ما ذكرتَ فما رأيك باسم (كُتُبِيَةُ الأمل العلمية) ؟. فهو اسم كالحجر الذي يصيب عصفورين بضربة واحدة ، فهو بالنسبة لنا أمل أن ينجح مشروعنا ، و للناس ممن يقصدون كُتُبِيَتَنا أمل لتفوقهم في طلب علمهم الذي يكون طريقا موصلا لإِهدافهم في حياتهم ، و هي كلمة طيبة تدل على الفأل لنا جميعا حتى للذين أو يقرؤون اسمها من المارين أو يسمعون بخبرها من البعيدين فَقَدْ قال رسول الله –ﷺ–: " لا عدوى وَ لَا طِيَرَةَ ، وَ يُعْجِبُنِي الفَأْلُ. قالوا: و ما الفأل؟. قال: الكلمة الطيّبة."

–كُتُبِيَةُ الأمل العلمية اسم جميل أنا أُوافق عليه.

الفصل الرابع عشر

بعد شهر رمضان اِنطلق الشريكان في التحضير لمشروعهما غير أن عبد اللطيف صمم على شرطه و هو أن يكون مقر الكُتُبِيَةِ أحد اَشهر الاَسواق في المدينة و كان له ذلك ، غير إن الاِستئجار اقتطع نصف رأس المال المقدر كامله بمليون و ستمئة ألف دينار ، فذهبت منه ثمانمئة ألف للكراء ، ثم اقتطع مئتي ألف للتجهيزات من رفوف للعرض و طابعة و مكتب ، أما الستمئة ألف دينار الباقية فلم تغطي إلا نفقة سلعة قليلة لا تكون كافية للاِنطلاق بالمشروع.

-لم يبق لدي حل يا آدم إلا إن اَتصل بالموزعين فيعطونا سلعتهم بشرط تأخير الدفع لكن هناك تَحَدٍ كبيرا اَمامنا.

-ما هو ؟.

-مُحَمَّد الكُتُبِيُّ.

-و ما شأنه في الاَمر ؟.

-مُحَمَّد الكُتُبِيُّ اَول ما فتح كُتُبِيَتَهُ قرر أن يحتكر سوق الجملة ففاوض الموزعين على أن يقبل كلَّ ما يوزعون من كمية في المدينة و يكون نقطة البيع الوحيدة فيها لمنتوجاتهم ، و اشترط عليهم في حال موافقتهم على الشرط أن لا يوزع اَحدهم و لو كتابا واحدا على غيره من الكُتُبِيينَ في المدينة فوافق الكثير و من بينهم اَشهر دارين للنشر و لهم عناوين مشهورة و مرغوبة بين طلبة المدارس و اَطوارها الدراسية ، أما اِحداها فإنها وافقت ثم وقع خصام بين مُحَمَّد الكُتُبِيّ و موزعيها فاتصل بالدار و اشترط عليهم موزعين غيرهم حتى يستمر في التعامل معها ، و لما كان اَحَدَ زبائنها الذين لا يُرَدُ لهم طلب كان له ذلك ، و استبدلتهم بموزعين

آخرين يتعاملون معه ، غير أن الموزعين القدماء استمروا في تمويل كُتُبِيَاتِ المدينة و بهما سأتصل و اَبدأ ، و سأُحاول مع موزعي اِحدى الدارين الذين يحتكر مُحَّد الكُتُبِيُّ سلعتهما أما الأُخرى فأنا متأكد بأن الأمر مستحيل لعدة اَسباب و منها شرط التعامل معها ، حيث تشترط أن تشتري من عندها كميات كبيرة نحن نعجز عليها في الوقت الحالي ، و مما احفظه من كلام مُحَّد الكُتُبِيّ بعد حديث طويل شرح لي فيه كيف يخطط لِاحتكار السوق قوله لي:

– أمطري أنى شئتِ، فسيأتيني خراجك.

فتبسم آدم و قال:

–أَتدري لمن هذه المقولة ؟.

–لا اَعلم لمن هي.!

–هذه مقولة مأثورة عن الخليفة العباسي هارون الرشيد و لها روايات عديدة خلاصتها إنه رفع رأسه يوما فرأى سحابة و قد تجاوزت بغداد فخاطبها قائلا: " أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك ". و في هذا المقام يقول الشاعر المصري محمود غنيم:

أَيْنَ الرَّشِيدُ وَ قَدْ طَافَ الْغَمَامُ بِهِ

فَحِينَ جَاوَزَ بَغْدَادًا تَحَدَّاهُ

–على كل حال نحاول استطاعتنا و ما فيه خير الله يقدمه لنا.

–من يتوكل على الله فهو حسبه و مولاه فحسبنا الله و نعم الوكيل.

اتصل عبد اللطيف ببعض موزعي دور النشر و إنهم اِستجابوا له و عرضوا مساعدتهم و من بينهم الفضيل الذي كان مُحَّد الكُتُبِيُّ يحتكر منتوجات دار نشرهم ، و في بداية سبتمبر 2015 انطلق المشروع و بعد مرور اَيام قليلة و بينما مُحَّد الكُتُبِيُّ في كُتُبِيَتِهِ دخلها أحد زبائنه

، و هو رجل طويل و صاحب ملامح جادة و شخصية خشنة لا يقدر كلامه بل يلقيه مباشرة من غير تمحيص له ، و إذا تكلم كانت نبرته عالية كمن يُسْمِعُ جيشا من و راء جبل بعيد .

-كيف حالك يا نجيب.

-من الله بألف خير.

-و من العباد ؟.

-و أي خير يقبل منهم ؟. غير إنهم يؤذونك و يجرون لك المتاعب و يصيبونك بالتوتر و الإضطراب.

-من ذا الذي اَغضبك؟.

-عبد اللطيف.

-عبد اللطيف!. اِنسان مسالم فكيف اَثار اَعصابك؟.

-أَلم يجد موقعا آخر ليفتح كُتُبِيَتَهُ فيه إلا موقعي و قريبا منى ؟.

لما سمع مُحَمَّد هذا الكلام تملكه شعور الدهشة و الفضول ، و اَصابته حالة مَنْ تنفجر بقربه قنبلة قوية و اَنقلب كله أُذُناً صاغية و قال:

-عبد اللطيف كُتُبِيَتَهُ بالقرب منك!. كُتُبِيَةٌ ماذا ؟.

-نعم. إنه فتح اَبواب كُتُبِيَتِهِ للزوار من قبل أول الشهر بأَيام قليلة ، و وردتني الاَخبار إنه يعزم على البيع بالجملة و التجزئة مما يعنى هذا التضييق علي و منافستي بالأَسعار ، هل هناك ما يسر في هذه الاَخبار ؟.

نزل الخبر كالصاعقة على رأس مُحَمَّد الكُتُبِيّ ، و جرى الشيطان منه مجرى الدم و أَلقى الشر في قلبه ، و بدأ يعض شفته السفلى عضا متواصلا من الغيض مثل عادته حين يغضب ، و أصابته التعاسة و اِحباط شديد يشبه اِحباط الملوك حين تَرِدُ اَحدهم خبر خيانة من يحيطون به له فقال بينه و بين نفسه :

–فعلها إذن و من أين له حتى ينُشئ مشروع كُتُبِيةٍ تبيع بالجملة و التجزئة ؟. أيريد أن يتحداني ؟. سنرى إذن من يفوز.

ثم خاطب نجيب الكُتُبِيَّ:

–لعل الكَتُبِيَةَ ملك لغيره و هو اَجير فيها.

–لا. هو صاحبها و أنا متأكد مما أُخبرك به.

–و من هي دور النشر التي يتعامل معها ؟.

–كلهم و إن بعضهم زوده بسلع و الباقي بعد اَيام قليلة كما اَخبرني ابني حين اَرسل اَحدهم ليأتيه بالخبر اليقين.

–ليس كلهم فبعضهم أنا في اِتفاق معهم ، و من بينهم الفضيل و لا اَتوقع منه الخيانة ؟.

–بل كان الفضيل من السباقين له و لاِمداده بها.

آلم الكلام مُحَمَّد الكُتُبِيَ و علت وجهه كآبة حادة و فجأة سال الدم من شفته السفلى من مكان العضة التي كان يضغط عليها بِنَابَيْهِ الاَيْسَرَينِ – السفلي و العلوي — في نهاية الطرف اليساري لشفته ، و حينها تقدم منه اَجير من أُجرائه ليستفسر عن مكان وضع كتاب جديد فانفجر فيه كبركان جبل فِيزُوفَ – الذي اَهلك سكان بومباي الاِيطالية في عام تسعة و سبعين بعد الميلاد على حين غرة من اَهلها فاَبادهم عن بكرة اَبيهم — قائلا:

–ضَعْهُ أَنَّى شئت و لا تسألني مرة أُخرى مثل هذه الأَسئلة التي لا فائدة منها فاذهب و قُمْ بعملك.

قضى مُحَمَّد الكُتُبِيُّ نهاره الباقي كئيبا يلتهب صدره بالكره للجميع و قد أعمى الغضب بصيرته فأين توجه بنظره رأى خيانة الجميع له ، أما ليلته فكانت طويلة جدا و كأن ظلمتها كسرت عصى الترحال و أبت المغادرة و قررت قرارها النهائي بالمكوث على صدره ، و أما النوم فإنه هجره و اقبل مكانه الأرق الشديد ، و أما قلبه فتحول إلى شعلة من الغضب لا تنطفئ .

–إذن أَيام عمله عندي كان يستغفلني و يدبر للأمر على نار هادئة من وراء ظهري فاتفق مع الجميع ، أولئك الذين لا كلمة شرف لهم و أَنَّى دارت مصلحتهم داروا معها حتى و لو على حساب مبادئهم ، و هو الآن يتحداني سيعرف ذلك القزم قَدْرَهُ و مكانته حين ينافس سيده .

بعد أيام جاءه الفضيل يزوده بطلبيته التي طلبها فاستقبله مُحَمَّد الكُتُبِيُّ بِاستقبال جاف و خُلُقٍ فَظٍ و غلظة الأعراب متضايقا من حظوره .

–هل سمعتَ أن عبد اللطيف فتح كُتُبِيَتَهُ ؟.

–نعم سمعت بذلك.

–و هل اتصل بك ؟.

–نعم اتصل بي من شهر و قد طلب طلبية.

–و هل زودته بها ؟.

–نعم و إني اِستحييتُ أن اَرده خائبا.

–و اتفاقنا ؟.

–قد قلتُ لك : إني استحيت أن أرده خائبا بعد توسله و استنجاده بي لِمَدِهِ بيد المساعدة ، على كل حال هي شحنة صغيرة تقدر بمئتي ألف دينار و ليست بتلك الكمية.

–و هل ستستمر بالتعامل معه ؟.

لما اَحس الفضيل ما في كلام مُحَمَّد من تهديد له من قطع التعامل معه في حالة ما اَستمر في تعامله مع عبد اللطيف قال:

–لا هذه المرة فقط و هي مساعدة صغيرة قدمتها له لا تؤثر على اتفاقنا و اَعمالك.

–و هل دفع حين استلم ؟.

–لم يدفع شيئا و لكن ترجاني أن اَمهله ثلاثة شهور ثم يقوم بالدفع ، فوافقت من باب المساعدة لا غير.

–آه. تُرى من أين له رأس المال ؟.

–لا اَملك علما لذلك.

بعد هذا الحديث حذر محمدُ الموزعَ الفضيلَ من نقض الاِتفاق بينهم مرة أُخرى أو من التعامل مع عبد اللطيف و إلا انسحب من التعامل معه ، و لما كان مُحَمَّد زبونا مُهِماً عند فضيل لا يُرَدُ له طلبا و لا يمكن لعبد اللطيف أن يقارن به و إن مصلحته اِقتضت ذلك اعتذر لمحمد من هذه السقطة التي لا تخرج عن دائرة الهفوات التي تعتري الإنسان بعض الاَحيان.

و في تلك الاَيام قصدت كُتُبِيَتَهُ اِحدى زبوناته ، و هي كُتُبِيَةٌ اَحس أنها سمعت بخبر كتبية عبد اللطيف فسألها.

–هل عندك خبر أن عبد اللطيف اِفتتح كتبية و عازم على البيع بالجملة و التجزئة ؟.

-نعم سمعت بها و إني زرته فيها ، و اجمل ما فيها هو معاملة شريكه الراقية حيث يستقبلك بابتسامته الطيبة و يحاول أن يكون سهلا معك و سمحا ، و هناك تناسب هارموني بينه و بين المكان فتحسه الرجل المناسب في المكان المناسب.

-و هل له شريك ؟.

-نعم إلا أن طريقة حديثه و لهجته لا تشبه طريقة حديثنا و لهجتنا.

-كأنك تُحَبِّذِينَ التعامل معه ؟.

-صدقت فالإنسان يميل للتعامل مع من يرتاح له ، و اَضف على ذلك قرب كُتُبِيَتِهِ من كُتُبِيَتِي فذلك يسهل الأمر و يختزل الوقت و يوفر الجهد.

لما سمع مُحَمَّد كلامها اِغتاظ و احتل صدرَه كرهٌ عظيمٌ لعبد اللطيف و شريكه بعد أن تجسس و تحسس الأَخبار و علم أنه آدم أجيره القديم كذلك ، فصار يراهما مثل ماكرين استغلا طيبته ليتفقا على سرقة اسرار مهنته و من يتعامل معهم و حتى زبائنه ، فلم يصبر حتى غَشِيَهُم ذات مساء في كُتُبِيَتِهما فلما شاهده عبد اللطيف اَصابه البكم و برزت عيناه و رجع إلى الخلف ، أما آدم فإنه غلبه الخجل و علت شفتيه اِبتسامته الطفولية غير الإرادية.

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام ورحمة الله و بركاته اَهلا و سهلا مُحَمَّد ، تفضل تفضل شَرُفْتَا بهذه الزيارة غير المتوقعة ، و غشيت نفوسنا المسرة بزيارتك ، هذا الكرسي تفضل بالجلوس.

-شكرا. لماذا وسمتماها بكُتُبِيَةِ الأمل لماذا لا تسمياها بكتبية التحدي ؟. كان ذلك اَفضل.

-لا تريد أن نتحدى اَحدا و لكن نأمل أن ينجح مشروعنا إن شاء الله.

ثم دارت اَحاديث جانبية لقتل الصمت و لِإبعاد اِكتشاف مُحَمَّد للدهشة التي اَصابت آدم و عبد اللطيف للزيارة المفاجئة التي قام بها ، و لمجرد بعث الأنس بعد الهجر الذي وقع بينهم ، ثم تلت زيارات أُخرى من طرف مُحَمَّد الكُتُبِيّ لكتبية الأمل و في نهاية اِحداها دعى عبد اللطيف لفنجان قهوة في المقهى فتبعه الاَخير من غير كلمة و قد توجس خيفة ، و بعد استقرارهما على كراسي اِحدى طاولات المقهى و طلبهم فنجاني قهوة ، و بعد اَحاديث جانبية خاض فيها مُحَمَّد تمهيدا للموضوع الاَساسي و الذي من اَجله دعاه لفنجان قهوة حتى يتفرد به ، فسأل محمدٌ عبدَ اللطيف اَسئلة من يناقش.

-فكرة الكُتُبِيَةِ هل كانت فكرتك ؟.

-بل هي فكرة آدم ؟.

-و رأس المال ؟.

-مناصفة بيننا.

-كم كلف المشروع ؟.

-مليون و ستمئة ألف.

-و من اَتصل بالموزعين.

-أنا من اِتصل بهم.

-إذن أنت من تكفل بالإيفاء لهم إذا حلت المواعيد.

-طبعا.

-و هل أنت قادر على ذلك؟.

فصمت عبد اللطيف و اَكمل مُحَمَّد كلامه :

-ألا ترى أن آدم دخل بكتفيه العريضتين فقط أما أنت فيقع عليك كل الحمل و مَنْ في الواجهة إذا حلت مواعيد تسديد الديون ، و هل تعرف آدم حق المعرفة ؟.

-اَعرفه معرفة سطحية و ليست بذلك العمق.

-و كيف تثق به إذن ؟. فإن شقيقي المقيم بالقرب من سكن والده اَخبرني عن شقيقه اللص ، فَاسأل عنه هناك و ستعلم بالاَخبار الصحيحة.

لما سمع عبد اللطيف هذا الخبر خنقه اليأس ، و أحس حاله كمن جمع كل ما يملك من ماله في حقيبة ثم رماها في النار ، و من يومها زاد الشرخ الذي حدث بينه و بين آدم منذ اِفتتاح الكتبية حيث بدأت الفتنة بينهما و زادها وساويس شياطين الجن و الإنس ، و بدأت ترد اَخبار مثالب كل واحد منهما للآخر ، و اَخبار الشريك لشريكه عن قصد و غير قصد مما وسع الشرخ بينهما ، و جعله هوة من غير جسور، ففي يوم من الاَيام في شهورهما الأُولى دخل الكُتُبِيَةَ أحد سكان حي قوطالي ممن حاول آدم الإستئجار عنده برفقة عبد اللطيف و كان دور آدم للاشراف عليها.

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته.

-هذا أنت هنا ؟.

-نعم.

-و هل افترقت مع شريكك ؟.

-لا. نحن لا زلنا شركاء و انت الآن في كُتُبِيَتِنَا.

-إذن فله كُتُبِيَتَانِ فهذه بالشراكة و الأُخرى بحي قوطالي.

فاستغرب آدم الكلام و الخبر.

-شريكي!. لا ليس الأمر كذلك فلا كتبية له غير هذه.

-يا رجل الأمر كما اَقول لك فإني اشتريت منه منذ أيام قاموسا مدرسيا لِابني و هو من قبض الثمن مني.

-حسنا ربما الأَمر كذلك و أنا لا اَدري به.

زادت حيرة آدم من هذا الكلام و ارتاب في الأمر فلما غادر الرجل جلس يفكر في هذا الكلام الخطير الذي ورده الآن صدفة و من غير أن يفتش عنه ، و تذكر هاتف صباح أحد الأَيام عندما رن هاتفه و وجد المتصل عبد اللطيف بعد إن استأذن و غادر منذ عشرين دقيقة تقريبا.

-سأغادر هنيهة ثم اَرجع.

-حسنا.

ففتح آدم الخط.

-ألو. ألو.

لكن عبد اللطيف لا يرد و سمع آدمُ حديثه مع امرأة و كأنهما في غرفة فارغة ، فظن أن عبد اللطيف قد اتصل و هو لا يشعر حين كان يحمل هاتفه ، ثم اقفل الهاتف لكنه استغرب كيف وصل لبيته بهذه السرعة !. و في مساء يوم التالي و حين خُلُوِ الكُتُبِيَةِ من الزبائن دارت اَحاديث جانبية بينهما عن مشروعهما و اَحلامهما فقال آدم:

-إني آمل أن ينجح مشروعنا بإذن الله و ساعتها نفتح فروعا اُخرى لكُتُبِيَتِنا فنضع على كل فرع مسؤولا و اَمينا من معارفنا ففي اِحداهما اُختكم مثلا.

فحين سمع عبد اللطيف هذا الكلام اتسعت حدقة عينيه البنيتين و اضطرب في جلوسه ، فَشَعَرَ آدم بذلك الإِضطراب الذي اَصاب عبد اللطيف فقال الأخير:

-إني أُختي وجدت عملا في مكتبة منذ يومين فقط.

فاستغرب آدم الخبر و كيف أن الجميع اَصابتهم عدوى مشروع فتح كُتُبِيَةٍ أَيضا أو العمل في إِحداها اَجيرا لما انطلقا في مشروعهما لكنه كتم استغرابه و لم يسأل عبد اللطيف عن سبب اضطرابه ، و ها هو اليوم يجد جوابا للأُمور فقال محدثا نفسه:

-إذن فالغرفة الفارغة التي كان عبد اللطيف يتحدث فيها مع امرأة هي الكُتُبِيةُ التي استأجرها ، و المرأة هي شقيقته ، و أما منصب العمل الذي اَخبرني عنه أن شقيقته وجدته في كُتُبِيَةِ اَحدهم فهو منصب أمين كُتُبِيَتِهِ ، و ما بقي علي إلا التأكد من الخبر.

و في تلك الأَيام و بينما هو أيضا في زمان إِشرافه على الكُتُبِيَةِ مَرَّ من اَمَامِهَا مُحَمَّد الكُتُبِيُّ مسرعا.

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته. تفضل يا مُحَمَّد.

-لا أنا في عجلة من أمري.

-أين صاحبك؟.

-هذا المساء دوري في الإِشراف على الكُتُبِيَةِ.

-يا رجل استدرك الأمر.

-في ماذا ؟.

-إن شريكك فتح من وراء ظهرك و من غفلتك كُتُبِيَةً و أنت لا تدري بما يدور حولك.

-إني اَحسستُ بذلك و ما العمل إلا عمل ربنا ، فحسبي الله و نعم الوكيل.

-تدارك الوضع و هي بحي قوطالي و الناس يقولون هي ملك شقيقته.

-ربما هي كذلك لكن المحزن في الأمر إني عرضت عليه الحي فشرط (تزاحم الأقدام) ، فجاء بنا لهذا المكان المكلف و الذي لا يليق بموقع لكُتُبِيَةٍ ، ثم رجع لذلك الحي و استأجر و فتح هناك واحدة أُخرى ؟.

جرى الشيطان من آدم مجرى الدم حين اَكد له مُحَمَّد الكُتُبِيَّ حقيقة الأمر و أن ما كان يشاع هو حقيقة مُرَّةٌ و لا مِرَاءَ فيها ، فبات في غيض شديد لا يعلمه إلا الله و قد هجره النوم و سيطر عليه الأرق ، و كان سميره في هذه الليلة اِبليس والد الشياطين بذاته.

-ماذا فعلتَ حتى تستحق هذا التصرف منه أَ لم تثق به و اعطيته الجمل بما حمل ، فإنك بعت سيارتك و جردت المسكينة من ذهبها - ذَهَبٌ واحد و عشرون قيراطا لا يوجد مثله بكل دكاكين الصاغة في المدينة و حتى المحافظة بكاملها ، إن لم أقل البلد كله - فاعطته لك و هي راضية ، فبعته بِرُخْصِ التراب حتى تَفِي له بما وعدته من نصف رأس مال المشروع ، سيذهب كل ذلك سُدًى و هكذا تخسر كل شيء.

-أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

-و ستثبت كلام من حولك عن فشلك و تشفي غليل الشامتين و الحاسدين لك ، و تصبح عبرة يضرب بها المثل ، و السبب هو عبد اللطيف ذلك الثعلب الماكر في جلد حمل وديع.

–أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أَأَقتل رجلا ؟. و أُضَيّعُ عائلتين فَلَنْ تجدا من يعولهما و يصبحون اَذلة مثل الكلاب ، و حينها نهرة للكلب و عشرة لهم ، و حينها أبوء بجهنم و بئس المصير و سوف أَحيا حياة تعيسة قبل ذلك المصير ، فما العمل إذن ؟.

–أتظن إنّك إذا واجهته بالحقيقة سيؤكدها بل سينكرها كعادته في النكران ، و ساعتها يطلب منك فك الشراكة ، ثم يتوجه لِكُتُبِيَتِهِ بما غنمه من سرقتك و غفلتك ، أما أنت فستخسر كل شيء، ما هذه الطيبة التي أنت فيها دائما ؟. و ما هذا الخسران الذي ترضى به دائما ؟.

–ما دام كل شيء باسمي سأَطرده طردة الكلاب و هكذا اَسترجع حقي منه ، أما ديوننا المشتركة مع الدائنين فليتحملها وحده ، ألم يبدأ بالشر؟. فليتحمل تبعة ذلك الأمر إذن. و لكن ماذا تقول الناس عني سأُؤكد بذلك ما يشاع عنا بأن عائلة مافوية بامتياز و مجموعة خالصة من الشر و النَصْبِ و السارقين ، و بهذا ساحمل العار لوالدي كذلك.

–هذا ما تفكره دائما و يحملك على الخسارة اَبدا ، ألا تذكر عبد الله ذلك المتنمر الذي فوق تنمره عليك لسنوات و صبرك عليه ، رماك بحجر قريبا ما اصاب مقتلا منك فلولا لطف الله بك لقتلك أو ذهب بنور عينك ، أُنظر لآثره و الذي لما يزال ظاهرا إلى الآن للعيان بوجهك و في خدك فكلما نظرت للمرآة تذكرته ، و أَلم يحتال على موزع البريد و انتزع منه دعوتك لحضور جلستكما في المحكمة ؟. و بذلك اسقط حقك ضده و الذي كان سيكلفه كثيرا و ذهب به ادراج الرياح رغم مسامحتك له ؟. هل تظنه يراك طيبا بل يرى نفسه ذكيا و يراك مغفلا.

إجتهد آدم في دفع ذلك الوسواس الذي اِسترسل في اشعال حقده في صدره على من ظلمه من قبل حتى صار ذلك الاِشعال حريقا كبيرا أتى على كل طيبة في قلبه ، فاطمأن و سكن لذلك الوسواس الذي استرسل في شره.

–هل تظن أن الناس وقافة عند مبادئها التي ترفع عقيرتها بالغناء بها في كل حين و تفتخر بها ؟. فإن اعتقدتَ بصحة ذاك فإنك طيب طيبة تبلغ الغفلة فمن الناس من له طبع العقرب في الشر و إن كان الشر في العقرب طبيعة لا تقدر هي عن تغييرها فاؤلئك الناس يملكون قلبا عاقلا يُمَيِّزُهُمْ عنها ، فيقدرون به أن يميزوا بين الخير و الشر ، و لكن أي طريق سلكت مصلحتهم حتى و لو كان طريق الشر و الظلام سلكوا ، و توجهوا فيه و لم يبالوا بالأمر و لو كانت مصلحتهم تجلب الظلم و الخسارة لغيرهم ، و هي عبارة عن شر خالص تقربهم من ابليس نفسه، و ما اكثر أُولئك الناس.

–صحيح و صدقت و ما أكثرهم أُولئك الناس.

–لكن للأسف شاع عن عائلتكم الشر – و الاِشاعة قادرة على الانتشار و الخلود و التصديق عن الحقيقة — و ما يتهمونكم الناس به و ينكرونه عليكم يفعله اكثرهم في الخفاء أو بوجوه أُخرى فما الفرق بين سرقة مال اَحدهم و الكلام عن عرضه ؟. أَلسيت كلاهما تلحق الضرر و الآلام به و الاِشاعات المنكرة و الهدامة و تنكد عيشه ؟. و ربما كان الكلام عن عرضه آثم و اكثر ضرارا من أن يُسْرَقَ ماله فربما ينسى هو أو يسامح من سرقه ، و لكن من ذا الذي يسامح من تكلم في عرضه و اَشاع عنه اَخبارا تسببت في هجران الناس له و أَدامت التعاسة في حياته و ربما اَدت للطلاق و إلى تفريق أُسرة كاملة و تشتيتها ؟. أَليست الغيبة و الحديث في اَعراض الناس فاكهة المجالس و السُمَّارِ و لا يطيب حديثهم إلا بهما ؟.

و العجيب في الأمر أنها تكثر مِنْ مَنْ يدّعون الصلاح و في مجالسهم بل هما وساوس قهري يصيب الكثير فلا يهدأ له بال و لا يتلذذ بالحديث و لا يلهج لسانه إلا بالغيبة و الكلام في اعراض الناس و كَيْلِ التُهَمَ لهم ، و كأنه خُلِقَ لمراقبة الناس و تتبع عثراتهم كما قيل لأحدهم:
-إن هاهنا في مجلسك علمك من يتتبع عثراتك و سقطاتك.
فقال:
-دَعْهُمْ فمثلهم كمثل الخنزير إذا رُمِيَ إليها الطعام الطيب عافته فإذا قام الإنسان عن رجيعه وَلَغَتْ فيه.
أو كما قال الراوي.
-صدقتَ في هذه أيضا ، و ما تعجب منه أكثر أن بعض من يكيل لك التُهَمَ من ساعدته ، أو دفعت عنه ظلما وقع أو سيقع عليه لولا وجودك بجنبه و مساعدتك له حتى الأنبياء لم تسلم من ذلك ، فهذا نبي الله موسى و كليمه عليه السلام قد اِبْتُلِيَ بهذا البلاء كما قَصَّ الله تبارك و تعالى عن ذلك في كتابه في سورة القصص:
﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (17) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ

نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) ﴾ [سورة القصص]

قال السُّدِّيُّ : " قَالَ مُوسَى لِلْإِسْرَائِيلِيِّ : (إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ) ثُمَّ أَقْبَلَ لِيَنْصُرَهُ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى مُوسَى قَدْ أَقْبَلَ نَحْوَهُ لِيَبْطِشَ بِالرَّجُلِ الَّذِي يُقَاتِلُ الْإِسْرَائِيلِيَّ ، (قَالَ) الْإِسْرَائِيلِيُّ ، وَفَرِقَ مَنْ مُوسَى أَنْ يَبْطِشَ بِهِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أَغْلَظَ لَهُ الْكَلَامَ: (يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَ مَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ) فَتَرَكَهُ مُوسَى".

لم ينم آدم ليلته و من وقتها حضر الشيطان و الإثم بينه و بين شريكه – و رجعت الكوابيس تسيطر على اَحلامه مرة أُخرى بعد أن هجرته زمنا طويلا ، ففي اِحداها حَلَمَ حلما قَضَّ مضجعه فَحَلَمَ أنه جالس في كُتُبِيَتِهِ وراء المكتب و شريكه عبد اللطيف يتعرض للضرب و الطعن القاتل من اَحد الموزعين و هو يصرخ و يطلب بالإيفاء بحقه و كلما حاول النهوض لنجدة شريكه لا يجد لذلك سبيلا و لا يقدر عليه ، و كأنه سُلِبَ من قوته و حركته و صار مَيْتاً يمكن له المشاهدة و لا يقدر على شيء آخر ، فاَفاق من نومه فزعا فَنَفَثَ على شماله ثلاث مرات و تعوذ من شرها ثم تحول عن جنبه الذي كان نائما عليه و أراد العودة إلى نومه فلم يقدر مع حاجته و حاجة جسمه له ليلتها . و في صباح اليوم التالي توجه لِكُتُبِيَتِهِ و بدأ يدقق النظر في تصرفات عبد اللطيف فَبَدَتْ غريبة له كلها فإنه يميل للصمت الطويل و لا يزيد شيئا عن السلام اَثناء دخوله في الصباح أو مغادرته في المساء على رغم الزمن الطويل الذي يجمعهم يوميا و الذي يبلغ الثماني ساعات أو يزيد قليلا ، كما

يميل لسماع المعلومات عن العمل و لا يتحدث اَبدا هو عما يعلمه عنه كما يحاول اِخفاء اَرقام الموزعين و لا يود اظهارها ، أما فواتير الشراء فلا يتركها في الكُتُبِيَةِ و يحاول التعتيم عن ذلك لأنه هو من يتكفل بشراء سلع الكُتُبِيةِ من الكتب و القرطاسية ، و كلما حاول آدم مد جسور التواصل مع عبد اللطيف قطعها الأخير بطريقة ما أو ميله للصمت الذي يقول:

-لو سمحت دعني و شأني فإني اَرغب في عدم الكلام فلا تحرجني بالحديث.

و رغم أن له اَولادا يدرسون فلا يقتني لهم من الكُتُبِيَةِ لوازم القرطاسية التي يحتاجون إليها في و كتبا تساعدهم على الدراسة بخلاف آدم الذي لا يكاد يمر يوما إلا حمل معه بعضها ، و كلما حاول آدم أن يُلَمِّحَ له عن كُتُبِيَتِهِ الأُخرى ظهر له أن عبد اللطيف يتهرب عن مصارحته و اَدعى عدم فهم فحوى الكلام.

-عبد اللطيف هل لديك ما تود أن تخبرني به ؟.

-أنا !. لا توجد اَخبار جديدة تستأهل الحديث عنها أو أظنها تستقطب اهتمامك ؟.

-طيب كما تريد.

الفصل الخامس عشر

في تلك الأيام تواتر كلام زبائن الكُتُبِيَةِ عن معاملة عبد اللطيف لهم في معاملات بيع و شراء في كُتُبِيَتِهِ الأُخرى ، مما حملت الأَخبارُ الهَمَّ الشديد لآدم و بدأت تسكن آثاره وجهه فقرأت زوجته ذلك الهم في وجهه حين يعود مساء من عمله ، و تصرفاته و سلوكه اللذين تغيرا كثيرا ، حتى إنه فشى خلق جديد لم تعهده في اَخلاقه و هو الغضب في معاملته لها و لِابنائهما.

–آدم ما لي أراك صِرْتَ مهموما كثيرا و حزينا طول الوقت ، و إنك هجرت لطفك معنا أنا و الأَولاد ؟. فتحدث فإن الحديث يخفف الآلام و يريح الأَعصاب أما كَتْمُ الهَمِّ فينغص الحياة و يقصر في العمر.

فنظر آدم لزوجته نظرة حزن ثم تنهد و قال:

–ماذا تودين أن أُخبرك به أن المشروع الذي كنت اَبني عليه آمالا كبيرة في نجاحي في طريقه للخسارة كقصر منيف من الخيال قد هوى أو الشريك الذي ظننته طيبا تبين ثعلبا ماكرا في جلد حمل ، و أمينا فظهر لا يملكها ، و ها هي ذي الأَخبار تتواتر عن اِفتتاحه لِكُتُبِيَتِهِ الأُخرى من سرقته لمشروعنا و بسبب غفلتي –كما اخبرني اَحدهم – ، فلو فعلتها أنا لقالت الناس:

–الأمر طبيعي فالعرق دساس و ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ﴾ [سورة يوسف: الآية 77] ". فلا اَملك من اَمري إلا أن اَمتثل بقول سيدنا يعقوب – عليه السلام – و صبره ﴿ وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [سورة يوسف : الآية 18]

-و نعم بالله ، طيب لماذا لا تواجهه بالأمر.

-إني حاولت ذلك مرارا و تكرارا من أول يوم منذ سماعي بالخبر ، فكلما حاولت أن أُلمح له عن الخبر تهرب من الإِجابة و مصارحتي بما يخفيه عني.

-لم اَقصد التلميح بل واجه بالخبر و اَبِنْهُ اِبَانَةً لا تحمل تأويلا آخر و واضحة كالشمس في رائعة الضُّحَى ، فربما التلميح يفيد مع بعض الناس و لا يناسب غيرهم و كما تقول: " فكلما لمحت له عن الخبر تهرب من الإِجابة و مصارحتك بما يخفيه عنك ". فما عليك إلا أن تواجهه.

-صدقتي و ذلك ما سافعله لكن إذا اَنكر لم يبق اَمامي غير الطرق الملتوية لآخذ حقي منه.

-ماذا تقول يا رجل ؟. فالدنيا لا تُغْنِي عن الآخرة فلا تُأَكِلْنَا أنا و اَولادك حراما فإنه سحق للبركة و نار في بطوننا و مَاحٍ لتوفيق الله لنا ، فكما ترى قد خسرتنا الحرب مستقبل حياتنا و اَعادتنا للصفر و كأنك يا أبو زيد ما غَزَيْتَ ، و لم نرجع منها إلا بِخُفَيْ حُنَيْنٍ ، فلم يبق لنا إلا الاستثمار في مستقبل ابنائنا فنجاحهم هو نجاح لنا ، و لن ترث من الطُرُقِ الملتوية إلا الفضيحة بين الناس و الإِشاعة اللتين لا تسقط بالتقادم ، فالمجتمعات العربية اَفضل حاضنة لبيضة الفضيحة و الإِشاعة ، و افضل راع لهما و الآعتناء بهما حتى يكبرا و يفرخا اَحسن تفريخ.

-صدقتي فإنه عان الكثير منهما حتى هجروا اَهلهم و مجتمعاتهم و اَوطانهم بسببهما ، و عاشوا حياة تعيسة أو عاشوا بين اَهلهم و في مجتمعاتهم و اوطانهم مطأطئي الرؤوس ، و في اَيديهم جامعة الذل تَغُلُّهَا إلى رقابهم ، و قد نبذهم الجميع بل اِمتد الأثر إلى اَهلهم و ذويهم كذلك من بعدهم و صاروا عِلْكَةً و لُبَاناً في افواه الناس يلكونها دوما و لا يملون منها ، و

كأن الفضيحة و الإِشاعة لعنة تصيب الجميع ، لكن خوفي من هذا الأمر قد خسرني الكثير ، فهذه المرة لا اَملك الشجاعة و الصبر على تقبلها و خاصة أنه يشوب الخسرانَ الشماتةُ فلا احتمل التفكير فيهما فما بالك أن اَتقبلهما.

-إني ذكرتك و حذرتك من عواقب الشر فأنت تملك نفسك في الخير أما في الشر فتصبح بيدقا في يد ابليس و ساعتها (كِشْ ملك) ، أما حقي و دَيْنِي فأُسامحك بهما و أنت تعلم أن المال آخر ما أُفكر به و إني ورثت هذا الطبع عن اَهلي فلا نقيم للمال وزنا ، فهو وسيلة جعلها الله نقصي بها مصالحنا ، فإن هلكنا لا نأخذ منه شيئا فأُذَكِرُكَ بحديث خير من ظُلِمَ فصبر ثم يعفو بعد ذلك حين يقدر يقول – صلى الله عليه و سلم – : " يَتْبَعُ الميِّتَ ثَلَاثٌ فَيَرجِعُ اِثْنَانِ و يَبْقَى واحِدٌ ، يَتْبَعُهُ أَهلُه وَ مَالُه و عَمَلُهُ ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَ مَالُهُ و يَبْقَى عَمَلُهُ ".

-سوف أُفكر في الأم رو ما فيه الخير يقدمه الله.

قي صباح اليوم التالي و حوالي الساعة العاشرة و بضع دقائق انتهز آدم اِنعدام الحركة في الكُتُبِيَةِ فكلم شريكه.

-عبد اللطيف أود الحديث معك في اَمر له وَقْرٌ في قلبي ، و إني زَوَّرْتُ كلامه في نفسي منذ مدة لكنني كتمته انتظر الفرصة المناسبة لِإفشائه لك ، و إنها حضرت.

-تفضل.

-هل تعمل في وقت فراغك في كُتُبِيَةٍ أُخرى غير كُتُبِيَتِنَا هذه ؟.

لما سمع عبد اللطيف هذا السؤال اتسع اِنسانا عينيه البنيتان و اضطرب ثم ابتسم اِبتسامة رقيقة مائلة ظهرت لآدم ماكرة.

-لا.

-عجيب الأمر فإن بعض زبائننا حدثوني عن معاملتك الحسنة لهم في في كُتُبِيَةٍ أُخرى.!

-حقا !. ربما شُبِّهَ لهم.

-ربما!. سامحني على اِدخال اَنفي فيما لا يعنيني.

-الأمر عادي عندي و طبيعي.

-الكُتُبِيَةُ التي تعمل بها أُختك بحي قوطالي من يملكها ؟.

-هي ملك اَحدهم و شقيقتي مجرد اَجيرة فيها.

-اِذن أنت تساعدها في وقت فراغك ؟.

-و ما دخلي أنا في الموضوع ؟.

ثم صمت الاِثنان و استرسلا في حديث نفسي ، أما آدم فلم يبق لديه شك أن ما قاله الناس لا ريب فيه و أن عبد اللطيف يخفي أُمورا عنه ، و في نهاية الأُسبوع و في مساء يوم الخميس و حوالي الساعة الثالثة و النصف اِستأذن منه بعد أن رجع عبد اللطيف من شراء بعض السلع من القرطاسية.

-اَرجو أن تسمح لي بالمغادرة فإني أُريد اقتناء بعض الحاجيات الضرورية للبيت من السوق.

-حسنا فلتذهب اِذن.

-اَشكرك على تعاونك معي.

توجه آدم للسوق و بعد اقتناء الحاجيات استقل حافلة متوجها لبيته و كان خط الحافلة يمر بالقرب من كُتُبِيَتِهِمَا ، فلما مرت كانت الساعة الخامسة و هي توقيت اِغلاق الكُتُبِيَةِ اليومي فشاهد عبد اللطيف يحمل كيسا اَسودا فحدث آدم نفسه:

–ها هو ذا عبد اللطيف يُخْرِجُ كيس المخلفات فشكرا له و إن لم يكن من عادته هذا التفاعل.

و في صباح يوم السبت لما فتح الكُتُبِيَةَ اكتشف أن كيس المخلفات لما يزال في دلو القمامة مثل ما تركه ، فتعجب آدم و قال:

–لا يمكن أن عبد اللطيف غَيَّرَ عادته و حمل لأحد ابنائه لوحة مثلا أو سجلا هو بحاجة إليه.

ثم وقعت عينه على فاتورة المشتريات و قد نُسِّيَ عبد اللطيف أن يأخذها ، فقابل آدم بين السلع و الكمية المثبتة عليها و وجودها كاملة في المحل فاكتشف نقصا في السلعة ، ثم راجع سجل المبيعات لعلها بيعت فلم يجد لها أثرا فيه فحدث نفسه:

–ها هي ذي الحقيقة تتكشف لي واضحة ، إن عبد اللطيف لا يملك ذرة للأمانة ، و إني إنْ تغافلتُ أكثر من ذلك فسأخسر كل شيء ، سَيَرَى ذلك الثعلب الماكر مني ما يسوؤه و سأقص بيدي هذه ذيله الذي يحركه اثناء مكره.

و حوالي الساعة التاسعة دخل عبد اللطيف و عينيه الماكرتين تدور في حدقتيهما و هو يخفي خوفه و يحاول ستر اضطرابه كما ظهر لآدم.

–السلام عليكم.

–و عليكم السلام . عبد اللطيف هل بعت سلعا و نُسِّيتَ أن تثبتها في سجل البيع ؟.

–كأنني سجلت كل ما بعته.

–إني أجد نقصا في السلعة التي جلبتها يوم الخميس.

–حقا.!

و بعد أن نبه آدم على النقائص من السلعة التزم عبد اللطيف الصمت كعادته و لم يصرح ببيعها أو ينكر ذلك.

-عبد اللطيف آن الوقت أن أتولى أنا عملية الشراء.

-و أنا ما دوري إذا أنت توليت عملية الشراء ؟.

-أن تدير الكُتُبِيَةَ اَثناء غيابي و فيما يخص الفواتير القديمة أرجو أن تعيدها للكُتُبِيَةِ غدا.

-ما هذا التصرف الغريب ؟. ألا تثق بي ؟.

-قد حضر الشيطان و الإثم بيني و بينك و لا أُريد أن اَسوء الظن بك فقد قال أبو العالية : "كُنَّا نُؤْمَرُ أَنْ نَخْتِمَ عَلَى الْخَادِمِ وَ نَكِيلَ وَ نَعُدَّهَا، كَرَاهِيَةَ أَنْ يَتَعَوَّدُوا خُلُقَ سُوءٍ ، أَوْ يَظُنَّ أَحَدُنَا ظَنَّ سُوءٍ."

-لم اَفهم منك شيئا و من هو أبي العالية ؟.

-سأكتفي بقول أبو بكر بن أبي داود في بيان قدر أبي العالية و ذلك حين يقول: " ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية، وبعده سعيد بن جبير ، وبعده السُدِّيُّ ، و بعده سفيان الثوري."

-إذن أنت تراني خادما و لستُ شريكا. أليس كذلك؟.

-إنك جانبت الصواب في فهمك لكلامي و إنما قَصَدْتُ باستشهادي بكلام أبي العالية أن ادفع سوء الظن بينك و بيني فمن بركة التجارة و الشراكة فيها صدق الطرفين و أنا أُريد أن أُحافظ عليها.

فصمت عبد اللطيف كعادته و صباح الغد اَعاد الفواتير القديمة ، ثم تولى آدم شراء سلع الكُتُبِيَةِ و الذي اكتشف من خلال عملية البيع أن عبد اللطيف يشتري السلع باسعار

مرتفعة فيها غُبْنٌ لهما و وَكْسٌ ، لكن سوء الظن و التسرع في التَبَيُّنِ في الأمر أظهر لآدم أن عبدَ اللطيف يشتري السلع ثم يعيد بيعها لِلْكُتْبِيَةِ ، فعاد إليها في أول عملية شراء مُغَاضِبًا و عزم أن لا يكتم غيضه هذه المرة ، فبمجرد أن ولجها و نظر في عبد اللطيف حتى انفجر في وجهه عاذلا:

-بالله عليك أن تخبرني عن السوق التي كنت تجلب لنا البضائع منها حتى اَزورها فكل البضائع التي كنت تجلبها غالية الثمن بخلاف ما عرفته اليوم ، ألم تقل:

-إن سِرَّ التجارة في الشراء.

فأين غاب عنك هذا القانون و الشرط المهم اَثناء جلبك للسلعة مرارا و تكرار و كل هذه الأيام و الشهور أما الأمر غير هذا ، فقد اتعبني شأنك فصرت لا اَثِقُ بك لا في خارج الكُتُبِيَةِ و لا في داخلها ، فإن اَرسلتك للشراء شككتُ في اَمرك و إن تركتك فالأمر كذلك.

مال عبد اللطيف للصمت كعادته و في صباح اليوم الثاني غاب و لم يحضر ، و في حوالي الساعة العاشرة دخل اِبنه الأكبر مسعود يلهث:

-عمي آدم أبي يستنجدك.

-ما به ؟. ماذا يضره؟.

-لا ندري فقد عاد البارحة مساء في حالة يرثى لها ، و إن حالته زادت تقهقرا هذا الصباح ، مما استدعى الأمر تدخل طبيب ، فاَستأجرت سيارة حملتنا إلى عيادة الدكتورة عُلَيَةٍ.

-و أين هو الآن ؟.

-بالقرب من عيادة الدكتورة عُلَيَةٍ واقع على الأرض و لا يقدر على التنفس.

لما سمع آدم هذا الكلام زاد نبض قلبه و تسارع جريان دمه و فتح الجحيم بابه في وجهه ، فشاهد هوله و تغشاه لهيبه فقال في نفسه:

-ما كنت اَخشاه قد وقع و إني قتلت الرجل بكلامي السام الذي وجهته له ، ما نفع المال لقاتل نفس ؟.

و تذكر حديث رسول الله – صلى الله عليه و سلم -: " إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوانِ اللَّهِ تَعالى مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بلَغَتْ يكْتُبُ اللَّه لَهُ بهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِنْ سَخَطِ اللَّه مَا كَانَ يظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بلَغَتْ يكْتُبُ اللَّه لَهُ بهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يلْقَاهُ " و قوله – صلى الله عليه و سلم في رواية أُخرى – أيضا : " إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالى مَا يُلقِي لهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّه بهَا دَرَجاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعالى لا يُلْقي لهَا بَالًا يهوِي بهَا في جَهَنَّم."

فقال في نفسه:

-أظنني ذلك العبد صاحب الكلمة التي من سخط الله تعالى ، و إنها ورثتني سخطه تعالى إلى يوم القيامة ثم تهوي بي في جهنم سبعين خريفا كما اخبر النبي – صلى الله عليه و سلم – : " إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ."

ثم اغلق الكُتُبِيَةَ و توجه مع مسعود مهرولا لنجدة عبد اللطيف فرآه من بعيد مستلقيا على الرصيف فاقدا لقواه ، فلما اِقترب منه شاهده يتنفس بصعوبة شديدة فحمله بسرعة و صعد به درج العمارة ثم دخل عيادة الدكتورة عُلَيَّةٍ التي فحصته بسرعة ثم حولته على الاِستعجالات لاِجراء بعض التحليلات كما طلبت صور اَشعة فاستأجر آدم سيارة و توجه به للاستعجالات ، و اثناء وجودهم هناك استقرت حالة عبد اللطيف نوعا ما ، فاغتنم آدم

الفرصة و سأله عن سبب تدهور حالته المفاجئة ، فانفجرت عيني عبد اللطيف بالدموع و قال:

-أَتخوّنني يا آدم و أنا الأمين على مالك قبل مالي ؟.

-أنا لم أُخوّنك بل تحدثت عن تقصيرك في الحيلة لنا و تدبر اَمرنا.

-و ماذا قصدت بقولك: " فقد اتعبني شأنك فصرت لا اَثِقُ بك لا في خارج الكُتُبِيَةِ و لا في داخلها فإن اَرسلتك للشراء شككتُ في اَمرك و إن تركتك فالأمر كذلك " ؟.

فَأُرْتِجَ على آدم و لم يدر ماذا يقول فالتزم الصمت قليلا و هو ينظر في عيني عبد اللطيف الدامعتين ثم قال:

-عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْ تلك الأَيام.

ثم جاء طلب نقله إلى مشفى المحافظة من ادارة المشفى اتعطل آلة التصوير بالأَشعة ، فاستأجر له سيارة حملته مع والده و شقيقته إليه و اعتذر منهم قبلها ثم غادر في طريقه للكُتُبِيَةِ ، و إنه استبشع فعله و كلامه مع عبد اللطيف و اَستنكره ، فطبعه الدائم اللطف يأبى هذا التصرف و يراه همجيا و فَضًا ، و لا يصدر إلا من غليظ القلب ، فعاتب نفسه و تذكر تعاسته منذ أن فتح الكُتُبِيَةَ ، و تذكر حديث رسول الله – صلى الله عليه و سلم – و اختبر صدق كلامه اَثناء ادارته لهه ، و ذلك حين قال – صلى الله عليه و سلم –: " تَعِسَ عبدُ الدِّينَارِ، وَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، و إنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَ انْتَكَسَ، وإذَا شِيكَ فلا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بعِنَانِ فَرَسِهِ في سَبيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةً قَدَمَاهُ، إنْ كانَ في الحِرَاسَةِ، كانَ في الحِرَاسَةِ، وإنْ كانَ في السَّاقَةِ كانَ في السَّاقَةِ، إنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ له، وإنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ ". فقال:

–لِمَ حِدْتُ عن طريق النور الذي عَزَمْتُ سلوكه أول ما وقر الإيمان في قلبي و أنار الله به صدري لما صادفتني أَوَّلُ بُنَيَّةٍ من بُنَيَّاتِ الطريق ، و إنّي علمتُ و تحققت من أن حكمة وجودنا في هذه الدنيا هي عبادة الله تعالى و اجتهاد الإنسان في رفع منزلته عنده عَزَّوجَلَّ و التقرب منه فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58) ﴾ [سورة الذاريات] ، و لما كان الإنسان كثير النسيان إذا طال الأمد و بَعُدَ الزمن و هو طبع بشري ورثه عن ابيه آدم ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) ﴾ [سورة طه] أمر الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – بكثرة التذكير لعباد الله بالله تعالى فقال : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55) ﴾ [سورة الذاريات] ، و الذكر لا يكون إلا لعهد نسيه الإنسان أو ذكرى وقعت و غابت عن باله ، و حتى لا ينسى الإنسان حكمة وجوده في هذه الدنيا حُبِّبَ التَذْكِيرُ ، و لا توجد رياضة تقوي الذاكرة مثل الإكثار من ذكر الله تعالى بينه و بين نفسه و مع الآخرين فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43) ﴾ [سورة الأحزاب] ، و من رحمة الله بالإنسان إذا ذكره كان معه اقوى من حضور الله في نفسه ، فيقولُ اللَّهُ تَعالَى: " أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، و أنا معهُ إذا ذَكَرَنِي، فإنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ منهمْ، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ بشِبْرٍ

تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِراعًا، وإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِراعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ باعًا، وإِنْ أتانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً ". أما إذا نسي أن يذكر الله و عهده و تاقت نفسه للدنيا ابتلاه بها و آتاه منها لا كلها ، و لا يبالي به في أي طريق شر هلك ، بخلاف إذا ابتغى اللهَ و الآخرةَ آتاه من توفيقه و سدّد خطاه و ثبّته و زاده في عمله الأُخروي و بارك له فيه و هذا من لطفه و رحمته بالإنسان : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20) ﴾ [سورة الشورى]

كم جميل أن يكون الإنسان راضيا و قانعا بما قسمه الله تعالى له و متوكلا عليه ؟. فمن توكل على الله حق توكله كان قائده و وَلِيَّهُ في الحياة . و هل هناك اَعلم بالدنيا من الله ؟. أليس هو القائل في الحديث القدسي الذي انبأنا به النبي – ﷺ – ، فقال – ﷺ –: " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَا ابْنَ آدَمَ ! تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى ، وَ أَسُدَّ فَقْرَكَ ، وَ إِلاَّ تَفْعَلْ مَلَأْتُ يَدَيْكَ شُغْلاً ، وَ لَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ ". سبحان الله !. لما نويت وجه الله و رضاه بِنِيَّةٍ صافية وفقني لعبادته و هيأ لي كل شيء من طريق طلب علمه الموصل إليه ، و بِطَانَةٍ صالحة تعينني على تلك العبادة ، و اسكنني بأرض لا اِثم لي بها تذكرني بِقَاعُهَا به و تشدني إليه ، و تنشط الشر فِيَ و تُقَوِّيهِ ، و هي لي كلؤلؤة طبيعية صافية أو ورقة من اوراق زهر الياسمين الذي يكثر فيها ، فحيث اَنظر اَرى البياض الذي لا تشوبه ظلمة دنس ذنوبي ، أو صفحة بيضاء يكتب عليها مجد خالص و كمال من غير نقصان و سلاما من الفتنة ، و هي أرض محشر يوم القيامة فرغب الصالحين في سكناها منذ القديم ، فلن أُبالغ حين اَقول هي البلد و المصر الذي تساوى فيها سكانها من الأحياء و الأموات ، حيث تضم تربتها بين اَجساد

شهداء و رُفَاةِ صحابة رسول الله – ﷺ – و علماء و زهاد و خلفاء و ملوك و أُمراء و أُدباء و شعراء منذ فجر التاريخ بل التاريخ ينطلق منها ، و إن كان أبو العلاء المعري قصد الأرض كلها فقد ترجمته هي حقيقة ، و ذلك حين قال:

صَاحِ هَذِي قُبُورُنا تَمْلأ الرُّحْ

بَ فأينَ القُبُورُ مِنْ عَهدِ عادِ

خَفّفِ الوَطْء ما أظُنّ أدِيمَ ال

أرْضِ إلاّ مِنْ هَذِهِ الأجْسادِ

وقَبيحٌ بنَا وإنْ قَدُمَ العَهْ

دُ هَوَانُ الآبَاءِ والأجْدادِ

سِرْ إنِ اسْطَعتَ في الهَوَاءِ رُوَيداً

لا الخْتِيالاً عَلى رُفَاتِ العِبادِ

رُبّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِراراً

ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الأضْدادِ

وَدَفِينٍ عَلى بَقايا دَفِينٍ

في طَوِيلِ الأزْمانِ وَالآباءِ

أما جبل قاسيون فكان الدمشقيون يسمونه جبل الصالحين نسبة لمنطقة الصالحية بعد أن سكن فيها المقادسة المهاجرون من فلسطين اثناء الحروب الصليبية إلى دمشق ، فخافوا أن يُضَيِّقُوا على اَهلها معيشتهم فخرجوا شمالا إلى جبل قاسيون و اِستوطنوا منطقة منه و بالقرب

من جامع اَبي صالح فسُمِيَ الجبل باسمهم الصالحية ، و للعلامة اَبي عبد الله شمس الدين محمّد بن علي بن طولون الدمشقي الصالحي كتاب قيم في تاريخها وَسَمَهُ (القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحيّة)

و قد زعموا : " أن الشامي قديما كان إذا اَراد الخروج من دمشق القديمة من داخل السور متجها شمالا نحو جبل قاسيون و وصل إلى بوابة الصالحية خلع نعليه و مشى حافيا اِكراما للصالحين الساكنين في هذا الجبل و تبركا واعتقادا بصلاحهم."

أليست هذه دمشق التي تغزل بها نزار قباني في غربته مشتاقا اِليها في قصيدة و التي حُلِّيَتْ (القصيدة الدمشقية) ؟:

هذي دمشقُ و هذي الكأسُ والرّاحُ

إنّي أحبُّ وبعضُ الحبِّ ذبّاحُ

أنا الدمشقيُّ لو شرّحتمُ جسدي

لسالَ منهُ عناقيدٌ وتفّاحُ

لو فتحتُم شراييني بمديتكم

سمعتمُ في دمي أصواتَ من راحوا

زراعةُ القلبِ تشفي بعضَ من عشقوا

و ما لقلبي إذا أحببتُ جرّاحُ

ألا تزال بخير دار فاطمة

فالنهد مستنفر و الكحل صبّاح

ان النبيذ هنا نار معطرة

فهل عيون نساء الشام أقداح

مآذنُ الشّامِ تبكي إذ تعانقني

وللمآذنِ كالأشجارِ أرواحُ

للياسمينِ حقولٌ في منازلنا

وقطّةُ البيتِ تغفو حيثُ ترتاحُ

طاحونةُ البنِّ جزءٌ من طفولتنا

فكيفَ أنسى وعطرُ الهيلِ فوّاحُ

هذا مكانُ أبي المعتزِّ منتظرٌ

ووجهُ فائزةٍ حلوٌ و لماحُ

هنا جذوري هنا قلبي هنا لغتي

ثم اكرمني الله بزوجة و اَهلها الذين كانوا و لما يزالون نِعْمَ العوض عما هجرته من قَبْلُ ، فَلَمْ تأب نفسي غير الدنيا و بُنيات الطريق الموصلة للجحيم ، فَهَا أنا ذا اَجري فيها جري الوحوش و لم اَنَلْ منها غير ما قُسِمَ لي منها ، و إني ورثت التعاسة من ذلك. عجيب أمري و أنا اذكر كلما قرأت سورة الكهف كيف اَجد نفسي في قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) ﴾ [سورة الذريات] !. لماذا لم أُحافظ على ذلك الوجود ؟. كما اذكر كيف علقت حكمة ابن عطاء الله السَكَنْدَرِي الثانية " إرادَتُكَ التَّجْريدَ – مَعَ إقامَةِ اللهِ إيّاكَ في الأسْبابِ – مِنَ الشَّهْوَةِ الخَفيَّةِ، وإرادَتُكَ الأَسْبابَ – مَعَ إقامَةِ اللهِ إيّاكَ فِي التَّجْريدِ – انْحِطاطٌ عَنِ الهِمَّةِ العَلِيَّةِ ". دون غيرها من حكمه الجليلة رغم فهمي الدنيوي للحكمة ، حيث فهمت منها آنذاك إذا كُلِّفْتَ بشيء من اعمال دنياك فاشتغل بها و اِذا سخر الله لك الغنى فلا تتعب نفسك بمشقة العمل ، كما اذكر ابتسام نبيل من هذا الفهم السقيم لكلام العلماء و تبيينه الوافي لأسرار معناها و ذلك حين قال لي:

–ليس المراد ما فهمته منها فإنك جانبت الصواب و اِنما الكلام موجه بلغة القوم – و قصدت بهم (الصُوفِيةَ) – و معانيهم فالتجريد كما يقول ابن عَجِيبَةٍ الحسني — في كتاب (إيقاظ الهمم في شرح الحكم ابن عطاء الله السكندري) –: " و أما عند الصوفية فهو على ثلاثة أقسام تجرد الظاهر فقط ، أو الباطن فقط ، أو هما معاً ، فتجريد الظاهر هو ترك الأسباب الدنيوية ، و خرق العوائد الجسمانية ، و التجريد الباطني

هو ترك العلائق النفسانية و العوائق الوهمية ، و تجريدهما معاً هو ترك العلائق الباطنية و العوائد الجسمانية ، أو تقول: تجريد الظاهر هو ترك كل ما يشغل الجوارح عن طاعة الله ، و تجريد الباطن هو ترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله ، و تجريدهما هو اِفراد القلب و القالب لله ، و التجريد الكامل في الظاهر هو ترك الأسباب و تعرية البدن من معتاد الثياب ، و في الباطن هو تجريد القلب من كل وصف ذميم ، و تحليته بكل وصف كريم."

أما الأَسباب عندهم فكما يقول ابن عَبَّاد النَّفَزِي الرُّنْدِي – في كتاب (غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية) –: " الأسباب ها هنا عبارة عما يُتَوَصَّلُ به إلى غرض ما يُنَالُ في الدنيا ، و التجريد عبارة عن عدم تشاغله بتلك الأسباب ، لأجل ذلك فمن اَقامه الحق تعالى في الأَسباب و اَراد الخروج منها فذلك من شهوته الخفية ، و اِنما كانت من الشهوة لعدم وقوفه مع مراد الله تعالى به ، و اِرادته هو خلاف ذلك ، و إنما كانت خفية لأنه لم يقصد بذلك نيل حظ عاجل ، و اِنما قصد بذلك التقرب إلى الله تعالى بكونه على حال هي اَعلى بزعمه ، لكن فاته الأَدب بعدم وقوفه مع مراد الله تعالى من اِقامته اِياه فيما اَقامه فيه و تطلعه إلى مقام رفيع لا يليق به في الوقت ، و علامة اِقامته اِياه في الأَسباب أن يدوم له ذلك ، و أن تحصل له ثمرته و نتيجته ، و ذلك بأن يجد عند تشاغله بالأَسباب سلامة في دينه ، و قطعا لمطمعه عن غيره ، و حسن نيته في صلة الرحم ، أو اِعانة فقير مُعْدَمٍ ، إلى غير ذلك من فوائد المال المتعلقة بالدين ، و من اَقامه الحق الله تعالى في التجريد ، و اَراد الخروج منه اِلى الأَسباب فذلك من انحطاط همته و سوء اَدبه ، و كان واقفا مع شهوته الجلية

، لأن التجريد مقام رفيع اَقام الحقُّ فيه خواصّ عباده من الموحدين و العارفين . فإذا اَقامه الحق تعالى في مقام الخواص فَلِمَ ينحط عن رتبتهم إلى منازل اَهل الاِنتقاص ؟."

و قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي : " آداب الفقير المتجرد أربعة الحرمة للاَكابر ، و الرحمة للاَصاغر ، و الاِنصاف من نفسك ، و عدم الاِنتصار لها. وآداب الفقير المتسبب اَربعة موالاة الاَبرار ، و مجانية الفجار ، و إيقاع الصلاة في الجماعة ، و مواساة الفقراء و المساكين بما يفتح عليه."

ثم استشهد بقول الشاعر أبِي اِسماعيل الحسين بن علي الدؤلي الكناني و المعروف بالطُّغْرَائِي في قصيدته لامية العجم حين يقول:

قَدْ رَشَّحُوكَ لِأَمْرٍ إِنْ فَطِنْتَ لَهُ

فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرْعَى مَعَ الهَمَلِ

ثم اَضاف:

–و من اشهر و اَوفى من شرح الحكم العطائية الفقيه المالكي صاحب الشروح المعتمدة عند المالكية اَبو العباس اَحمد بن اَحمد بن مُحَمَّد البرنسي الفاسي المشهور بالشيخ زرّوق و المعروف بمحتسب الصوفية ، و هو من اشهر علماء نصف القرن الثاني للقرن التاسع الهجري و الخامس عشر ميلادي ، و المتوفى عام تسع و تسعين و ثمانمئة للهجرة ، و له شروح عديدة و كثيرة للحِكَمِ العطائية اِخْتُلِفَ في ضبط عددها بين الثمانية عشر و نَيِّفٍ و ثلاثين شرحا ما بين مُطَوَّلٍ و مختصر كما اِخْتَلَفُوا في ضبط ما اكمل في شرحه لها ما بين ثمانية عشر و نيف و عشرين شرحا كاملا.

فويل نفسي إن كانت من النفوس التي يصدق فيها قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَ إِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) ﴾ [سورة الزمر] ، فيا نفسُ توبي و انيبي إلى ربك و اَسْلِمِي و تذكري قوله تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (59) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (63) ﴾ [سورة الزمر].

الفصل السادس عشر

غاب عبد اللطيف بِضْعَةَ اَيام عن الكُتُبِيَةِ مشتكيا علّته و قد غَشِيَ آدمَ في يوم منها مُحَمَّد الكُتُبِيَ

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته. تفضل يا مُحَمَّد بالجلوس

فجلس مُحَمَّد و سأل:

-أين صاحبك ؟.

-إنه غائب منذ اَيام.

-مما يشتكي ؟.

-في مساء اَحد الاَيام الماضية اختلفتُ معه و اَظن أني بالغتُ قليلا و كلمته بكلام فَضٍ ثم افترقنا دون أي تراض عن اختلافنا ، و في صباح اليوم الثاني فاجئني ابنه البكر مسعود يستنجد لِإسعاف والده فهرولت إليه فَاَلْفَيْتُهُ خائر القوة مستلقيا على الرصيف ضيق الصدر حرجا يعاني صعوبة في التنفس و قد علا شهيقه و زفيره كمن يتنفس في رأس جبل شاهق و يكاد يغمى عليه ، فحملته للطبيبة القلبية التي كان قاصدا إليها قبل أن تَخُورَ قوته ، و بعد أن اَلقت عليه نظرة و جست نبضه طلبت اَشعة و تحليلات فتوجهت به لقسم الاستعجالات حيث حول لمشفى المحافظة لتعطل آلة الأشعة بالقسم ، فنقله والده إليه و من ساعتها لم اَرَهُ و لم اَجرأ على الاتصال به هاتفيا ، فإني اَظن أن اتصالي به سيزيد الأمر توترا فتركته عسى أن يطيب خلال بضعة اَيام ، ثم إن لم يحضر سوف اتصل به حينها.

-تلك حالة تصيبه كل فترة من الزمن و ليست اَول مرة هي.

–لكني اَول مرة أُشاهد منظرا بهذه الفضاعة و قد عذلت نفسي كثيرا بعد أن علمت أَني المذنب ، فاَحسست نفسي مثل شقي قوم صالح قاتل الناقة ، و حمدت الله أنه لم يهلك بسبب حماقتي ، و تسرعي في اتخاذ القرارات و الحكم على الآخرين منطلقا من سوء ظني بهم.

–و لماذا تظن أن حكمك عليه منطلق من سوء ظنك ، و هل تظن أن صفحة نظيفة بين الناس ، فله معي تصرفات تجرح عدالته عندي ، فإني ضبطته مرة يصادق على اَوراق تخصه بختمي الخاص ، كما أن الشيخ خالد و الذي عملتما عنده معا قد لاحظ منه ما يخدش عدالته و يجرحها كذلك ، فإنه ضبطه مرة ينقل ملفات و برامج تخص عمله فاَسأله إن شئت.

–لي علم بها إنه اخبرني بالحادثة منذ الآيام الأُولى من شراكتي مع عبد اللطيف و حذرني منه.

ثم تنهد آدم و صمت و استرسل مُحَمَّد الكُتُبِيُ بكلام اظلم صدر آدم منه ، فقاطعه قائلا

–فما العمل ؟. إن القلوب مضغة متقلبه و هي أمام الأَخبار المنكرة التي تردها كأنها قطعة حديد إذا كانت تحت رشح ماء يقطر قطرة قطرة عليها ، فكلما قطرت قطرة أُشْرِبَهَا الحديد و نكتت فيه نكتة سوداء حتى ران عليه السواد ، و غدى صدأ اَسْوَدَ مُرْبَادًّا ، فالقلوب تشبه الحجر الاسود الذي عرفنا رسول الله – صلى الله عليه و سلم – حقيقته فقال – صلى الله عليه و سلم –: " نَزَلَ الحَجَرُ الأَسْوَدُ مِنَ الجَنَّةِ ، وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ ، فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ ". و في رواية :" الْحَجَرُ الأَسْوَدُ مِنَ الْجَنَّةِ، وكان أَشَدَّ بَيَاضاً مِنَ الثَّلْجِ، حَتَّى سَوَّدَتْهُ خَطَايَا أَهْلِ الشِّرْكِ."

أليست كذلك ؟. فقارن بينه و بين القلوب ففي حديث حذيفة بن اليمان – رضي الله عنهما – قال: " سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وَ أَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَ الْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَ لَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ."

إن القلوب في اَصل الفطرة طاهرة و بيضاء كالثلج و اللبن ، فتعترضها الفتن و لا تتركها (حتَّى تَصِيرَ علَى قَلْبَيْنِ) ، فالأول يبقى على الفطرة (علَى أبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرْضُ) أَيْ مثل بياض حجر الصفا الذي لا يتغير لونه اَبدا بسبب ملاسته الشديدة التي لا تسمح لأي شيء أن يعلق به ، و لشدته أي قوته على عقد الإيمان و سلامته من الخلل ، و شِدَّةِ قوته و صلابته التي اكتسبها من الفطرة السليمة التي انعقدت فيه فلن تنحل اَبدا و اِذن (فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرْضُ) و بالتالي لا يتأثر ، اَما القلب الآخر فيتغير و يتغير حتى يغدوا اسود (مُرْبادًّا كالْكُوزِ مُجْخِيًّا) أي كالاِبريق مائلا منكوسا ، فلا يستوعب شيئا من العلم سكب فيه و لا يثبت فيه شيء و لا يستقر فـ (لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ).

ثم خاضوا في حديث جانبي و بعد يومين عاد عبد اللطيف ففرح آدم لما رآه و قد عادت إليه صحته و عافيته و بنفس مطمئنة قد اقبل.

–السلام عليكم.

–و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته . حمدا لله على سلامتك.

-شكرا لك.

ثم دار الحديث عن العمل و الكُتُبِيَةِ و ادراتها في ايام غيابه ثم تطرق للشاغل الكبير الذي يشغل تفكيرهما معا و يوحدهما فيه

-آدم ألا ترى قلة الإِقبال علينا ؟.

-اعذرني فلا استطيع أن أُجيبك عن سؤالك هذا فإن مشروعنا لما يَتَعَدَّ شهره الثالث بل نحن في غُرَّته و في اَوائل اَيامه ، و اَضف إلى ذلك خبرتي المعدومة في هذا العمل الذي ينعدم معها العلم المكتسب من خوض الإِنسان تجربة عمل تورثه صنعة و ملكة يقدر بهما أن يسبر الأُمور و يختبرها ، و يستشرف المستقبل من خلال النظر في مقدماتها ، و اَظنها بصعة شهور للحكم على نجاح مشروعنا أو فشله بل الذي يترجح لي أن المشروع سائر في طريقه الطبيعي ، هل هناك ما يثير مخاوفك ؟.

-نعم قلة الإِقبال الذي...

-اسمح لي أن أُقاطعك و أُذكرك ، فإن قِلّةَ الإِقبال ربما يرجع لعمر مشروعنا الطفولي فهو في بداية شهره الثالث -كما قلت آنفا - فكيف تتوقع من طفل رضيع غِمْرٍ أن يعمل عمل الرجل البالغ المحنك ؟. فالأمر يحتاج للتَّصَبُّرِ و ترقب ممزوج بالأمل عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا اَيَّامًا خَيْرًا مِّنْهَا ، فاستعن بالله و لا تيأس.

-و نِعْمَ بالله لكن الدائنين لا يفهمون هذا المنطق ، فإذا حَلَّ الأجل طالبونا بأَموالهم باخلاق الأعراب و لم يبالوا بظروفنا ، و الحق اَقول: " هم معذورون فهكذا تُدَارُ التجارة."

-أعذرني فهذه ليست اَخلاق التاجر الصَدُوقِ الذي اَخبرنا رسول الله - صلى الله عليه و سلم – بِحِلْيَتِهِ و للبخاري في كتاب البيوع من صحيحه باب سماه (باب: السهولة و

السماحة في الشراء و البيع، ومن طلب حقا فليطلبه في عفاف) – و هذه الأبواب و التراجم لحالها يعدها الفقهاء و العلماء فقها و علما يستفيضون و يبسطون الكلام في شرحها و تبيين فوائدها و فرائدها ، فقالوا قولتهم الشهيرة التي سارت مَسْرَى المَثَلِ كما يقول الدكتور علي بن عبد الله الزبن : " إن فقه البخاري في تراجمه، بل إن تراجمه – رحمه الله تعالى – درر غاص عليها في بحر علمه ، ثم قذف بها في بحر كتابه الصحيح". و هنالك من الأَئمة الأَجلاء من اعتنى بها و اَفردها بتأليف لوحدها فمن ذلك كتاب (المتواري على تراجم البخاري) لابن المُنَيِّرِ السكندري المتوفى عام ثلاثة و ثمانين وستمئة للهجرة ، و (ترجمان التراجم) لابن رشيد المتوفى عام اِحدى و عشرين و سبعمائة للهجرة ، و (مناسبات تراجم البخاري) لبدر الدين بن جماعة المتوفى عام ثلاثة و ثلاثين و سبعمئة للهجرة – ثم افرد — رحمه الله و رضي عنه — هذا الباب بحديث نبوي شريف تبين اخلاق التاجر الصدوق و تُحَلِّيهِ و هو قول رسول الله — ﷺ – : " رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَ إِذَا اشْتَرَى وَ إِذَا اقْتَضَى ". و قال مسلم –في صحيحه – قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " تَلَقَّتْ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَقَالُوا: أَعَمِلْتَ مِنْ الْخَيْرِ شَيْئًا ؟. قَالَ: لَا. قَالُوا: تَذَكَّرْ. قَالَ: كُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ ، فَآمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا الْمُعْسِرَ ، وَ يَتَجَوَّزُوا عَنْ الْمُوسِرِ. قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: تَجَوَّزُوا عَنْهُ ". و في المقابل أُمِرَ المَدِينُ بتسديد دينه فقال رسول — ﷺ –: " مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ ". و في حديث آخر قال رسول الله — صلى الله عليه و سلم –: " يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ."

–للأسف هذه هي اَخلاق التجار شئنا أم اَبَيْنَا ، فإنهم إن تساهلوا اَفلسوا و لا بُدَّ من الوفاء بوعدنا لهم ، فإننا طلبنا مساعدتهم فقدموها لنا و ما علينا إلا الايفاء لهم ، و مواعيد

آجال ديونهم التي ندين بها لهم قد استهلت ، فما ترى إلا شاحناتهم و قد توقفت عند بابنا يطلبون حقوقهم.

-صدقت و هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟. و أنا أشد على يديك فابدأ بتسديد ديوننا فنحن محقوقون لهم و خليق أن نفي بها.

-فَلِمَنْ نفي و من نعجل و من نؤجل ؟. فالكل سيطلب أن يكون أول من به نبدأ.

-عندي رأي ربما يكون فيه الحل.

-من فضلك أخبرني به بسرعة.

-قسم المال لأجزاء معلومة بحيث تستوعب الجميع ، و سلم كل واحد منهم جزء ، فتعبر بذلك عن حسن نيتك في تسديد الدَّيْنِ ، و باقي دين كل واحد منهم يؤجل قليلا على أن يقدم لهم في حصص حتى يكمل النِصَابُ ، و بذلك نتعدى خطر الإفلاس و لا نؤلب علينا الموزعين و نضمن استمرار تعاملهم معنا.

-ماذا تقول يا رجل ؟. فمن قواعد التعامل في التجارة (تدفع الدَيْنَ القديم حتى يحل لك الدين الجديد) ، و أما ما تقوله لا يتطابق أبدا مع قواعد التجارة ، و لا تنس فإنهم تعاملوا معنا بالجملة و ليس بنصف الجملة ، و ما تقوله يضر مصلحتهم و لا يخدمها أبدا.

-إذن فلنوفي لإثنين منهم هذه المرة و الشهر القادم لغيرهما حتى ننتهي من الجميع.

-المال الذي معنا لا يكفي لذلك ، و سير البيع بهذا السير لا يستوعب ما تفضلت به من الرأي.

-ألا تكفي مليون دينار التي جمعناها خلال هذين الشهرين للإيفاء لدائنين لنا ؟.

-أين هذا المليون الذي تتكلم عنه؟.

-ماذا تقول يا رجل ؟. ألست اَمين صندوقنا ؟.

-بلى.

-إذن اِرجع لسجل المبيعات ستجد أن مبيعاتنا تعدت المليون دينار خلال هذين الشهرين.

-لكن مجموع المبالغ المثبتة بسجل المبيعات ليس كلها فائدة خالصة و صافية ، بل ما تبقى من رأس مالنا بعد الكراء و شراء المعدات يدور في عملية الشراء و البيع ، فيتكرر ضبطه في المداخيل التي جمعتها ، و الذي به نشتري و نعيد ، أما هامش الربح الحقيقي فهو قليل فلا يعقل أن تُضبط الأمور كما ضبطتها ؟.

-لم اَفهم كلامك.

-من الخطأ أن تنظر للمداخيل دون أن تلقي نظرة على ما يخرج من المال.

-إذن و دون اِطالة الكلام فكم معك من السيولة النقدية ؟ .

-كأنها ثلاثمئة ألف دينار.

-لماذا تقول (كأنها) ؟. أريد أن اَسمع رقما مضبوط العدد و كلاما جازم الجواب لا حمال اَوجه ، فَكَمْ معنا من المال ؟.

-قلتُ لك : كأنها ثلاثمئة ألف دينار.

-إذن أنت لا تعلم كم معك من المال الخاص بنا ؟.

-نعم سأُخبرك غدا بما نملك ؟.

-يا رجل هذا كلام لا يُعقل إن الأعداد اقرب شيء للحقيقة المطلقة بل هي الحقيقة المطلقة ، فالرقم واحد لا يتحمل معناه وجها آخر إلا معناه ، و الثلاثمئة ألف دينار لا يتحمل معناها معنى آخر إلا معناها ، و أنت بقولك (كأنها) تشكك في المعنى الحقيقي لهذا

الرقم !، و اعلم إني لا أُريد أن أُكرر حادثة مرضك ، و اِني اَتجنب ذلك قدر اَستطاعتي ، لكنني مع هذا اَقول لك: " إن اِنسانا لا يعلم – حقيقةً – كم يملك من المال المدخر عنده من تجارة عمرها شهرين أجد تصديق هذا الأمر ضربا من المستحيل ". فاَرجوك أن لا تنس غدا أن تبلغني كم معنا من المال ، و ساعتها لكل حادث حديث.

هناك حقيقة لا بُدَّ من الحديث عنها ، و تسليط الضوء عليها ، و هي غريبة نوعا ما ، و لكنها تحتاح للنظر و التدقيق و التمحيص ، حتى يتبن حقيقتها من زيفها ، و هي أن عبد اللطيف من أُولئك الناس الذي يتعلمون العلم لقضاء مآربهم الشخصية ، و لتحصين اَنفسهم و مصالحهم ، فحين سأله آدم عن المبلغ الذي بحوزته و الذي يخص مداخيل تجارتهم خلال هذين الشهرين استعمل عبد اللطيف لفظ (كأن) ، و هو حَرْف مُشبَّه بالفعل يُفيد التَّشبيه و التقريب ، فاستعمله عبد اللطيف هروبا من الإجابة الصريحة و الدقيقة على سؤال آدم له و امتصاصا لغضبه حتى لا يثور عليه ، و في الوقت نفسه يمد نفسه بمزيد من الوقت حتى يكتشف خبايا آدم و نواياه من هذا السؤال ، و قد تعلم هذا الأُسلوب من قول الملكة سبأ المذكور في (سورة النمل) و الذي كان جوابا و ردا حكيما و ذكيا منها على سؤال النبي سليمان – عليه السلام – في تلك القصة المشهورة ، و التي قصها الله تعالى في محكم تنزيله : ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) قَالَ

نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42) ﴾ [سورة النمل]

فلما نكرت و غيرت الجن عرش بلقيس بعض التغيير اِمتثالا لأمر نبي الله سليمان لم يبق عرشها على حاله الأصلي ، فأراد نبي الله سليمان – عليه السلام – أن يختبر بذلك ذكاء بلقيس ، و إنه أتم ذلك الاِختبار بطريقة السؤال حين قيل لها ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ ، يقول الشيخ مُحَمَّد سيد طنطاوي في كتابه (التفسير الوسيط) : " ولم يقل لها : (أهذا عرشك) ، لئلا يكون إرشادا لها إلى الجواب ، فيفوت المقصود من اِختبار ذكائها و حسن تصرفها ". فكان جوابها : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ ". و قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في كتابه (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان): " وهذا من ذكائها وفطنتها لم تقل (هو) لوجود التغيير فيه و التنكير ، و لم تَنْفِ أنه هو لأنها عرفته ، فأتت بلفظ محتمل للأمرين صادق على الحالين ". و قال مقاتل : " عرفته لكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها ". وقال عكرمة : "كانت حكيمة لم تقل : (نعم). خوفا من أن تكذب ، و لم تقل: (لا). خوفا من التكذيب ، قالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ ."

و هذه الخصلة اِكتشفها آدم في أخلاق عبد اللطيف حيث يَلوي عنق العلم عن مقصده – و هو تقديم خدمة جليلة لخير الإنسانية — إلى خدمة أغراضه الشخصية الخالصة له ، و من الأحداث التي جرت لآدم مع عبد اللطيف في هذا الباب ، إنه في يوم من الأيام تأخر صباحا عن موعد فتح الكُتُبِيَةِ ، فاتصل بعبد اللطيف ليعتذر إليه عن تأخره عن القدوم و إنه في طريقه إليه ، فما إن رن هاتف عبد اللطيف و رد السلام سبقه للسؤال المباغت:

–أين أنت ؟.

-أُعذرني قد تأخرت و أنا في طريقي لِلْكُتُبِيَةِ.

-حسنا حسنا.

فعلم آدمُ أن عبد اللطيف لما يفتح الكُتُبِيَةَ أَيضا و احتمال كبير أنه قد تأخر —كعادته— ، و هو في كتبيته الأُخرى ينتظر قدوم شقيقته حتى يلتحق به ، و إنه تأسى بفعله هذا بفعل الصحابي حذيفة بن اليمان — رضي الله عنهما — في غزوة الخندق فَعن مُحَمَّدِ بنِ كَعْبٍ القُرَظِيِّ قال: " قال فَتًى مِنَّا مِن أَهْلِ الكُوفةِ لحُذَيفةَ بنِ اليَمانِ: يا أبا عبدِ اللهِ ، رَأيتُم رسولَ اللهِ – صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ – و صَحِبتُموهُ ؟. قال: نَعَمْ يا ابنَ أخي. قال: فكيف كُنتُم تَصنَعونَ ؟. قال: واللهِ لقد كُنَّا نَجْهَدُ. قال: واللهِ لو أدْرَكْناهُ ما تَرَكْناهُ يَمْشي على الأرضِ ، و لَجَعَلْناهُ على أعْناقِنا. قال: فقال حُذَيفةُ: يا ابنَ أخي، واللهِ لقد رَأيتُنا مع رسولِ اللهِ – صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ – بالخَنْدَقِ، و صلَّى رسولُ اللهِ – صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ – مِن اللَّيلِ هَوِيًّا ، ثم التَفَتَ إلينا فقال: مَن رَجُلٌ يَقومُ فيَنظُرَ لنا ما فَعَلَ القَومُ –يَشرُطُ له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يَرجِعُ– أدخَلَه اللهُ الجَنَّةَ ؟. فما قام رَجُلٌ ، ثم صلَّى رسولُ اللهِ – صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ – هَوِيًّا مِن اللَّيلِ، ثم التَفَتَ إلينا، فقال: مَن رَجُلٌ يقوم فيَنظُرَ لنا ما فَعَلَ القَومُ، ثم يَرجِعَ –يَشرُطُ له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الرَّجْعةَ– ؟. أسأَلُ اللهَ أنْ يكونَ رَفيقي في الجَنَّةِ، فما قامَ رَجُلٌ مِن القَومِ مع شِدَّةِ الخَوفِ، و شِدَّةِ الجُوعِ، و شِدَّةِ البَرْدِ ، فلمَّا لم يَقُمْ أحَدٌ دَعاني رسولُ اللهِ – صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ– ، فلم يكُنْ لي بُدٌّ مِن القيامِ حين دَعاني، فقال: يا حُذَيفةُ ، فاذْهَبْ فادْخُلْ في القَومِ فانْظُرْ ما يَفعَلونَ ، و لا تُحدِثَنَّ شَيئًا حتى تَأتِيَنا. قال: فذَهَبتُ فدَخَلتُ في القَومِ ، و الرِّيحُ و جُنودُ اللهِ تَفعَلُ ما تَفعَلُ لا تُقِرُّ لهم قِدْرًا ، و لا نارًا، و لا بِناءً، فقامَ أبو سُفْيانَ بنُ حَرْبٍ، فقال: يا مَعشَرَ قُرَيشٍ ، لِيَنظُرَ امْرُؤٌ مَن جَليسُه ،

فقال حُذَيفةُ: فأخَذتُ بيَدِ الرَّجُلِ الذي إلى جَنْبي ، فقُلتُ: مَن أنتَ؟. قال: أنا فُلانُ بنُ فُلانٍ. ثم قال أبو سُفْيانَ: يا مَعشَرَ قُرَيشٍ، إنَّكم واللهِ ما أصبَحْتُم بدَارِ مُقامٍ ، لقد هَلَكَ الكُراعُ ، و أخْلَفَتْنا بَنو قُرَيظةَ ، و بَلَغَنا عَنْهُمْ الَّذِي نَكرَهُ ، و لَقِينَا مِن هذه الرِّيحِ ما تَرَونَ ، واللهِ ما تَطمَئِنُّ لنا قِدْرٌ، و لا تَقُومُ لنا نارٌ ، ولا يَستَمسِكُ لنا بِناءٌ ، فارْتَحِلوا فإنِّي مُرتَحِلٌ ، ثم قامَ إلى جَمَلِه وهو مَعْقولٌ فجَلَسَ عليه ، ثم ضَرَبَه فوَثَبَ على ثلاثٍ ، فما أطلَقَ عِقالَه إلَّا و هو قائِمٌ، و لولا عهدُ رسولِ اللهِ – صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ –: لا تُحدِثْ شَيئًا حتى تَأْتِيَني. ثم شِئتُ ، لَقَتَلتُه بسَهْمٍ. قال حُذَيفةُ: ثم رَجَعتُ إلى رسولِ اللهِ – صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ – و هو قائِمٌ يُصلِّي في مِرْطٍ لبَعضِ نِسائِه مُرَحَّلٍ ، فلمَّا رَآني أدْخَلَني إلى رَحْلِه، و طَرَحَ علَيَّ طَرَفَ المِرْطِ، ثم رَكَعَ وسَجَدَ و إنَّه لَفِيهِ، فلمَّا سَلَّمَ أخبَرتُه الخَبَرَ. و سَمِعَتْ غَطَفانُ بما فَعَلَتْ قُرَيشٌ، فانْشَمَروا إلى بِلادِهم."

و مثل هذا الخُلُقِ قد ذكره الله في كتابه العزيز في قوله تعالى: ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97) ﴾ [سورة التوبة]

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان):"

يقول تعالى: ﴿ الْأَعْرَابُ ﴾ و هم سكان البادية و البراري ﴿ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا ﴾ من الحاضرة الذين فيهم كفر و نفاق ، و ذلك لأسباب كثيرة: منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية و الأعمال و الأحكام ، فهم أحرى ﴿ وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ من أصول الإيمان و أحكام الأوامر والنواهي ، بخلاف الحاضرة، فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، فيحدث لهم – بسبب هذا العلم – تصورات حسنة، و إرادات للخير الذي يعلمون ، ما لا يكون في البادية.

وفيهم من لطافة الطبع و الانقياد للداعي ما ليس في البادية، ويجالسون أهل الإيمان، و يخالطونهم أكثر من أهل البادية ، فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية ، وإن كان في البادية والحاضرة كفار و منافقون ، ففي البادية أشد و أغلظ مما في الحاضرة. ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال، و أشح فيها."

فمن يوظف العلم لخدمة مصلحته الشخصية اَراها قد تشبه بأَشد الكفار و المنافقين و هم كفار الأَعراب و منافقوهم و الأَجدر بهم أن لا يُسَاعَدُوا بِمَدِّهِمْ بالعلم حتى يُعلمَ اِيرادهم بالعلم الخيرَ للناس.

الفصل السابع عشر

في طريق آدم لبيته ماشيا و بعد ما سمعه من عبد اللطيف و ما احسه في كلامه من مراوغة ، جرى الشيطان من نفسه مجرى دمه فوسوس له قائلا :

–ها قد بان عبد اللطيف على حقيقته ذلك الثعلب الماكر في جلد الحَمَلِ ، أَلَمْ تَرَ كيف راغ رَوَغانَ الثَّعلب حين سألته عن مال تجارتكم المشتركة ؟. أتريد دليلا اَوضح من هذا الدليل على صدق ما أُخْبِرْتَ به عن اَمانته المجروحة ؟. فما هو التدبير الآن ؟.

فسارعت النفس الأَمارة بالسوء للإِجابة على هذه الاسئلة الشيطانية:

–نعم قد ظهر على حقيقته كما أنَّ دُونَ غَدٍ لَيْلَةً فبئس العلم بِاَيْدِ هؤلاء المنافقين الاَعراب فقد قال رسول الله – صلى الله عليه و سلم –: " إنَّ أَخْوَفَ ما أخافُ عليكُم بعدي ، كلُّ منافقٍ عليمُ اللِّسانِ ". و الذين صدق عليهم قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) ﴾ [سورة الحجرات] ، ألم يذهب شيخ المفسرين مُحَمَّد بن جرير الطبري في تفسيره إلى ترجيح قول من قال : " أن هؤلاء الأعراب الذين نزلت فيهم هذه الآية قد اَسلموا بِاَلسنتهم و لم يحولوا ذلك الاسلام إلى عمل بأَوامره و اجتنابا لما نهى عنه و حرمه ، و إن لم تكن في كل الاَعراب كما قال قتادة: لم تعمّ هذه الآية الاَعراب ، إن من الاَعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، و يتخذ ما ينفق قربات عند الله ، و لكنها في طوائف من الأعراب ". عن غيره من الاَقوال ؟. و ذلك بعد أن قال : " و اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله قيل للنبيّ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم –: قل لهؤلاء الاَعراب: قولوا: أسلمنا. و لا تقولوا: آمنا. فقال بعضهم: إنما أمر النبيّ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم –

بذلك ، لأن القوم كانوا صدّقوا بألسنتهم ولم يصدّقوا قولهم بفعلهم ، فقيل لهم: قولوا أسلمنا. لأن الإسلام قول ، و الإيمان قول و عمل ". و من هؤلاء الحافظ الفقيه و أحد الأئمة الأعلام مُحَمَّد بن عبد الله بن شهاب الزهري فإنه أَوَّلَ قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ فقال: " إن الإسلام: الكلمة ، و الإيمان: العمل ". فقال جرير الطبري: " وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك القول الذي ذكرناه عن الزهريّ ، و هو أن الله تقدّم إلى هؤلاء الأعراب الذين دخلوا في الملّة إقرارا منهم بالقول ، و لم يحققوا قولهم بعملهم أن يقولوا بالإطلاق: آمنا. دون تقييد قولهم بذلك بأن يقولوا: آمنا بالله ورسوله. و لكن أمرهم أن يقولوا القول الذي لا يشكل على سامعيه و الذي قائله فيه محقّ ، و هو أن يقولوا: أسلمنا. بمعنى: دخلنا في الملة و الأموال و الشهادة الحق."

ألم يَأْنِ لك أن تحترز منه و تحفظ مالك الذي كلفك جمعه الكثير ؟. فأنت لست بحاجة للتذكير بما ضحت به زوجتك من ذهبها من أجلك ، يا رجل ألم تذكر حين وضعته بين يدي ذلك الصائغ كيف دارت عينيه في حدقتيهما ؟. و بعد إن بعته إياه لم يمنع حياؤه طَمَعَهُ أن يزورك في كُتُبِيَّتِكَ و يسألك: هل من طريقة للحصول على المزيد منه ؟. رغم علمه حين بعته إياه أنك ما بعته إلا للحاجة ، فأنت في بلد لا يتعامل أهله بالواحد و العشرين من عيار الذهب ، و إنما تعاملهم يتم بالثمانية عشر عيارا لا يتعداه ، و هذا كله من أجل أن تفي بكلمتك لذلك الثعلب الماكر في جلد الحَمَلَ ، و مع هذا كان جزاء هذا الإحسان هو الغدر و المكر و الروغان كما قال صالح عبد القدوس في قصيدته (الزينبية):

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً

وَ يَرُوغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ

و هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟.

فقال آدم: سيرى مني ما يسوؤه و ينوؤه ذلك الثعلب فإني أقرب إلى تصديق صحة من قال: " أقربكم إلى الأرض أشدكم بلاء ". بما شاهدته و عشته و إختبرته في أخلاق هذا المراوغ فاستغفر الله على هذا الوصف.

قاطعت النفس اللوامة كلام آدم قائلة:

-احذر من الإنصياع وراء هذا التهديد الذي ذكرته ، فلا يمكن قطع الشر بالشر ، و أول من تصيبه نتائج الشر هو صاحبه بالذات، و متى شرعت في فعل وقع عليك توابعه ، و ألزمك و أوجب عليك ما يخلفه من آثار ، فاربأ بنفسك من الخوض في الشر ما دمت تملك زمام الأمور ، فمتى عظمت خرجت عن سيطرتك و انقلبت عليك فإن النار العظيمة و التي تحرق كل شيء و الأخضر و اليابس تنطلق من مستصغر الشرر.

-و هل أخسر كل شيء ؟. فإني كنت أمينا معه إلا أنه هو من بادر بالخداع ، فهو من يلزمه توابع فعله و خديعته ، فإن كانت هناك خسارة تصيب هذا المشروع أو إفلاس يقع – لا قدر الله ذلك – فليتحمل وحده جبر ذلك الكسر بقدر الخسارة الحادثة ، كما يتحمل آثار الإفلاس الذي يقع ، أما أنا فإني أُدرك مالي عند مفلس فقد قال رسول الله – صلى الله عليه و سلم -: " مَن أَدْرَكَ مَالَهُ بعَيْنِهِ عِنْدَ رَجُلٍ أَوْ إِنْسَانٍ قدْ أَفْلَسَ فَهو أَحَقُّ به مِن غيرِهِ ".

فقالت النفس اللوامة:

-ها أنت ذا تُصَوّغُ لنفسك ما تحرمه على الآخرين ، و ها أنت ذا تلوي عنق النص حتى يناسب مصلحتك الذاتية ، فإن رسول الله – صلى الله عليه و سلم – في هذا الحديث بَيَّنَ

من هو أحق بالمال الموجود عند الغريم المفلس من بقية الغرماء و الدائنين أو المتعاملين معه بالدَّيْنِ ، و هو ذلك الذي اَدرك ماله بعينه فهو اَحق بِاسترداد ماله من بقية الغرماء الذين يُقسَّمُ بينهم الباقي من مال المفلس الغريم بِحسْبِ دُيونِهم عندَه ، أما اَنت فإنك شريك في ذلك في ذلك الإفلاس و محقوق لهم مثله ، تُرَى لو ربح المشروع بسبب تدبيره أكنتَ تُنْفِلُهُ من ذلك الربح بقدر تدبيره ؟. و اَعلم أنّك ستقول: لا. إذن فالغُرْمُ بقدر الغُنْمِ.

في صباح اليوم التالي اَعلم عبدُ اللطيف آدمَ بقدر المال و هو سبعون و مئتا ألف دينار فبادرت نفسه الأمارة بالسوء قائلة:

–رغم تنزهه عن الصدق اَمس فقد قطع ثلاثين اَلف دينار كذلك مقابل ما دفعته لصندوق الضمان الاجتماعي ، و هو ثلاثون ألف دينار ، و مع هذا لا يريد اِخبارك بتصرفه هذا الماكر.

فقال آدم لعبد اللطيف:

–اَرجوا أن تأتيني غدا بنصف المال.

–و لما آتيك بنصفه ؟. ألستُ أمين صندوقنا ؟. فإني – اِضافة لذلك – كنت أنا من يتدبر شراء سلع الكُتُبِيَةِ و قرطاسيتها ، و إنك منعتني من ذلك ، و الآن تطلب نصف المال و كأنك لا تأمن جانبي.

–اَرجوك لا أُريد الخوض في نقاش ينتهي بنا لتوتر اَعصابنا ، و ربما يقع ما وقع من قبل.

فصمت الإثنان لكن شرخ الخلاف كل يوم يتسع حتى خلق هوة كبيرة بينهم و مرت اَيام قلائل فعرض عبد اللطيف على آدم قائلا:

-يجب تأجير محل كُتُبِيَتِنَا و الإِنتقال لمكان آخر يكون الكراء فيه زهيدا و ليس باهظ الثمن ، كما هو الحال في هذا الموقع من المدينة قبل فوات الأوان و تكبد خسارة لأسباب عديدة من بينها غلاء الكراء في هذا السوق.

-حسنا فلتقم بالبحث.

ثم حدث نفسه قائلا:

-سأَنظر ما قصدك بهذا العرض ثم لكل حادث حديث.

و من اَيامها تلك صار آدم يقتطع نصيبا من مال مداخيل الكُتُبِيَةِ دون علم عبد اللطيف رغم انكار الضمير و نفسه اللوامة لفعله هذا ، و بعد مرور قرابة الشهر بدأ عبد اللطيف يحس بالأمر و يلاحظ النقص الذي يحدث في السلعة ، و ذات مساء غشي الكُتُبِيَةَ كالعادة مُحَمَّد الكُتُبِيُّ فنظر في رفوفها و قال :

-ما هذا ؟. الكُتُبِيَةُ بحاجة إلى سلعة ، هل اِنقطع الموزعون عن تزويدكم بالسلعة ؟.

فصمت آدم أما عبد اللطيف فإنه حرك رأسه فأماله على كتفه الأيمن ميلة خفيفة و سريعة ثم نصبه مرة أُخرى كأنه يقول:

-لا اَملك لك جوابا و تفسيرا غير إني أُيأَيدك في تعجبك و سؤالك و استفسارك ، و أنا اَيضا اَبحث له عن جواب ، و إن كان منطلقي مغيارا و مخالفا لمنطلقك ، فأنت تسأل حتى تتأكد من صدق اِلتزام الموزعين معك ، و لا تغيب عن اَذهاننا ما يحمله سؤالك من شماتة لنا و غبطتك بخسارتنا ، أما أنا فإن منطلقي إذا كانت المداخيل ضعيفة فإين هي السلعة إذن؟.

أما آدم فحدث نفسه قائلا:

–سبحان الله عجبتُ لبعض الناس و للشر المتأصل فيهم فكأن اَحدهم روح من شر في جسد اِنسان و قد صدق اَحمد محرم حين شبهه بالعقرب فقال:

عَقربُ السُّوءِ تَمادَى فِي الأَذَى
والأَذَى بَعْضُ سَجَايَا الْعَقْرَبِ

وَيْكَ عبدَ اللهِ مَاذا تَبْتَغِي
تَعِبَ الشَّرُّ ولَمَا تَتْعَبِ

اِتَّئِبْ يا ابنَ أُبَيٍّ وَ اَجْتَنِبْ
خَطَلَ الرَّأْيِ وَ سُوءَ الْمَذْهَبِ

لكن الفرق بينهم و بين العقرب أنها تلدغ بطبيعة و طبع مزروع فيها ،كما قال أبو العيناء مُحَمَّد بن القاسم اليمامي الهاشمي : " أدخلت على المتوكل، فدعوت له وكلمته فاستحسن كلامي، وقال: بلغني أن فيك شرا. قلت: يا أمير المؤمنين ، إن يكن الشر الذي بلغك عني ذكر المحسن بإحسانه ، و المسيء بإساءته ، فقد زكى الله تعالى و ذم ، فقال في التزكية: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) ﴾ [سورة ص]. و قال في الذمّ: ﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) ﴾ [سورة القلم]. و قال الشاعر:

إِذَا أَنَا لَمْ أَمْدَحْ عَلَى الْخَيْرِ أَهْلَهُ
وَ لَمْ أَذْمُمْ الْحِبْسَ اللَّئِيمَ الْمُذَمَّمَا
فَفِيمَ عَرَفْتُ الْخَيْرَ وَ الشَّرَّ بِاسْمِهِ
وَ شَقَّ لِي اللهُ الْمَسَامِعَ وَ الْفَمَا

و إن كان الشر الذي بلغك عني كفعل العقرب الذي تلدغ النبي و الذِّمِيَ بطبع لا بتمييز ، فقد صان الله عبدك عن ذلك."

أما هم فإن يَمِيزُونَ الخبيث من الطيب و الشر من الخير فَلِمَ يُوطنون اَنفسهم على فعل الشر ؟. لستُ اَدري . و قال رسول الله — ﷺ -: " لَعَنَ اللهُ الْعَقْرَبَ ، ما تَدَعُ نَبِيًّا و لَا غَيْرَهُ ، إلَّا لدَغَتْهُمْ ". و إن كنتَ يا مُحَمَّد تشمت فينا و تفرح لإفلاسنا الاَصغر و المالي و الدنيوي ، فإني اَخشى عليك الإفلاس الاَكبر و الأُخروي الذي حذرنا منه رسول الله – صلى الله عيه و سلم — فقال: " أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ ؟. قالوا: المُفْلِسُ فِينا مَن لا دِرْهَمَ له و لا مَتاعَ. فقالَ: إنَّ المُفْلِسَ مِن أُمَّتي يَأْتي يَومَ القِيامَةِ بصَلاةٍ ، و صِيامٍ ، و زَكاةٍ ، و يَأْتي قدْ شَتَمَ هذا ، و قَذَفَ هذا ، و أَكَلَ مالَ هذا ، و سَفَكَ دَمَ هذا ، و ضَرَبَ هذا ، فيُعْطَى هذا مِن حَسَناتِهِ ، و هذا مِن حَسَناتِهِ ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْضَى ما عليه أُخِذَ مِن خَطاياهُمْ فَطُرِحَتْ عليه ، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ."

ثم دعى مُحَمَّد الكُتُبِيُّ عبدَ اللطيف لفنجان قهوة على حسابه فلبى الاَخير دعوته ، و بعد غياب دام اَقلّ من ساعة عاد الإثنان و قد دخل مُحَمَّد هو الأول و على اِثره عبد اللطيف.

–آدم اَود الحديث معك في اَمر مهم يخصكما ، و قد وكلني عبد اللطيف أن اُمثله و اَنوب عنه في الحديث.

–تفضل.

–عبد اللطيف يريد فك الشراكة بينكم.

فنظر آدم في عيني عبد اللطيف ثم كلم مُحَمَّدا الكُتُبِيَ:

–و ما هي الإجراءات التي يقترحها لفكّ هذه الشراكة بحكم اَنه من نزع اَولا للفراق ؟.

فنظر مُحَمَّد الكُتُبِيُ إلى عبد اللطيف نظرة تأمره بالحديث فقال:

-نؤجر المحل لبائع المرطبات...

-لكن بائع المرطبات قد اَعطى سعرا اَقل مما اَجرنا به ، أتريد كل أُمورنا تنتهي بالخسارة ؟.

-يا آدم ، نخسر بعض مال الإِجار اَفضل من خسارته كله و معه رأس المال.

-اكمل حديثك ثم أنا اَدلو بدلوي.

-ثم نقتسم لوازم الكُتُبِيَةِ و سلعتها مع بقاء دَيْنِ الموزعين بيننا مناصفة ، و التعهد بدفعه في وقته.

-أنا لا اَترك كُتُبِيَتِي بعد أن انطلقت فيها ، و أنت تعلم العقبات التي صادفتني للوصول إلى هذه النقطة ، و إن كنت تريد المغادرة فذلك اَمر يخصك.

-يا آدم الـ...

-قد سمعتَ قراري و لا رجعة فيه.

فقال مُحَمَّد الكُتُبِيُ لآدم:

-هل تسمح لي بإبداء رأي ربما يكون فيه النصح لكما.

-تفضل.

-إن الفراق رأي صائب و فيه الخير لكليكما ، فإن لي نظرة لا تخيب ، و إني سبقت كليكما أيضا في هذه الحرفة ، و لي فيها تجربة تخولني بالحكم الصائب على الأُمور إذا اَشْرَفَتْ ، فَاَعْلَمُ كيف تُدْبِرُ ، و اَسمحلي أن اَقول لك: إنكما وصلتما بشراكتكما لمفترق طرق ، و آن لكما الفراق ، فإن اَبَيْتَ زادت خسارتكما تضخما كل ما حاولت إِيطالة الوقت و أنت تحاول إِنعاش ذلك الربح الهالك.

-على كل حال سأفكر في الموضوع و سيسمع ردي على اقتراحه.

نظر مُحَمَّد الكُتُبِيُّ في عبد اللطيف و قال:

-هل تتفضل و تمنحنا بعض الوقت حتى أُكلمه في حديث خاص.

-لكما ذلك.

ثم غادر الكُتُبِيَةَ.

-من الأفضل لك أن توافق يا آدم ، ألم يأنن موعد الإيفاء بالديون للغرماء و من عاملكم قبل اشهر بالدَّيْنِ ؟. فأنت غِرٌّ في معاملتك لهم ، و إني خَبُرْتُهُمْ و عجمت عُودَهُمْ فوجدتُ طعمه مُرًّا بين اضراسي ، و إنه حين يحين أجل ديونهم رأيت منهم غلظة شديدة إن لم تُوفَ لهم حقوقهم ، و هم لم يتعاملوا معك بل معه هو ، فاتركهم و شأنهم معه كيف يُحَصِّلُونَ أموالهم منه ، و إضافة إلى ذلك فإن أَشْهُرَ ركود تجارة الكتب قد حَلَّتْ ، فبيعها يزدهر في الأشهر الثلاثة الأُولى من بداية الموسم الدراسي ثم يصيبه ركود شديد ، فإن لم تنقض تجارتك فيها أصابها الإفلاس في باقي شهور السنة ، و لا يمكن لك الإيفاء بما وعدت به ، و الادهى من هذا و ذاك فتجارة الكتب حرفة في طريقها للركود لعقود طويلة متصلة ، إن لم تكن إلى الانقراض كما أصاب الكثير من الحرف ، فربما حبك للكتب قد أعماك عن التفريق بين تجارة الكتب و اقتنائها للقراءة و اتخاذها هواية ، و من الحب ما قتل ، و اسمحلي أن أقول لك: " لا يمكن لإنسان في هذا العصر إتخاذ الكتاب حرفة أو صنعة يطلب من ورائها الغنى أما هواية فذلك شأنه ". ألا ترى كيف سيطر الهاتف علينا ؟. فالثقافة التي كان يَرْنُو الإنسان لها في الكتب و يطلبها ، و المعلومة التي كان يبحث عنها بين سطوره ، قد نُقلت لذلك الفضاء الأزرق المسمى الشابكة أو (الإنترنت) ، فمن كان يقضي بعض الوقت من

يومه يقرأ صفحة أو صفحتين أو عشرة في كتاب ما ، صار يقضيها في تصفح صفحات الشابكة ، و الأكثر اِيلاما إننا في عصر سيادة الصورة المتحركة و المتكلمة ، و إن البشرية طوت صفحة عصر سيادة الورقة و الكتاب ، و مهما حاول البعض اِنعاش زمانها و زمانه. فنصيحتي لك انتقل إلى حرفة أُخرى غيرها تفلح ، و إن شئت اَبقيت على تجارة القرطاسية و اَضفت لها بيع الحلوى و الشكولاطة و اَنواع البسكويت ، و لا تنس تجارة المواد التي لها علاقة بالهاتف و الكمبيوتر كبطاقات الإنترنت و اوراق رصيد المكالمات ، فإنها تجارة معتبرة في هذا العصر ، إذن الفرصة في درجتها الذهبية قد اَقبلت عليك فاقتنصها تَفُزْ بها.

-اَشكرك على النصيحة.

دخل عبد اللطيف ثم خاض الجميع في حديث جانبي ثم غادر مُحَمَّد الكُتُبِيُ ، فقال آدم لعبد اللطيف:

-إني اِمتنعت من الحديث اَمام مُحَمَّد ، فمهما كان الأمر تضل هناك خصوصية تجمعنا لا يمكن اِقحام غيرنا في الحديث فيها و عنها ، مهما كان قدره و قرابته منا ، و مهما كانت مساحتها ضيئلة لا يعتبر بها و المشكة كبيرة و عظيمة.

-صحيح.

-لا تنتظر مني أن أُوجر هذا المحل و لو على قطع رقبتي ، فلا اَملك ذرةَ قُدْرَةٍ على اِفساح فرصة للشامتين حتى يشمتوا بي ، هل تفهم ذلك ؟.

-لكن كلامك أمام مُحَمَّد كان غير هذا ، و إنك وافقت على فَضِّ الشراكة.

-صحيح وافقت على فض الشراكة ، لكنني لم اَتطرق للموافقة على ترك هذا المحل ، و لم اَقل ذلك ، فلي اِقتراح فارجو أن تسمعه جيدا ثم تجيب.

-تفضل.

-إما أن تترك الكُتُبِيَةَ لا لك و لا عليك و تغادر ، و أضمن أنا ديونها و إما أن....

-لما لا تفعل أنت ذلك ؟.

-لستُ أن من طلب الفراق و فَضَّ الشراكة ، فمن بادر لذلك فليتحمل هو توابع قراره ، و على كل حال أُتركني أُكمل اِقتراحي.

-حسنا أكمل. أكمل.

-و إما أن نفض شراكتنا ، لكنني اَبقى هنا في هذا المحل و تغادر أنت ، و فيما يخص مستحقات اِيجار باقي الأشهر المتبقية من ايجارنا و بحكم أنك رضيت بالسعر الذي اَعطاه بائع المرطبات في حال لو اَجر هو ، فقد رضيتُ به و لن آتيك من خلاف ، و عليك أن تتحمل وحدك فارق الخسارة على السعر الأَصلي الذي اَجرنا به ، و فيما يخص السلعة فنقتسمها ، أما لوازم الكُتُبِيَةِ فتبقى عندي على أن أُعطيك حقك منها نقدا ، و إني رضيتُ أن نُقَوِّمَهَا كما اشتريناها ، و على هذا فَلَكَ ثمن نصف مبلغ الشراء ، و أنا اَضمن لك ذلك على أن تمهلني مهلتين ، فالأولى تنتهي بعد اَسبوع من مغادرتك و سوف اعطيك مبلغ الايجار ، أما حقك من لوازم الكُتُبِيَةِ فتكون بعد شهر ، و فيما يخص حق الغارمين فيبقى بيننا مناصفة لا يتغير ذلك، فما هو قولك ؟.

صمت عبد اللطيف قليلا ثم قال

-حسنا قد اتفقنا اِذن ، و اَرجوا أن تكون عند وعدك لي .

-اضمن لك كل كلمة قلتها.

جرت القسمة في الأيام التالية و غادر فعلا عبد اللطيف ثم عاد بعد أُسبوع فوفى له آدم بشطره الأول من الاتفاق.

-آدم اَرجوك ألا تتركني وحدي اتكبد مواجهة عسرة معاملة الدائنين و غلظتهم ، فارجوك هذا حقهم و لا يمكن الهروب منه أو جحده.

-فليكن الله في عوننا لكننا نحتاج نَظِرَةً إلى مَيْسَرَةٍ.

-ليكن الله في عوننا.

أما الشطر الثاني من عهده فنقضه و نَكَثَ به و لم يُوَفِ به ، و حين حضر عبد اللطيف قابله بغلظة رغم ان نفسه اللوامة اَنِفَتْ من هذا التصرف و تنزهت عنه ، فغادر عبد اللطيف ، لكن آدم علم أن هذا التصرف سيزيد نار العداوة التي يبطنها له عبد اللطيف حطبا مما يأجج سعيرها ، فلم يقدر على منع نفسه الأمارة بالسوء من هذا التصرف .

الفصل الثامن عشر

خلال باقي اشهر السنة اَصاب تجارة الكتب و القرطاسية ركود ، و صَدَقَ حدس مُحَمَّد الكُتُبِيّ و كلامه حين انبأ به آدم ، كما عاش بنفسه تلك السُنَّةَ الإقتصادية خلالها ، و أن لكل تجارة فصلا و موسما تزدهر فيه ، كما لكل شيء فصل و موسم يقوى فيه و تكون سُوقُهُ نَافِقَةٌ ، و إن موسم الكُتُبِيَةِ و القرطاسية هو الاَشهر الثلاثة الأُولى من الدخول المدرسي – كما اَخبره مُحَمَّد الكُتُبِيُّ – أما باقي السنة فعبارة عن بيع ثانوي ، و مداخيل لا يُعْتَبَرُ بها ، فهجمت عليه نفسه الاَمارة بالسوء تدعوه للشر و الإنتقام ممن احتال عليه ، و شاركه في ارباح موسم تجارته ، ثم تركه في خسارة كسادها يتخبط.

–إذن قد فعلها بك ذلك الثعلب الماكر و المراوغ في جلد الحَمَلِ ، شاركك في جني محصول تجارتك اَثناء موسمها حيث سوقها نَافِقَةٌ ثم اِستل كَاسْتِلَالِ الحية بعد لدغتها المميتة لضحيتها الغافلة ، بعد أن اَحس بإقبال اَيام كساد تجارتك ، و تريد الوفاء له بما عهدت له به ، يا لك من طفل يسيل لعابه و لا يدري ما يدور حوله ؟.

حين حدثته نفسه الاَمارة بالسوء بهذا الحديث جرى الشيطان منه جري دمه و اَدلى هو اَيضا بدلوه الشيطاني ، و هتف بِشَرّ وسوسته فقال:

–صدقت نفسك فيما حدثتك به ، ألم ترد الاَخبار عليك و كيف اِستلم كُتُبِيَتَهُ ؟. و التي كذب عليك حين سألته عن شأنها ، و ابتسم تلك الإبتسامة الشيطانية المستهزئة بسؤالك ، و كأنه سؤال اَحمق ، فاخبرك أنها ملك شخص و تديرها و شقيقته اَجيرة عنده ، و الأدهى من ذلك حين زارك مُحَمَّد الكُتُبِيّ قال لك:

–إنهم يزعمون أن الكُتُبِيَةَ لشقيقته ، و إنها تخلت عنها لشقيقها عبد اللطيف.

لكن عينيه اخبرتك بكلام غير ذلك – حين اتخذت شكل من يصيبها اَلَمِ الطَلْقِ و ذلك اَثناء روايته للخبر – فإنها اَخبرتك قائلة:

–هذا الكلام فيه كذب و زور ، و بُعْدٌ عن الحقيقة فلا تصدقه.

علقت هذه الاَحداث بقلب آدم ، و نكتت عليه نكتها السوداء ، و خلال تعامله مع الناس في كُتُبِيَتِهِ التي تقع على مدخل اَشهر اَسواق المدينة التي بلغ صداه حدود الوطن و تعداه خارجه اكتشف ظواهر غريبة و عجيبة ، و تكاد تكون السرقة على رأسها و اكثر من يمارسها هم نساء ظاهرهن العفاف ، و إن الله سترهم بثوب الستر ، لكنها ظاهرة تفشت ، و اَضحى هذا الطبع المذموم خُلُقًا طبيعيا عندهن ، فتسرق اِحداهن ما اشتهت مع تصميم غريب للظفر به ، و كأنها في بطولة عالمية تتسابق فيها للحصول على المرتبة الأُولى حيث تفوز بالميدالية الذهبية ، و التي تستحوذ بها على الشرف و التقدير و الاِطراء و المدح بين الناس ، فحدث نفسه و سألها سؤال دهشته:

–تُرَى ما سبب هذا الاِنقلاب الذي اَصاب الكثير من المسلمين فصاروا يتقبلون ما كانوا يبغضون فعله ، و يَرَاهُ عُرْفُهُمْ ذميما ، و أما دينهم فيرى التنزه عنه لاَ مَنْدُوحَةَ لَهم عَنْ هَذَا العَمَلِ ؟.

فهذه الجماعة من النساء اللائي دخلن فحاولت الأُم سرقة كتاب حتى تدرس به ابنتها التي كانت تنادي أُمها ، و كأن صوتها يحمل اِنكارها عليها في ما تَهُمُّ بفعله ، و من كانت تريد اِغفالي عن رؤية فعل الام هي خالتها !. و تلك المرأة التي شاهدتها واقفة أمام باب المحل الذي يقابل كُتُبِيَتِي ، و هي تراقب صاحب المحل المسكين في خفاء ، و حاملة كيسها الفارغ مفتوح الفم و تستر اِبنتها ذات السبعة أو الثمانية اَعوام التي تضع كيس فُوَطِ الرضيع في ذلك

الكيس الفارغ ، ثم انصرفت من غير أن تدفع ثمنه ، إنّي اَتذكر كيف كَذَّبْتُ عيني و ما شاهداه ؟. و قلتُ: " ربما أنا اَتخيل ذلك ". و العجيب حين راقبتها بعد الحادثة حين تمر من اَمام الكُتُبِيَةِ ، و جدتها دائما ما تَرِدُ السوق و هي تحمل تلك الاَكياس الفارغة و كبيرة الحجم ، و في صحبتها تلك الاِبنة البريئة ، ثم تصدر منه و قد ملاَتها كلها ، و الشنيع في الاَمر أن من يوصلها إلى السوق ثم يغادر بها هو زوجها .!

أم تلك التي تسترت عن اِبنتها التي سرقت كتابا اَيضا فلولا تنبيه اَحد الزبائن لي لما فطنت لفعلهما ، و قد تكرر الفعل مرارا و تكرار و لا يكاد يخلو يوما من تلك السرقات حتى اَيِسْتُ من الاِئتمان لأيهن مهما كانت ، مما اَوصلني إلى فقدان ثقتي بكل الناس ، و صرت أرى الناس كلهم فاسدين ، و اعتقد بخيانتهم ، و لولا حديث رسول الله — ﷺ — حين قال – صلى الله عليه و سلم –: " إذا قال الرجلُ: هَلَكَ النَاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ ". لقلتُ: هلك جميع الناس. أيِ: استَوجَبوا النَّارَ بِسوءِ أَعمالِهم.

لكن ما تواتر أمام ناظري ، و ما شاهدته بِإنسان عيني من تهاون الناس مع هذا الفعل الذي يحرمه الدين حرمة كبيرة ، و هو مما معروف من الدين بالضرورة ، و مما واضح وضوح الشمس في رائعة النهار ، و مما هو راسخ في العقول رسوخ الجبال الاَعلام و الراسيات في الاَرض ، فلا يحتاج إلى تعريف أو توضيح أو تذكير ، و الذي يجرمه القانون و يعاقب مرتكبيه عقوبة شديدة ، و مع أنه ذنب شنيع و من الكبائر فالناس تراه من الصغائر و اَدق من الشعر ، قال اَنس بن مالك — رضي الله عنه –: " إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمالًا، هي أَدَقُّ في أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّها علَى عَهْدِ النَّبِيِّ – صلَّى اللهُ عليه وسلَّم – مِنَ المُوبِقاتِ ". أو ذبابا و قع على الأُنوف ، قال عبد الله بن مسعود — رضي الله عنه –: " إِنَّ المُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قاعِدٌ

تَحْتَ جَبَلٍ يَخافُ أنْ يَقَعَ عليه ، وإنَّ الفاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبابٍ مَرَّ علَى أنْفِهِ فقالَ به هَكَذا ". ثم اَشار – ﷺ – بيده فوق اَنفه ، أي " فَطَارَتْ " و هو كناية عن استهان الشخص بذنوبه و اِحتقارها له.

قلت: لكن مع ورود النهي من رسول الله – صلى الله عليه و سلم – من اِستيجابِ النار للناس بسوء اَعمالهم ، لكن هذا لا يمنع من الخشية من اِحدى الموارد الاَربعة للنّار ، و الذي ذكره تعالى في قوله عزّوجل :﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (70) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72) ﴾ [سورة مريم] ، فَعَنْ ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: " الوِرْدُ فِي الْقُرْآنِ أَرْبَعَةُ أَوْرَادٍ: فِي هُودٍ قَوْلَهُ: ﴿ وَبِئْس الوِرْدُ المَوْرُودُ ﴾ ، وَ فِي مَرْيَمٍ: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إلاّ وَارِدُها ﴾ ، وَ وِرْدٌ في الأَنْبِيَاءِ: ﴿ حَصَبُ جَهَنّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ ، وَ وِرْدٌ في مريم أيضا: ﴿ وَنَسُوقُ المُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ " . و كان – ﷺ – يقول: "كل هذا الدخول ، واللهِ ليَرِدنّ جهنم كلّ برّ وفاجر . ﴿ ثُمّ نُنَجّي الّذِينَ اتّقَوْا وَنَذَرُ الظّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّا ﴾". و كان أَبُو ميسرَة عَمْرو بن شُرَحْبِيل الْهَمدَانِي الكوفي من الْعباد ، و كَانَت ركبته كركبة الْبَعِير من كَثْرَة الصَّلَاة فكان أبو ميسرة – رحمه الله – إذا أوى إلى فراشه، قال: " يا ليت أمي لم تلدني، ثم يبكي، فقيل: وما يبكيك يا أبا ميسرة ؟. قال : أَخْبَرَنَا: أَنَّا واردوها ، و لم يخبرنا أنا صادرون عنها ". و ها هو ذا أبو مُحَمَّد عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي ، و اَحد نقباء الاَنصار الاِثنا عشر ، و من الذين شهدوا بدرا ، و الذين قال فيهم رسول الله –

صلى الله عليه و سلم — " لَعَلَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ اطَّلَعَ علَى أهْلِ بَدْرٍ فَقالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ". في حديث جميل ذكره البخاري في صحيحه عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال: " بَعَثَنِي رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَا، و الزُّبَيْرَ، و المِقْدَادَ ، فَقالَ: انْطَلِقُوا حتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ ، فإنَّ بهَا ظَعِينَةً معهَا كِتَابٌ ، فَخُذُوا منها. قالَ: فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بنَا خَيْلُنَا حتَّى أتَيْنَا الرَّوْضَةَ ، فَإِذَا نَحْنُ بالظَّعِينَةِ، قُلْنَا لَهَا: أخْرِجِي الكِتَابَ. قالَتْ: ما مَعِي كِتَابٌ. فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ ، أوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ. قالَ: فأخْرَجَتْهُ مِن عِقَاصِهَا ، فأتَيْنَا به رَسولَ اللَّهِ – صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ –، فَإِذَا فِيهِ: مِن حَاطِبِ بنِ أبِي بَلْتَعَةَ ، إلى نَاسٍ بمَكَّةَ مِنَ المُشْرِكِينَ، يُخْبِرُهُمْ ببَعْضِ أمْرِ رَسولِ اللَّهِ – صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ–. فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: يا حَاطِبُ ، ما هذا ؟!. قالَ: يا رَسولَ اللَّهِ ، لا تَعْجَلْ عَلَيَّ ، إنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا في قُرَيْشٍ – يقولُ: كُنْتُ حَلِيفًا، و لَمْ أكُنْ مِن أنْفُسِهَا — و كانَ مَن معكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ مَن لهمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أهْلِيهِمْ و أَمْوَالَهُمْ ، فأحْبَبْتُ – إذْ فَاتَنِي ذلكَ مِنَ النَّسَبِ فيهم – أنْ أتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي ، و لَمْ أفْعَلْهُ اِرْتِدَادًا عن دِينِي ، و لَا رِضًا بالكُفْرِ بَعْدَ الإسْلَامِ ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ – صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ–: أمَا إنَّه قدْ صَدَقَكُمْ ، فَقالَ عُمَرُ: يا رَسولَ اللَّهِ ، دَعْنِي أضْرِبْ عُنُقَ هذا المُنَافِقِ. فَقالَ: إنَّه قدْ شَهِدَ بَدْرًا ، و ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ علَى مَن شَهِدَ بَدْرًا ، فَقالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ ، فقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ. فأنْزَلَ اللَّهُ السُّورَةَ: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿ فقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [سورة الممتحنة: الآية (1)]" .

قلتُ:" بكى عبد الله بن رواحة في مرضه فبكت اِمرأته، فقال: ما يبكيك ؟. قالت: رأيتك تبكي فبكيت. قال ابن رواحة: إني قد علمت إنى وارد النار فما أدري أناج منها أنا أم لا ؟"

و ليت الأمر قد توقف على تلك النساء المستورات ذوات المظهر العفيف ، فَيَبْقَيْنَ على رأي اَصحاب التأويل المغلوط لقول رسول الله – ﷺ – الذي حُرِفَ تأويله بين الناس فتجد اَحدهم يستشهد بما اِشتُهِرَ على اَلسنة الناس فيقول:

–النساء ناقصات عقل و دين.

فينسب كل ما يصدر من حمق المرأة إلى عقلها الناقص ، أما ما حُفِظَ عن رسول الله – صلى الله عليه و سلم – فهو ما ذكره أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي في كتابه (مجمع الزوائد و منبع الفوائد) من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه — حيث قال: " خرجَ رسولُ اللَّهِ – صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ – في أضحى أو فطرٍ فصلَّى ، ثمَّ انصرفَ فوعظَ النَّاسَ و أمرَهم بالصَّدقةِ ، و قالَ: يا أيُّها النَّاسُ تصدَّقوا. ثمَّ انصرفَ فمرَّ على النِّساءِ ، فقالَ لهنَّ: تصدَّقنَ فإنِّي رأيتُكنَّ أكثرَ أهلِ النَّارِ. فقلنَ بمَ ذاكَ يا رسولَ اللَّهِ ؟. قالَ: إنَّكنَّ تُكْثِرْنَ اللَّعنَ ، و تكفرنَ العشِيرَ ، ما رأيتُ من ناقصاتِ عقلٍ و دينٍ أذهبَ لقلبِ الرَّجلِ الحازمِ من إحداكنَّ ، يا معشرَ النِّساءِ. فقلنَ: ما نقصانُ عقلِنا و دينِنا ، يا رسولَ اللَّهِ ؟. قالَ: أليسَ شهادةُ المرأةِ بنصفِ شهادةِ الرَّجلِ ؟. فذلكَ من نقصانِ عقلِها. أليسَ إذا حاضتِ المرأةُ لم تصلِّ ؟. قلنَ بلى قالَ فذلكَ من نقصانِ دينِها ؟. قالَ: ثمَّ انصرفَ فلمَّا صارَ إلى منزلِهِ جاءتْهُ امرأةُ عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ تستأذنُ عليهِ. فقيلَ: يا رسولَ اللَّهِ ، هذهِ زينبُ تستأذنُ عليك. قالَ: أيُّ الزَّيانب ؟. قيلَ: امرأةُ عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ. قالَ: ائذن لها. [فأذنَ لها] ، فقالت: يا نبيَّ اللَّهِ ، إنَّكَ أمرتَنا اليومَ بالصَّدقةِ و عندي حُلَيٌّ لي ،

فأردتُ أن أتصدَّقَ بهِ ، فزعمَ ابنُ مسعودٍ أنَّهُ هوَ و ولدَهُ أحقُّ من تصدَّقتُ بهِ عليهم. فقالَ: النَّبيُّ – صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ – صدقَ ابنُ مسعودٍ ، زوجكِ وولدكِ أحقُّ من تصدَّقتِ بهِ عليهم."

فقد تعدى الأمر إلى الرجال الذين قال عنهم الله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [سورة النساء: الآية 34] يقول أبو عبد الله محمَّد بن أحمد الأنصاري الخزرجي القرطبي : " أي يقومون بالنفقة عليهن و الذب عنهن ، و أيضا فإن فيهم الحكام و الأمراء و من يغزو ، وليس ذلك في النساء ". أما مُحَمَّد بن جرير الطبري فقد قال: " الرجال أهل قيام على نسائهم في تأديبهن و الأخذ على أيديهن ، فيما يجب عليهن لله و لأنفسهم " و أي الرجال المتهمون بالسرقة ؟. فهم أولئك الذين اِشْتُهر غناهم و قدرهم بين الناس ، فإن يُمْسَكَ اَحدهم متلبسا بسرقة تافهة تحط من قدره ، فالأمرِ فَيه مدعاة للنظر ، و تسليط الضوء على هذا السلوك الغريب من غير اَهله ؟.

ألم اَتوجس خيفة من نظرة ذلك الشيخ الوقور الغني صاحب الجسم المتناسق – الذي تناسب جَسَامَتُهُ طُولَهُ ، و الذي اشتهر غناه بين الناس – حين دخل للكُتُبِيَةِ ، ثم لما بلغ زاويتها و هَمَّ أن يلتف إلى الجهة الأُخرى التي يحجب رؤيتها رفوفُ العَرْضِ التي تتوسط الكُتُبِيَةَ رماني بها ، و حين خروجه اِنقبض صدري ؟. و عندما هممت بتحذير عبد اللطيف – لما كان شريكي – ثم تراجعت لما استشرفتُ ما سيحدث و كيف إنه سيبتسم ابتسامته تلك التي ترميني بالحمق ، و يقول في نفسه:

–رمتني بدائها و اَنسلت. أتريد أن تمارسك اِسقاطك النفسي و ترمي شريفا بما هو من خُلُقِكَ و خُلُقِ عائلتك ؟. هل تريدني أن أُصدق أن ذلك الشيخ المترف يُدني قدره لسرقة كتاب من كُتُبِيَتِكَ ؟. هل جُنِنْتَ بِجَرْحِ عدالته ، و هو من هو بين الناس ؟.

ثم بعد فك الشراكة زارني مرة و مرتين و اكثر ، و في اِحداها اِسترقت النظر إلى جيبه ، فشاهدت ذلك الكتاب الذي تتعدى صفحاته الثلاثمئة صفحة ، و لكن خجلي منعني سؤاله عنه ، و في آخر زيارة له لما رأيته برز من وراء رفوف العرض الوسطى ، و هو يرفع كتفه الأيمن و يخفض الأيسر ، و اصابع يديه تحاول تكبيل اَزرار معطفه ، فربطت جأشي ثم قلتُ له – عندما صار في فراغ باب الكُتُبِيَةِ و هو يَهُمُ بالخروج : –

–عمي عبد الستار ألا تدفع ثمنه ؟.

فَاَذكُرُ كيف وقف ، و سُقِطَ في يده ، و بُهِتَ ، و لو قال لي:

–ثمن ماذا ادفع ؟.

لبادرت إلى قولي:

–مجرد مزاح يا عمي عبد الستار.

لكنه سحب الكتاب من جيبه و وضعه على المكتب و قال:

–كم ثمنه ؟.

و انقبض قلبي اَكثر لما رأيت الكتاب جُزْءً من القرآن ، لا يتعدى ثمنه خمسين دينارا ، فقلت:

–اَربعون دينارا.

فناولني قطعة نقدية حديدية ذات المئة دينار ، فقلتُ:

–هل آخذ ثمنه وحده ؟.

-نعم. ماذا قلتَ ؟.

-امزح فقط يا عمي عبد الستار.

ثم خرج و غاب هنيهة ، ثم رجع و دخل و قال:

-لقد وجدت عندي كتابا آخر لم ادفع ثمنه.

ثم ناولني اربعين دينار و قال:

-اعذرني يا ولدي فالضعط عندي مرتفع ، و هو ما يحملني على النسيان و هذا التصرف.

-لا عليك يا عمي عبد الستار.

و تشاء الأَقدار و اَنقل كُتُبِيَتِي إلى رأس الشارع ، و اَجلس أنا و الشيخ عبد الرحيم مؤجري الجديد أمام باب الكُتُبِيَةِ ، فيمر الشيخ عبد الستار فنظر إليه الشيخ عبد الرحيم و قال:

-ها هو ذا الشيخ عبد الستار فرغم غناه و ما بسط الله عليه من النعم إلا إن فيه عادة مذمومة و هي السرقة ، فمنذ اَعوام اَلقى عليه القبض صاحب دكان متلبسا بسرقة في دكانه ، ثم عفى عنه لِقَدْرِهِ بين الناس ، و ليت الأَمر وقف على هذا ، فإني اَعرفه حق المعرفة ، و اعرفه من اَيام ما كان شابا يبيع التبن للناس ، و قبل بيعه كان يرطبه بالماء حتى يزيد وزنه. أليست هذه ظاهرة جاهلية أُعيد اِحياؤها في طبائع المسلمين بعد أن دفنت مع الجاهلية الأولى ؟ ، و تحتاج لتسليط الضوء و دراستها ، و ليتها بدعة حسنة أُضيفت إلى عرفهم بل هي خلق محرم ، و من اشهر ما ذُمَّ من المحرم بلسان معلم الناس الخير ، و القاسم بين الحلال و الحرام ، مُحَمَّد رسول الله – صلى الله عليه و سلم – على رؤوس الأَشهاد ، فقد قال عروة بن الزبير — رضي الله عنهما –" أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ فِي عَهْدِ رَسولِ اللَّهِ – صلَّى اللهُ عليه

وسلَّمَ – في غَزْوَةِ الفَتْحِ، فَفَزِعَ قَوْمُها إلى أُسامَةَ بنِ زَيْدٍ يَسْتَشْفِعُونَهُ، قالَ عُرْوَةُ: فَلَمَّا كَلَّمَهُ أُسامَةُ فيها، تَلَوَّنَ وجْهُ رَسولِ اللَّهِ – صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ –، فقالَ: أتُكَلِّمُنِي في حَدٍّ مِن حُدُودِ اللَّهِ؟!. قالَ أُسامَةُ: اسْتَغْفِرْ لي يا رَسولَ اللَّهِ ، فَلَمَّا كانَ العَشِيُّ قامَ رَسولُ اللَّهِ خَطِيبًا، فأثْنَى علَى اللَّهِ بما هو أهْلُهُ، ثُمَّ قالَ: أمَّا بَعْدُ؛ فإنَّما أهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ: أنَّهُمْ كانُوا إذا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، و إذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أقامُوا عليه الحَدَّ ، و الذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ ، لو أنَّ فاطِمَةَ بنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ ، لَقَطَعْتُ يَدَها. ثُمَّ أمَرَ رَسولُ اللَّهِ – صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ – بتِلْكَ المَرْأَةِ ، فَقُطِعَتْ يَدُها ، فَحَسُنَتْ تَوْبَتُها بَعْدَ ذلكَ وتَزَوَّجَتْ. قالَتْ عائِشَةُ: فَكانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذلكَ فأرْفَعُ حاجَتَها إلى رَسولِ اللَّهِ –صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ."–

قلتُ: هذه الظاهرة الجاهلية التي أُعيد بعثها من جديد في اَخلاق المسلمين لا اَراها إلا مرضا نفسيا اِسمه (هوس السرقة) –كما هو مذكور في الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) – و الذي سُلِّطَ عليه الضوء عام 1938 و " في هذا التاريخ قام اثنان من الأَطباء الفرنسيين "اسكيرول ، مارك" بسك مصطلح هوس السرقة (Kelptonomia) لوصف السرقة التي تتسم بالتلقائية ، و عدم الطوعية ، و عدم القدرة على المقاومة ، و منذ ذلك التاريخ اَصبح يشار إلى هوس السرقة في البحوث العلمية ". و هو ما يذكره ذات المصدر كما بين سببه فقال: " يعرف المرض بأنه ميل مرضي للسرقه ، حيث يجد صاحبة لذة في الحصول على اغراض الغير ، و هو ناتج عن عوامل نفسية ، أي إنه مكتسب لا علاقة للجينات به ، و إنما له علاقة بتكوين الشخصية ، إن الشخص المصاب بهذا المرض لا يستطيع مقاومة نزعة السرقة لدية ، إذ يشعر بقلق و ضغط داخليين إذا لم يسرق ، و صاحب هذا المرض يسمى (بالسارق العصابي). و هو لا يسرق سَدًا لعوز أو رغبته في اِقتناء اَشياء يشتهي

اِقتنائها ، و لا لأنه لا يملك ثمن مصروفاته ، و لكن لمجرد الرغبة في السرقة نفسها ، و إذا سألت هذا الشخص عن الدافع الذي يدفع به إلى السرقة ، يعجز عن اِجابة منطقية."

و عرفت الموسوعة الحرة هذا المرض فقالت: " جِنّةُ الاختلاس أو الدَغَر أو الكلبتومانيا أو جُنُونُ السّرِقَة أو هَوَسُ السّرِقَة (بالإنجلزية: Kleptomania) : هو اِضطراب نفسي يكون المصاب به مدفوعاً ، بما يشبه الحَوْزَ ، إلى سرقة أشياء تافهة الثمن و القيمة ، لا هو بحاجة إليها ، و لا هو بعاجز عن شرائها. و كثيراً ما يلقى بها بعد ذلك أو يعيدها خلسة إلى صاحبها. بذلك يبدو هدفه هو السرقة لا المسروق. ومريض الكلبتومانيا يعرف أن السرقة جريمة و يشعر بعدها بذنب و اكتئاب، لكنه يفشل في مقاومة اندفاعاتها كلما استبدت به ، و يشعر بلذة عاجلة عقب فعل السرقة. وهي حالة مرضية شديدة الندرة و أغلب المصابين بها من الإناث. و قد تكون مصحوبة بالقلق العصبي أو اِضطرابات التغذية مثل فقدان الشهية العصبي و الشره العصبي ".

الفصل التاسع عشر

و هل توقف الأمر على خلق السرقة الرذيل الذي استرسلت طُغْمَةٌ مِنَ النَّاسِ على التخلق به ، فمهما علا قدرهم و شرفهم فلا يتعدى عامتهم و جُهَالَهُمْ و سفلة القوم ، و ربما صار هوسا من سارق عصابي ؟. بل تعدى الأَمرُ خلق السرقةِ من عامتهم و سوادهم و أَصاب خاصتهم و نخبتهم و عِلَيَةَ القوم امراضٌ خُلُقِية أُخرى و نفسية ، مثل النرجسية ، و الكِبْرِ ، و الأَذي للغير ، و تتبع عورات الناس و الإِسترسال في ذلك ، فهذا مُحَمَّد الكُتُبِيُّ الذي يشار إليه بالبنان و الذي فتح الله عليه أَبواب نعمه ، و بسط له في رزقه ، و رغم سخائه – فلا أَنسى المساعدة التي قدمها لي حين كنت بحاجة للمساعدة ، و ذلك حين وهبني مئتي أَلف دينار لما كنت عنده أَجِيراً ، و ذلك لما استأَجرت بيتا ، فكانت لي رفدا و إِعانة غطت كلفة شراء لوازم البيت ، من فرن ، و ثلاجة ، و تلفزيون ، و فُرُشٍ حمتنا من عَضَّةِ البرد و قرسته – ، و لكنه في المقابل لم يترك شراكتي مع عبد اللطيف تُعَمِّرُ طويلا بل فضها مع خسارة كلفتنا مليون و ستمئة أَلف دينار ، و التي هي رأس مالنا ، مع حوالي الثمانمئة ألف دينار ديون الغارمين ، و التي لَمَّا جَامِعَتُهَا تُقَيِّدُ أَيدينا إلى رقابنا إلى اليوم ، و ليت الأمر توقف على خسارة المال فقط ، بل تعدى إلى العداوة التي زرعها بينا – عبد اللطيف و أنا –، و عداوة الموزعين لنا ، و فوق ما ذُكِرَ عدالتنا و أَمانتنا اللتان جُرِحَتَا ، و كانت – خسارتنا المالية و فقدان عدالتنا – ثمرة لتدخله في شؤوننا ، و في تجارتنا تدخلا كله فيه شرّ ، و العجيب إنه يميل للتعفف ، و يحسب على التيار المتدين ، و يعده البعض زعيما من زعماء نضالهم السياسي ضد الظلم.!

و رغم رجاحة عقله ، و حنكته ، و ثقافته الواسعة التي تسمح له استشراف عاقبة الفعل أو مغبته متى ابتدر الإنسان إلى القيام به ، و حين يفرغ منه ، ألا يدري مِما هو معلوم من الدين بالضرورة أنه ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8) ﴾ [سورة الزلزلة] ، أي يرى ثواب فعل الخير في الآخرة و الذي عمله في الدنيا ، و لو كان صغيرا لا يتعدى وزنه ذرة من خير ، و من كان عمل في الدنيا وزن ذرة من شر يرى جزاءه فيها ، و ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (85) ﴾ [سورة النساء] إذن من يؤازر و يقوي الخيرين ، و يكثر من سوادهم و يكون شافعا حسنا لوتر جماعتهم ، يكن له نصيب و حظّ و ضِعف من الأجر ، و من يكثر سواد الظالمين و يكون شافعا لِوِتْرِهِمْ يكن له كِفْلٌ منها ، و حظّ و جزاء مساوي لتلك المُؤَازَرَةِ و التقوية. نعم. قال ابْنُ السّائِبِ و مُقاتِلٌ: " الشَّفاعَةُ الحَسَنَةُ هُنا الصُّلْحُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ، و السَّيِّئَةُ الإفْسادُ بَيْنَهُما و السَّعْيُ بِالنَّمِيمَةِ ". و قال الحسن البصري:" ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً ﴾ كتب له أجرها ما جَرَت منفعتها ". اِنتهى قوله – رحمه الله – و مما هو مفهوم من سياق كلامه – رحمه الله — إنه — في المقابل – ﴿ وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً ﴾ فَعَلَيْهِ وزرها و وزر من عمل بها ، و كتب عليه اِثمها ما ضرت ثمرتها ، و دليل ذلك قول رسول الله — صلى الله عليه و سلم –: " مَن سَنَّ سُنَّةً حَسنةً فَعُمِلَ بِها ، كانَ لَهُ أجرُها وَ مِثْلُ أجرِ مَن عملَ بِها ، لا يَنقُصُ مِن أجورِهِم شيئًا و من سنَّ سنَّةً سيِّئةً فَعُمِلَ بِها ، كانَ عليهِ وزرُها وَوِزْرُ مَن عملَ بِها من بعده لا ينقصُ من أوزارِهِم شيئًا

". فلا يخفى على اَحد ما في هذا الحديث من الحثِّ على البَداءةِ بالخيرِ ، ليُستَنَّ به ، و التَّحذير مِن البَداءةِ بالشَّرِّ خوفَ أن يُستَنَّ به. هذا فيما يخص عاقبة الخير و مغبة الشر في ثمرة الفعل حين يفرغ الإنسان من فعله.

و إن كنت اَرى مُحَمَّدا الكُتُبِيَ من اَصحاب قلوب القسم الرابع المذكورين في حديث حذيفة بن اليمان — رضي الله عنهما –، الذين تقوم في نفوسهم معارك طاحِنَةٌ شَدِيدَةٌ بين الخير و الشر ، فلكل منهما اَيام دولة من حرب ضَرُوسٍ ، فَمَنْ اِستحوذ منهما على قلبه كان عبدا له ، فَعَنْ حذيفة بن اليمان — رضي الله عنهما – قال: " الْقلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ ، فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ ، فَذَلِكَ قَلْبُ المُؤْمِنِ ، وَ قَلْبٌ أَغْلفُ، فَذلِكَ قَلْبُ الكَافِرِ، وَ قَلْبٌ مَنْكُوسٌ، فَذلِكَ قَلْبُ المُنافِقِ ، عَرَفَ ثمَّ أَنْكَرَ، وَ أبْصَرَ ثُمَّ عَمِيَ، وَ قَلْبٌ تَمُدُّهُ مَادَّتَانِ: مَادَّةُ إِيمَانٍ، وَ مَادَّةُ نِفَاقٍ ، وَ هُوَ لما غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْهُمَا."

أليست هذه الطبائع متلازمةَ اَمراض خُلُقِيَةٍ ، و نفسية ، و نفاقا خفيا ، فلا يدركها اَصحابها بذاتهم ؟ .

نعم ، فمن الناس — و ما اكثرهم – من يمارس اِسقاطا نفسيا ، و ينكر اَخلاقا ، و يرفع عقيرته ذاما لها ، و يمدح نفسه متنزها عنها ، و ما اكثر ما تراه مستغربا ، و مستبشعا اَصحابها ، و إذا صبت في مصلحته رضيها لنفسه ، و اَغتنمها مختطفا اِياها ، و لم يترك الفرصة تفوته ، فاَذكر جيدا واحدا من هؤلاء الناس ، و هو اَكرم ذلك الشاب النحيف و الطويل قليلا ، و صاحب البشرة السمراء ، حين كنا نعمل معا بمصنع الحديد ، حيث كنتُ عاملا متعدد الخدمات ، و كانت مهنته لحاما فرغم اِنكاره على بعض العمال الآخرين – الذين كانوا يعملون معنا و هم في الأصل متقاعدون من مهنهم السابقة — و من بينهم رئيس

العمال داود ، فاذكر جيدا ذلك المساء حين انتهى دوام عملنا فركبنا أنا و هو سيارة عمار لنعود لبيوتنا ، و قبل لحاقي بهم و ركوبي معهم شاهدني أُحدث داود رئيس العمال.

-هل هذا رئيس مجموعتكم.

-نعم ، و هو اِنسان طيب و صاحب خُلُقٍ ، و دركي سابق ، و متقاعد.

فانفجر أكرم ، و رفع نبرته قليلا عن مستوى نبرته حين طرح السؤال.

-اعذرني يا آدم ، فأنا اَجد الاَمر غريبا ، كيف لمتقاعد من الدرك يرضى لنفسه بأن يتنازل عن مستواه المعيشي ، و علو رتبته بين الناس ، ليعمل رئيسا لعمال جمع قمامة الحديد في هذا المصنع الرديء ، و الذي استقال منه الكثير ؟. و لا أُخفيك سرا فإني ساترك العمل فيه آخر الشهر و ذلك حين يتم اِعادة تفعيل بطاقة الشفاء خاصتي ؟.

-ربما هو بحاجة للمال.

-لا تحاول يا آدم ، اِيجاد الاعذار له ، فهذا لا اسميه غير الطمع ، و الطمع يضر بصاحبه و لا ينفعه ، ما هذا الجري وراء الدنيا جري الوحوش فيها ؟. اظن أن تقاعده يصل إلى خمس و اربعين اَلف دينار ألا يكفيه هذا أن يعيش عيشة راضية ؟. فإني اعرف من أُجرته تصل إلى خمسة و عشرين اَلف دينار ، و لا يملك دخلا غيرها ، فبها يعول اَهله ، و بها يأكلون ، و يشربون ، و يلبسون ، و كل هذا يُضَافُ لِكراء البيت ، و إني اَعتقد اِعتقادا جازما مثل ما أنا أُشاهدك و اَنت تشاهدني ، أن من أُجرته خمسة و عشرين اَلف دينار ستكفيه خمسة و عشرون اَلف دينار ، و أن من اجرته خمسة و اربعين اَلف دينار ستكفيه خمسة و اَربعون اَلف دينار ، و من طمع في زيادة مدخوله سلط الله عليه الدنيا فزادت مصاريفه ، و لن

يدخر منها دينارا واحدا ، و لن يوفر منها سنتيما واحدا، و لن يرث منها إلا التعاسة ، و الشقاء ، و التعب ، و النصب. جاء رجلٌ إلى الإمام أبي حنيفة فقال:

–يا إمام ، آخذُ الخمسَة دراهِمَ كأجرَة لِي و لعائلَتِي، و أجرَتِي لا تكفِينِي فماذا أفعَل ؟.

فقالَ الإمام:

–إذهب إلى صاحِب العمَل، و قُل له بأن يجعَلَ أجرَتَكَ أربعَةَ دراهِمَ فقط.

استغرَبَ الرَّجلُ كثيراً، و قالَ:

–يا إمام ، اَقولُ لكَ: الخمسَةَ دراهِمَ لا تكفِينِي و أنت تقولُ: ليجعَلها صاحِب العملِ أربَعَةً.

فقالَ له الإمام:

–إفعَل كما اَمَرْتُك.

فذهَبَ الرَّجلُ إلى صاحِب العمَل، و طلَبَ منه أن يجعَلَ أجرَتهُ أربعَةَ دراهِم.

غاب الرجل بضعة اشهر ثم عادَ إلى الإمام، و قالَ لهُ:

–لقدْ فعلْتُ كما أمَرْتنِي ، و لكنّ الأربَعَةَ دراهِمَ لا تكفِينِي ، و الحال اِنقلب من سيىء إلى اَسوء ، فماذا أفعَل ؟.

قالَ له الإمام:

–إرجِع إلَى صاحِب العمَل، و اطلُب منه أن يجعَلَها ثلاثَةَ دراهِمَ فقط.

استغْرَبَ الرَّجُل مرَّةً أخرَى ، و قال:

–يا إمام ، لَمَ تكْفِنِ الاَربَعَةُ !. فهلْ ستكفِنِي الثلاثَة ؟.

قالَ الإمام:

-إفعل كما أمَرْتُك.

ففعلَ الرَّجُلُ مثلَما قالَ الإمام.

ثم غاب بضعة اَشهر ، ثم عادَ فِي المرَّةِ التالِيَة سَعِيداً جِداً و الإبتِسامَة تمْلأ وجهَه ، و قالَ للإمام:

-قد كفَتْنِي الثلاثة دراهِمَ يا إمام ، لكِنْ كيْفَ ذلِك؟.

قالَ الإمام:

-لقدْ كنْتَ تعمَلُ علَى قدْرِ الثلاثةِ دراهِمَ ، و لكنَّكَ كنتَ تأخُذُ خمسَة ، فخلَطْتَ عملكَ بالحَرام فلَمْ تعُدْ تكْفِيك ، فلمّا عُدْتَ تأخُذ علَى قدْرِ عملِكَ اَصبَحَت أُجرَتُكَ تكْفِيك.

-يا اكرم دع الخلق للخالق .

و كنا نعمل في هذا المصنع يوما و نرتاح يوما و بعد يومين من رجوعنا ، و حين خروجنا مساء أُخبرتُ أن أكرم تفاوض مع ادارة المصنع على العمل كل يوم لمدة اثنتي عشرة ساعة كل يوم مقابل أُجرة تقدر بسبعين ألف دينار للشهر ، بعدما كان يعمل يوما و يرتاح يوما بأُجرة تبلغ خمسة و ثلاثين اَلف دينار للشهر !. فقلتُ محدثا نفسي:

-عجبتُ لِاَمر الإنسان.!

بقي آدم مستأجرا محل كُتُبِيَتِهِ في مكانه الذي اكتراه هو عبد اللطيف لمدة عامين ، لكن موقعها لم يكن بالموفق ، حيث عانى من قلة الزبائن ، و تعارضت كلفة إيجار المحل المرتفع السعر مع قلة مداخيله ، فقرر استئجار محل يوجد قريبا منه ، و يقع بشارع عام و رئيسي ، و ليس فرعا من فروع الشوارع ، فاستأجره آدم.

الفصل العشرون

في محل الكُتُبِيَةِ الجديدة اَحس آدم بنوع من الاستقرار العملي ، فبدأت تتبين له الطريق التي يسلكها ، كما شعر بسيطرته على الوضع و سير الأُمور فيها ، و إنه لا يخبط خبط عشواء ، و إن كان قد خسر معاونين أكفاء من الموزعين الذين يمدونه بالسلعة الضرورية ، فإنه كسب ثقة بعضهم الآخر ، على اَمل أن يعيد بناء ما تهدم من جسور التواصل مع الموزعين المعادين له ، كما بدأ يكسب ثقة زبائن و يعدهم من الزبائن الأَوفياء له ، و اَنطلق في توطيد العلاقات مع من يحيطون به في مقر الكُتُبِيةِ الجديد ، من سكان ، و اَصحاب محلات يحيطون بالكُتُبِيَةِ ، و مع ذلك وجد نفسه اَمام تحديات كبيرة ، و على رأسها دفع ايجار الكُتُبِيَةِ الذي يبلغ مليون دينار سنويا ، و الوفاء للمتعاملين معه – من الموزعين و بائعي القرطاسية بالجملة — بمستحقاتهم و ديونهم في موعدها ، مع اقتطاع أُجرة عمله كاَجير و المقدرة بخمسئة ألف دينار سنويا ، و كل هذه الإِلتزامات يقتطعها من تجارة إذا كان صاحبها يقصد تغطيتها بهذا المبالغ الكبيرة ، فعليه الإِعتماد على بيع الكمية الكبيرة من السلع و كله مقابل هامش ربح قليل ، و مع هذا كان يسلك الطريق الصحيح في استدراك تلك الإِلتزمات ، غير أن الحظ يسيطر على اَقدار الإِنسان ، فمن كان ذا حظ عظيم فاز بما يرجوه ، أما من كان ذا حظ عاثر فإن الرياح تجري بما لا تشتهيه السفن ، حيث رماه حظه بين يدي مؤجر لا يرحم ، و صاحب قلب ميت لا يملأ جوفه غير التراب ، إسمه الشيخ عبد الرحيم قد بلغ من العمر عِتِيًا ، و تعتريه اكثر من علة ، و ضعيف الجسم ، لكنه مع هذه العلل لَمَا تغادر الدنيا و خضرتها قلبه ، فلا يحب الخير لاَحد حتى لاَولاده ، فرغم موقع بيته الذي يقع على عتبة سوق شهيرة بالبلد بكامله ، و طابقه الأَرضي الذي هو عبارة عن اَربعة

مستودعات متفاوتة المساحة ، و رغم تأجيره لثلاثة منها ، فلا يقل ايجارها سنويا مجتمعة عن المليون و الثمانمئة ألف دينار ، فضاقت عينه على مقهى اَبنيه التي تحتل مستودعه الرابع ، و لم يتركهما و شأنهما حتى انتزع منهما تلك المقهى ، و رضي بتبطلهما على أن يعملا بها ، و حجته في ذلك

-اِنهما غِرَانِ لا يعرفان كيف تدار الأُمور ، و كيف تسير الحياة رغم سنهما الكبير.

ثم اَجّر المقهى لصاحب مطعم بلميون دينار سنويا فحولها مطعما.

سبحان الله !. خُلُقٌ قد نبه الله تعالى عليه في محكم تنزيله ، و ضرب لنا قصة لذلك ، فقال عزوجلّ : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (25) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (26) ﴾ [سورة ص] ، قال مُحَمَّد بن اَحمد الكلبي الغرناطي و المشهور بابن جُزَيّ - في تفسيره (التسهيل لعلوم التنزيل) -: " هذه حكاية كلام أحد الخصمين ، و الأخوة هنا أخوة الدين، و النعجة في اللغة تقع على أنثى بقر الوحش و على أنثى الضأن، و هي هنا عبارة عن المرأة ، و معنى أَكْفِلْنِيهَا: أَمْلِكْهَا لي. و أصله: اِجْعَلْهَا في كفالتي ، و قيل:

اِجعلها كِفْلِي. أي نصيبي ، و معنى عزّني في الخطاب أي: غلبني في الكلام و المحاورة. يقال: عَزَّ فلان فلاناً إذا غلبه ، و هذا الكلام تمثيل للقصة التي وقع داود فيها. و قد اِختلف الناس فيها ، و أكثروا القول فيها قديماً و حديثاً ، حتى قال عليّ بن أبي طالب ﷺ: من حدّث بما يقول هؤلاء القصاص في أمر داود – عليه السلام – جلدته حَدَّين لما ارتكب من حرمة من رفع الله محله. و نحن نذكر من ذلك ما هو أشهر و أقرب إلى تنزيه داود عليه السلام: روي أن أهل زمان داود عليه السلام ، كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته ، و كانت لهم عادة في ذلك لا ينكرونها ، و قد جاء عن الأنصار في أول الإسلام شيء من ذلك ، فاتفق أن وقعت عين داود على امرأة رجل فأعجبته ، فسأله النزول عنها ففعل ، و تزوّجها داود عليه السلام فولد له منها سليمان عليه السلام ، و كان لداود تسع و تسعون امرأة ، فبعث الله إليه ملائكة مثالاً لقصته ، فقال أحدهما: إن هذا أخي له تسع و تسعون نعجة. إشارة إلى أن ذلك الرجل لم تكن له إلا تلك المرأة الواحدة ، فقال: أكفلنيها. إشارة إلى سؤال داود من الرجل النزول عن امرأته ، فأجابه داود عليه السلام بقوله: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، فقامت الحجة عليه بذلك ، فتبسم الملكان عند ذلك وذهبا ، ولم يرهما، فشعر داود أن ذلك عتاب من الله ، على ما وقع فيه ".

و من بالغ في خلق الطمع لا بُدَّ أن يُكْوَى بنار البُخْلِ ، و حينها يصير رزقه الذي يهبه الله له حراما عليه ، فرغم ما فتح الله عليه من الخير إلا إنه يقتر على نفسه تقتيرا ، أما اَبناؤه فيعيشون في ظنك من العيش و عوز في جناحه ، و حجته في ذلك كما يقول:

–فليعملوا مثل ما عملتُ ، أما ما اَجمعه من مال فليتصرفوا فيه بعد موتي كما يشاؤون.

و له من الأبناء خمسة كلهم متزوجون يقطن اربعة منهم عنده ، فكل واحد منهم بأُسرته يسكن غرفة صغيرة من غرف بيته ، و إنه اضطر اَحدهم لتزويج ابنته رغم سنها الصغيرة و طفولتها لضيق الغرفة عليهم ، اَما الخامس فهو معلم و قد اِنفصل عن والده في السكن.

الشيخ عبد الرحيم – هو كذلك – ضحية طمع الإِنسان و الجشع في سياسة دولة ، يقودها بشري جشع جعلت منه ثقافته و اَطماعه آلة لا اِنسانا ، و كانت استعمارية لبلدها و شعبها و استدمارية لما اِحتلته من الدول ، حيث اِتبعت سياسة التجويع للشعوب التي اِحتلتها ، فكان من الآثار الجانبية و السلبية لهذه السياسة تعزيز غريزة البقاء في ذلك الاِنسان المستدمرة اَرصه ، مما جعل خُلُقَهُ اقرب إلى الخلق الحيواني ، و تغلبت حاجاته الجسدية على حاجاته الروحية ، فمن اَوصافه التي رسخت بعقل آدم عن تلك الفترة قول الشيخ عبد الرحيم:

–كان اَحدنا إذا لم يعمل باتَ بالشَرّ.

و (الشَرُّ) في كلامهم يطلق على الجوع ، لذا من اَمثالهم السائرة و المشهورة على اَلسنة الناس ، و تُقَالُ كقاعدة مهمة في الحياة لا تشبهها حقيقة ، و تحذير فلا بُدَّ من تذكره دائما: (القَاعِدُ ما اَعطته أُمه كِسْرَةً). فلو دققنا النظر في هذا المثل السائر على اَلسنة الناس ، و المحفوظ عندهم عن ظهر غيب ، لكشفنا ما خفي فيه من القسوة ، فمتى كانت الأُم منبع الحنان تمنع الزاد عن اَبنها الغَرِثِ ؟. و لو لِتَبَطُلِهِ على رغم غِنَاه و قوته التي تمكنه من العمل الشاق ، فلو منع كل الناس ذلك الفتى الأَكل ، فلن تقدر الأُم على ذلك لقوة طبيعة الحنان في قلبها ، لكن ذلك المجتمع الحيواني حاول بل اِستطاع أن ينتج والدين يمنعون اَبناءهم حتى لقمة الأَكل إذا لم يكن صاحب عمل أو مهنة .

و من كلامه الذي يكشف حقيقة ذلك الزمن الحيواني بِامتياز قوله:

–كان الوالد يزوج بناته – و هن اَطفال مخافة الشر و الفقر ، لأنه لا يجد من القوت ما يطعمهن ، و من الكساء ما يسترهن — لأول خاطب طالب يد اِحداهن ، أما الذكور فيتحمل كل واحد مسؤوليته منذ نعومة اَظفاره.

فقال آدم محدثا نفسه:

–فهذا ما يفسر لي قرب سن الولد البكر من سن أُمه في كثير من الأُسَرِ ، ففي بعض الحالات لا يتعدى الفارق الاِثني عشر عاما.

و هذه الثقافة التي تعزز في الانسان غريزة البقاء الحيوانية ، و تشجعها ، كانت تتغلب على تفكير اِنسان تلك المرحلة ، و توجهه في الحياة ، فصعنت في المجتمع من اَمثال الشيخ عبد الرحمن — و ما اكثرهم — ، بل كانت سمة ، و ثقافة غالبة و سائدة ، و عُرْفًا يحكم بقوة النار ، حتى اَصبحنا نرى والدين يقسون على اَولادهم قسوة الطير على فراخه ، فمن اَحس بقوته منها قَرَّبَهُ ، و اطعمه ، و قواه ، و اعتنى به ، و من اَحس بضعفه اَبعده ، فرماه من العش كما يرمي القشة الوسخة فيه ، و لم يبال بصراخه ، و آلامه ، و عذاباته ، و بطش الوحوش به ، حتى يلاقي حدفه ، و ربما اَمام عينيه و هو لا يحرك ساكنا ، فصرنا نسمع عن اَباء يرمون اَبناءهم و اَزواجهم بالطريق ، و من لم يستسلم لذلك الطرد جُلِبَتْ الشرطة لِإلزامه ، و اَحدهم ينام الليالي المتواصلة ، و يقضي الأَيام الطوال طاوي البطن و اَهل بيته و اَولاده ، رغم سكناه مع أُمه و اَبيه و شقيقه ، فَغَلَى المجتمع بنار عداوة بين الآباء و الأَبناء ، و كثرت القصص عنها ، و تنوعت الأَحداث ، أما بعضهم فيمارس هواية تجريب صبر الأَبناء ، و قدرة برهم رغم اِجلالهم له ، و طاعته طاعة عمياء ، و خفض جناح الذل له ، فلا تراه

إلا ضاربا و شامتا لهم ، و جاعلا منهم غرضا يرميهم بسهم عقده النفسية ، و التي لا يعمل هو أنها اَمراض مثلها مثل الجنون ، أما اَحد الابناء فقد رضي على سكنى المقبرة على سكنى البيوت ، و رضي بجيرة الأموات على جيرة والديه ، و اِشقائه ، و الاحياء من بني البشر ، و السبب كان والدا لم يجد غير ابنه امامه يرميه بقنابل كلامه السام ، و ما يعينه في ذلك و يقويه هو اِمتلاك بطاقة (حق الرفض) أو (فيتو النقض الوالدي) ، اسمه (طاعة الوالدين) ، فيسيء اِستعمال ذلك الحق " جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إلى النَّبِيّ – صلَّى اللهُ عليه وسلَّم – فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ فَما نُقَبِّلُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ – صلَّى اللهُ عليه وسلَّم –: أَوَأَمْلِكُ لكَ أنْ نَزَعَ اللَّهُ مِن قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ! ". و عن أَبي هُرَيْرَةَ قَالَ: " قَبَّلَ رَسولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ – الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ و عِنْدَهُ الأَقْرَعُ بنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا ، فَقَالَ الأَقْرَعُ: إنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ ما قَبَّلْتُ منهمْ أحَدًا ، فَنَظَرَ إلَيْهِ رَسولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ – ثُمَّ قَالَ: مَن لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ."

في عام آدم الثاني مستأجرا عند الشيخ عبد الرحمن ، و في يوم من الأيام ، و كعادته في كل صباح جالسا يتحدث معه اَمَامَ الكُتُبِيَةِ ، قال الشيخ عبد الرحمن لآدم:

–إلتقيتُ مفوضي شركة الاِتصالات و تفاوضوا معي على اِستئجار سطح بيتي ، ليثبتوا عليه جهار الإستقبال و الإرسال الخاص بشركتهم ، لمدة ثلاث سنوات و باستئجار قدره اَربع و عشرون ألف دينار للشهر ، مع عقد قابل للتجديد و التمديد ، و لكني اَخبرتهم قائلا: " بل بثلاثين ألف دينار و لمدة عامين ، ثم اَرى رأي في ما يخص تجديد العقد و تمديده ". و هذا هو ما اَخبرتهم به بالحرف و الواحد ، و هو قراري الذي لا رجعة ، فلا يرثني اَحد و أنا حي أُرزق.

فقال آدم في نفسه:

-وصلتني رسالتك.

و هيأ نفسه على سماع قول الشيخ عبد القادر في أي لحظة:

-أُريد محلي فعليك بإفراغه اليوم.

و هذا ما حدث ، فلما بقي على إستئجاره للمحل ثلاثة اشهر اتهمه بأنه لم يدفع له نصف مبلغ الاستئجار للنصف الثاني من السنة ، و المقدر بخمسمئة ألف دينار ، ثم حين بقي من منفعة استئجاره قرابة شهر كامل قطع عنه الكهرباء ، و لا تكاد تغيب شمس إحدى تلك الأيام القلائل إلا وقع خلاف بينهما ، و نزاعات و تهديدات ، و تسبب له في خسارة بقدر الأضرار الناجمة من تصرفات الشيخ عبد الرحيم ، و في يوم الخميس الثاني عشر من شهر مارس سنة ألفين و عشرين - ، و بعد أن رد لكل متعامل معه سلعة بقدر دينه معه ، و افرغ المحل فوجد بحوزته سلعة تقدر بستمئة ألف دينار ، لا يملك محلا آخر يذهب بها إليه ، فجمعها في صناديق كرتونية ، و ذهب بها إلى بيته الصغير ، و المقدر مساحته بخمسة و سبعين مترا ، حيث احتجز بها غرفة من غرفه الثلاث ، و ضيق على أهل بيته معيشتهم بهذا الفعل الطارئ و المفاجئ ، و في ظهر ذلك اليوم و بينما سلمه المفتاح قال الشيخ عبد الرحمن:

-لا تحمل تهديداتي و كلامي على محمل الجد ، فإني رجل أتكلم فقط.

فنظر آدم إليه و قال:

-فإن كان ما اتهمتني به حقا فلا تسامحني به ، و عند الله يلتقي الخصوم.

ثم غادر آدم المحل يحمل بِضْعَ عشرة نسخة لكتاب حققه اَحدهم في صندوق كرتوني صغير و متوجها لمكتب المحقق ، و حينما غشيه سَلَّمَ

-السلام عليكم.

-و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته. هذا أنت آدم لماذا لم تتصل بي هاتفيا.

-لسوء حظي فإنني بحثت عن رقمك في سجل اَسماء الهاتف فلم اعثر عليه ، و كما اَخبرتك من قبل فاليوم سلمت مفاتيح المحل لصاحبها.

-صحيح اِنك اخبرتني من قبل عن قرب انتهاء مدة اِستئجارك للمحل ، لكنك اَتعبت نفسك بحملها.

-لا عليك الاَمر هين و ليس بذاك الشأن.

-و أين تريد الاستئجار هذه المرة ؟.

-لا أُخفيك شيئا ، فإنني اكتشفت من خلال تجربتي الصغيرة في تجارتي ، إنه من اَسباب نجاح المشروع التجاري اِمتلاك الموقع و استقراره ، و أنا لا اَملك هذا الركن القوي للنجاح ، و إنني قررت أن ابتعد عن التجارة ، و التوجه للعمل اَجيرا حتى يتوفر لي هذا الركن القوي ، و ما زاد في عزيمتي على هذا القرار ، هو ما عانيته مع مشاكل الكراء ، و سعره المبالغ فيه في هذه المدينة ، و إن التجارة التي احترفتها قد فاجئتني بكساد سوقها ، بعد توهم بإنها سوق نافقة.

-صحيح و ليست فقط تجارة الكتب تمر بأزمة و ركود ، فالاقتصاد العالمي بكامله يعاني من اَزمة حادة منذ سنوات ، و جاء هذا المرض الذي يسمونه (فيروس كورونا) ليقضي على اَنفاسه الأخيرة ، فالاَمر لا يبشر بالخير.

-هل من جديد في الموضوع ؟.

-إنه صدر قرار رئاسي اليوم جاء فيه: " أمر رئيس الجمهورية السيد عبد المجيد تبون ، بعد اِستشارة الوزراء المعنيين ، بإغلاق مدارس التعليم الابتدائي و المتوسط و الثانوي ، إبتداء من اليوم الخميس 12 مارس 2020 ، و لغاية اِنتهاء العطلة الربيعية في الخامس من الشهر القادم". "كما أمر الرئيس تبون بإغلاق الجامعات و معاهد التعليم العالي ، ماعدا الكليات التي مازالت تجري فيها الاِمتحانات الاِستدراكية "." ويشمل هذا القرار أيضا حسب ذات المصدر، المؤسسات التكوينية التابعة لقطاع التكوين و التعليم المهنيين و مدارس التعليم القرآني الزوايا و أقسام محو الأمية و جميع المؤسسات التربوية الخاصة و رياض الأطفال. وتمت الإشارة إلى أن هذا القرار يأتي، كإجراء احترازي للوقاية من تفشي وباء فيروس كورونا.

" و إن (وكالة الانباء الجزائرية) نقلت خبر الأمر و القرار.

فاستبشر آدم بالخبر و سُرَّ كثيرا و قال في نفسه:

-﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216) ﴾ [سورة البقرة]

-هل من اخبار جديدة عن سورية ؟.

-للأسف لا شيء يُذْكَرُ غير اَخبار الحرب.

-اِني اَتذكر زيارتي جيدا اِلى دمشق و جولتنا الرائعة في اَحيائها العتيقة ، و خاصة جلوسنا في مكتبتك الرائعة ، آمل أن تكون باقية و سالمة و أن الحرب لم تصبها بمكروه.

- للاَسف لم يبق منها شيء غير ذِكْرَاهَا ، و هي ثلاث صور عندي الآن.

الخاتمة

لِكُلِّ شَيْءٍ إذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ

فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشِ إِنسانُ

هِيَ الأُمُورُ كَما شاهَدتُّها دُوَلٌ

مَن سَرّهُ زَمَن ساءَتهُ أَزمانُ

وَهَذِهِ الدارُ لا تُبقي عَلى أَحَدٍ

وَلا يَدُومُ عَلى حالٍ لَها شانُ

في سنته الثامنة و الأربعين اِشتكى عَلِيٌّ اَلَمًا قويا في الصدر ، و وخزا شديدا بقلبه يشبه وخز الإِبَرِ ، و ضيقا في النفس كمن يتنفس في مكان شاهق ، و آلاما إما في الرقبة أو الكتف أو الذراعين ، و لما طال اَمر تلك الأعراض توجه للطبيب ، و بعد عدة فحوصات سريرية و مخبرية:

-للأسف فانت تعاني من دَاءِ الشَّرْيَانِ التَّاجِي.

-و ما هو دَاءُ الشَّرْيَانِ التَّاجِي هذا ؟.

–هو تصلُّب الشَّرْيَانُ الذي يشتمل على ترسُّباتٍ دهنيَّة في جدرانه الداخلية، و يمكن أن تتقدَّم إلى تضيق ، و حتى إيقاف جريان الدَّم في الشّريان ، و إنك تعاني من اِنسداد شريانين من شراين القلب.

فَوَجَمَ علي و لم ينبس ببنت شفة.

–و الداء في حالة متقدمة مما يترتب عليه اِجراء عملية جراحية في اَقرب وقت.

–عملية جراحية.!

–للأسف الأمر كما سمعت ، و مما يزيد في خطورة هذا المرض إلا لم نتداركه بالعملية الجراحية هو سنك المتقدمة.

–و إن لم أُجري عملية جراحية.!

–إذن أنت معرض في أي لحظة لذبحة صدرية ، أو سكتة قلبية ، و لا تنس الآلآم الحادة التي تلازمك ليلا و نهارا.

–حسنا سوف انظر في الأمر ، و لا يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا.

غادر علي عيادة الطبيب و لم يعد إليها ، و صمت عن مرضه فلم يخبر اَحدا إلا زوجته ، التي لم تتركه حتى اَخبرها بنتائج الفحوصات التي اَجراها ، و رغم توسلها و حَثِهَا له على اِجراء العملية فإنه لم يجرها ، و كتم السر عن والديه مخافة ازعاجهما ، و أن يصيبهما الهَمُّ من اَجله ، و من بينهما أُمه الذي خصها بذلك الإِخفاء ، و التي عانت ما يكفيها من فقدان الولد و ما اكثرهم ، و على رأسهم حمامة قلبها ، و مرت سنتين على فحصه الذي اَجراه ، صابرا على تلك الآلام الحادة و الضيق في التنفس ، و في يوم من أيام سنته الخمسين ، اَصبحت الآلام حادة لا تطاق ، و ضاق نفسه فلا يتنفس إلا بصعوبة ، و كأن روحه

تُسلب منه ، مما اِضطر لدخول مشفى المحافظة ، و في يومه الثالث عندما ذهب والده عبد القادر لزيارته ، فلما وقف في فراغ الباب و نظر إلى سرير ابنه عليا وجد مكانه فارغا ، فسأل المريض الذي يقاسمه الغرفة.

-أليس هذا سرير علي.

-بلى.

-هل خرج إلى بعض حاجته ؟.

-ابنك علي قد صلى الفجر في وقتها ، ثم استلقى على سريره و سلم الأَمانة لبارئها و لصاحب الأَمانه ، فعظم الله اَجرك و غفر لميتكم.

لما سمع الشيخ عبد القادر الهرم و المتوكأ على عصاه هذا الخبر وجم و لم يقدر على اِستعاب الخبر ، فطلب من الممرضة أن تريه ولده.

-أرجوك أود رؤية ابني.

-تفضل يا عم.

و سارت اَمامه إلى غرفة التبريد حيث الموتى ، فلما شاهد ابنه البكر يرقد على سرير رقدته الأَخيرة مبتسما ، اَجهش بالبكاء و قال:

-مقدر لي أن اَدفن اَبنائي ، و ليس هم من يدفنونني فالحمد لله.

لما سمعت الأُم بخبر وفاة ابنها عليا بكت بكاء مريرا من غير دموع ، و التي جفت من مصائبها الكثيرة و بلائها السرمدي ، و كانت تقول بعدها.

-إن عليا منذ بضع سنينه الأَخيرة لزم الدعاء لله ، بأن يعجل بوفاته ، بعد أن لم يكن فتى مثله مقبلا على الدنيا ، و إن الله سمع دعاءه فرحمه الله برحمته الواسعة.

ثم تصمت و تبكي بكاء صامتا ، و تمسح دمعات عينها التي جادت بها بعد طول جدب ، و جفاف دمع سببه طول سخاء و بكاء سَحٍّ على ابنتها حمامة ، كما تجود و تسح به الديمة المعصرة من الغَيْمِ و المطر الهَطْلُ.

أما آدم فلا ينكر أنه كانت لعلي عادات سيئة من تدخين ، و نظام غذائي غير صحي ، و معاقرة خمر – غفر الله له ذلك – ، ما تسببت في مرض موته من الناحية الجسدية ، لكنه يعتقد اعتقادا جازما كما أنَّ دُونَ غَدٍ لَيْلَةً ، أن عليا مات متأثرا أكثر من الناحية النفسية ، حيث تعرض لضغوط كبيرة لا يعلمها إلا الله ، و يراها جريمة و اِثما – لا يُلْقَى لهما بال – شارك فيها الجميع من اَهل و جيران و مجتمع لا همة له غير أن يجعل من عرض المرء علكة يلوكها في ليله و نهاره ، و فاكهة لا يتلذذ بغيرها ، فكل واحد يحمل كِفْلا منها على قدر مشاركته في تلك الجريمة و ذلك الاِثم ، و عند الله يلتقي الجميع

أما العَمْرِي بن عبد القادر فقد تدرج في اَطوار التعليم حتى وصل إلى نهاية السنة الثالثة من التعليم الثانوي ، ثم ترك طلب العلم و اشتغل في مهن حرة و من بينها في مقهى ، ثم توجه للعمل مع والده في تجارة الخضر في الأسواق ، و ذاق هو كذلك من مرارة غضب والده عبد القادر ، فمما يذكره كثيرا من الذكريات:

–لا اَنسى اَبدا يوم أن غضب علي غضبا شديدا ثم رماني بربطة اللفت و هو يزبد و يرعد في السوق ، و الناس حولنا تشاهد ذلك في دهشة و حيرة.

أما آدم فيذكر له ذكرى أُخرى و يراها اَعظم من هذه بكثير ، و ذلك إنه في يوم من الاَيام أُحْتِيجَتْ سيارة عبد القادر البيجو اَربعمئة و ثلاث من نوع (Pick-Up Bâché) ،

لبعض الإِصلاحات فتوجه لورشة تصليح السيارات و كانت بالحي ، و بعد الفحص قال المصلح:

-ماذا اَقول لك يا عبد القادر ؟. السيارة بحاجة إلى فك محركها حتى نتمكن من اِصلاح العطب ، و مثل ما ترى فإن الوقت مساء و قرب اِغلاق الورشة ، و لا يكفينا الوقت لذلك فأتني بها صباح الغد و سأُباشر اِصلاحي مباشرة حين افتح الورشة.

-لا يمكنني ذلك فالغد هو يوم الأَحد و في الصباح اَكون في السوق ، و هو مهم بالنسبة لي ، بل سأَترك لك المفتاح في بيتي بعد اِفراغها من السلعة فجرا في السوق ، فما عليك إلا أن تنادي على ابني العَمْرِي ليسلمك اِياه ، و ذلك حين تفتح ورشتك صباحا أرجو أن تكون أول سيارة تباشر بِإصلاحها ، أنت تعرف إني لا اَملك غيرها ، و إن اَصابها عطل اَصابني معها تَبَطُّلٌ كذلك.

-اَعلم ذلك فلا تُوصي حريصا.

-حسنا قد اِتفقنا.

في صباح الأَحد و حوالي الساعة التاسعة ، و بينما عبد القادر في سوقه سمع اَحدهم يحدث آخر واقفين لا يفرق بينه و بينهما غير بسطته ، فقد قال لصاحبه محدثا:

-هذا الصباح صدم اَحدهم حائطا بسيارة بيجو اَربع مئة و ثلاثة ، ثم تركها ملتصقة بالحائط و لاذ بالفرار.

-في أي حي جرى ذلك.

-في حي دوار السوق.

فلما سمع عبد القادر هذا الكلام ، حاك شيء في صدره فقال لشريكه:

–سوف اَغيب بعض الوقت ثم اَعود ، إن هذين تحدثا عن حادث سيارة و ما اَظنها إلا سيارتي.

و قصد من فوره البيت و ما كان يخشي حدوثه وقع بالفعل ، فإنه وجد سيارته ملتصقة بحائط جاره ، فلما شاهده جاره مقبلا اِستقبله مغاضبا و صارخا

–تتركون سيارتكم لاَولادكم يلعبون بها ، و كأنها لعبة من ورق ، ألا تدرون أنها آلة من آلآت الموت ؟. بلى تعلمون ذلك ، ماذا لو كنت أنا واقفا هنا أو أحد اَولادي ؟. ألا يقتلنا اِبنك بتهوره هذا ؟. و ماذا عن هذا الحائط المتهدم من يصلحه؟.

لكن غضب عبد القادر منعه من التمييز بين الخطأ و الصواب ، و الحق و الباطل ، و صاحب الحق و المحقوق ، فغضب غضبا شديدا على جاره ، و كلمه بكلام غليظ ، ثم توجه من فوره إلى البيت فلما رأته آمينة يدخل ظنت أنه جاء بنفسه ليسلم المفتاح للمصلح.

–أين العمري ؟.

–العمري قد غادر بعد أن اَعطيته مفتاح السيارة ليسلمه للرجل كما طلبت مني.

–أَلا تدرين ماذا حدث.

–و ما يدريني ما حدث.!

–لقد اِرتطم العمري بالحائط الخلفي لجارنا عباس ، ثم ترك السيارة ملتصقة بالحائط و لاذ بالفرار.

ثم بدأ بتكسير كل ما يقع في يده من اَواني البيت ، كما تعرضت الأُم اَمينة للضرب و الشتم مثل كل عادة يغضب فيها عبد القادر ، ثم خرج و عاد بصحبة العمري فسحب من فوق الخزانة عصا من البلاستيك الصلب ، و لكنها ثقيلة و صلبة بسبب مادة مضافة

للبلاستيك ، و بدأ يضرب بها العمري فلم يتركه حتى اَدماه ، و هدأ منه بعض الغصب ، فهذه الحادثة من الذكريات التي اِلتقطها آدم رغم صغر سنه ، و لم ينساها اَبدا ، و التي لها علاقة بالعمري .

و كانت للعمري هواية جمع الطوابع فجمع عددا لا بأس بها ثم هجر هذه الهواية ، كما كان له حلم و هو التوجه إلى أُوروبا للعيش هناك ، فتحقق له ذلك حيث حصل على تأشيرة اِيطالية ، و مكث هناك بضع سنوات ثم دخل بريطانيا متخفيا ، و استطاع أن يتزوج هناك ، و تحصل على الجنسية البريطانية ، كما رزق بابنة و استقر به المقام في احدى مدنها.

أما عبد الحليم فهو ثالث اَشقائه الذكور ، فإنه ترك الدراسة و هو في مرحلة التعليم المتوسط ، حيث لا يميل للتعلم ، و بعد تركه الدراسة حاول الاِلتحاق بمعهد التكوين المهني ، ثم تركه ليعين والده في تجارة الخضر بالأَسواق بعد سفر العمري لاِيطاليا ، و اَبر اَشقائه بوالديه ، فقد زوجه والده عبد القادر بعد انتهائه من الخدمة الوطنية مباشرة حتى تأنس أُمُه آمنة بأنيس اثناء نهارها في البيت ، حيث يخلوا من زوجها و ابنائها فتحرك تلك الوحدة حزنها و تقويه ، و الذي يتملكها كلما كانت لوحدها فتبدأ في البكاء على فقدان اِبنتها حمامة ، و لا تتوقف عن ذلك حتى تجد من تأنس به ، و ينسيها بعض الشيء التفكير في ذكرياتها التي تربطها بابنتها الغالية ، و إنه اكثر من تحمل سورة غضب والده عبد القادر بين اَشقائه ، كما تحمل اعباء اَرذل عمر والديه فكان نعم الولد لوالدية ، و لم يكتف بهذا بل سخر زوجته و اَولاده لخدمتهم فلا تراه إلى مسعفا لأُمه ساهرا على راحة الأب ، كما تشاهد اِحدى ابنائه بين رجلي جده مغسلا لهما ، و الثاني حاملا دواء لجدته ، و مع هذا فإنهم يتعرضون لسخط جدهم حين مرضه ، و تململه ، و كآبته ، و قلة صبره على صوارف

الزمن ، و رغم عدم ميل عبد الحليم للقراءة و بعده عن الثقافة التي ينشدها الكثير و يدعيها ، فإنه لم يملك طيلة حياته إلا كتابا واحدا عن بر الوالدين و هي رسالة صغيرة تذكر بتلك الطاعة الربانية الكبيرة فكفته في هذا الجانب العظيم من حياة الإنسانية.

و مما يُعلي رتبته و كعبه بين اشقائه هو بلاءه الحسن مع والدته إلى آخر يوم في حياتها ، فمن شاهده قبل عشر سنوات واقفا أمام رجلي أُمه الراقدة على سرير المستشفى يترقب بُرْأَهَا ، شاهده واقفا أمام رجلي أُمه الراقدة على نعشها يترقب السلام الأَخير لآقاربها عليها ، و ذلك قبل إستنجادها به قبل يوم حين أَحست بضيق شديد في صدرها و كان في سوقه ، و عسى أنه كُتِبَ دخوله الجنة من أوسط أَبوابها نصيبا له لِبِرِّهِ بوالديه ، فعن أبي الدرداء – ﷺ – قال: " سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: الوالِدُ أوسطُ أبوابِ الجنَّةِ، فإنَّ شئتَ فأضِع ذلك البابَ أو احفَظْهُ ". و في رواية " قالَ أبو الدَّرداءِ: سمعتُ رسولَ اللَّهِ – صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ – يقولُ: الوالدُ أوسَطُ أبوابِ الجنَّةِ ، فحافِظ علَى والديكَ أوِ أُترُكْ."

ففي يوم اربعاء بارد من شهر كانوني و في منتصف النهار دخل الشيخ عبد القادر غرفة من غرف بيته حتى يتحسس أَخبار زوجته أَمينة ذات الثاني و الثمانين سنة ، فوجدها تخبط كفها على صدرها و قد انفجر الدم من أَنفها ، و تجد صعوبة في التنفس ، كما إنها لا تعي ما يدور حولها ، فنادى على زوجة عبد الحليم التي اتصلت بدورها بابنها البكر فحملاها على الفور إلى المستشفى ، فقضت يوما كاملا هناك فاقدة الوعي تحت مراقبة الاطباء و إشرافهم متصلة بجهاز التنفس ، و في فجر الخميس توفيت أَمينة ، و حين أُخبر الشيخ عبد القادر صاحب الثلاث و الثمانين حجة ، إنهار بالبكاء و رثى زوجته و صاحبة دربه

الطويل بكلام ادهش من رآه ، كيف أن ذلك الرجل العصبي صاحب القلب القاسي يتفجر اَخيرا بهذا النهر من الحنان ؟.

-كنت متيقنا و متأكدا بأن ساعتها قد حلت ، فليتها كلمتني و سامحنا بعضنا بعضا ، تركتني وحيدا كما لقتني وحيدا ، ما اَقسى هذا الموت الذي يختطف كل اَحبتي من حولي ، اَخذ مني اِبنتي حمامة ، و اَخذ مني ابني عَلِيًا ، و اَخذ اختي فاطمة ، و ها هو ذا يفجعني في زوجتي ، كُتِبَ علي أن أُولد يتيما و أن أموت يتيما ، أنا الذي يدفن اَولاده و احبته ، لا الذي يدفنه اَولاده و احبته.

صدق رسول الله – صلى الله عليه و سلم – " أَكْثِرُوا ذِكْرَ هادِمِ اللذَّاتِ ". فالموت سنة نهاية الحياة العادلة لكن طعمه مُرٌّ علقم إذا اَختطف اَحد الأَحبة.

إلى روح والدتي الويزة العَيْفَة عَيَايَس

العلمة ليلة الأحد

8جمادى الأولى 1443 هجرية

و الموافق لـ

12ديسمبر 2021 ميلادية

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظة للمؤلف ، و يمنع طباعة هذا الكتاب أو الاقتباس الكلي أو الجزئي منه بأي طريقة إلكترونية أو ميكانيكية بدون إذن خطي مسبق من المؤلف.